علم الاجتماع الأخلاقى

تأليف الدكتور
حسين عبد الحميد أحمد رشوان
كبير مدرسى علم الاجتماع بدرجة مدير عام/ أستاذ
جامعة الإسكندرية (سابقاً)

٢٠٠٢

الناشر
المكتب العربى الحديث
ت: ٤٨٤٦٤٨٩ - إسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم انفعني بما علمتني وعلمني ما ينفعني وزدني علما



إهداء

إلي من ادعي قولة زور ، ومقولة زائفة .

قال أنت تنظر إلي الناس بمنظار أسود ، وتعتبرهم جميعاً أشرار .

لعله يطلع علي هذا الكتاب

ليتعلم مما جاء به ، وليعرف اتجاه المؤلف ، ولا ينصّب نفسه حكماً علي الناس ، حتى لا يكون من أصحاب الإفك .



المحتويات

الموضوع	أرقام الصفحات
	من — إلى

المقدمة

دفعني إلي الكتابة في موضوع الأخلاق ما أحسست به من أن غالبية الناس كان توجههم العام إلي المشكلة الاقتصادية ، وليس إلي الأخلاق . فقد لاحظت خلال تجاربي وحياتي ، وما مر بي من أحداث وقد دنوت من السبعين عاما في معاملاتي مع رؤساء ، ومرءوسين ، وطلاب ، وأقارب ، وموظفين في الهيئات الحكومية وغير الحكومية ، وأطباء في التأمين الصحي .. وغيرهم أن سلوكيات الناس وأقوالهم وأفعالهم في زماننا هذا نحت بعيدا عن الفضيلة ، واقتربت من الرذيلة ، وأصبحت تعبر عن الشر أكثر مما تعبر عن الخير ، وحل الخداع محل الوفاء ، والكذب مكان الصدق ، والباطل بدلا من الحق .

حقيقة تمتلئ الدنيا بالخير ، والناس الخيرين ، ولكن كثر الأشرار في هذا الزمن ، وانحاز غالبية الناس إلي القيم السلبية ؛ فآثروا الأنانية علي الإيثارية، وفضلوا المصلحة الخاصة علي المصلحة العامة .

وقد رأى بعض الفلاسفة أن مهمة الأخلاق " تنحصر في وضع المثل الأعلى ، والكمال الأخلاقي، فهي الدراسة المعيارية للخير والشر ومن هنا اصطبغت الأخلاق بصبغة فلسفية ذاتية شخصية . وأصبح هدف كل فيلسوف أن يتبنى مذهبا أخلاقيا يعارض به الأخلاق القائمة .

واعتبر البعض الأخر من الفلاسفة أن الأخلاق علما يقف علي قدم المساواة مع علم المنطق ، وعلم الجمال . فإذا كان موضوع علم المنطق هو قيمة الحق ، وموضوع علم الاستطيقا أو علم الجمال هو قيمة الجمال " ، فإن موضوع علم الأخلاق هو قيمة "الخير " والأخلاق بذلك علم عقلي يدرس ما ينبغي

أن يكون ، فهي الدراسة المعيارية للخير والشر . إنها نظرية المثل الأعلى ، فــهي علم معياري .

أما علماء الاجتماع فقد نظروا إلي الظواهر الأخلاقية باعتبارها ظواهـــر اجتماعية يمكن التعرف عليها بما لها من صفات خاصة وسمات ممـــيزة ، فنحــن نلاحظها ونصفها ونحللها ، ونحاول من خلال ذلك الوصول إلي القوانيـــن التـــي تفسرها . وهذا هو المنهج العلمي . ومن هنا ظهر فرع من فروع علم الاجتمـــاع يطلق عليه " علم الاجتماع الأخلاقي " .

والواقع أن الباحث الاجتماعي لا يستطيع أن يسقط من حسابه تصـــورات الفلاسفة ونظريات علماء الأخلاق وهو يدرس الوقائع الأخلاقيـــة ، إذ تعـــد هـــذه التصورات بمثابة وثائق هامة تكشف عما يدور بباطن الضمير الخلقي في عصـــر من العصور .

وقد استخدم المؤلف منهج المقارنة ، ذلك أن طبيعة الموضوع تقتضـــي أن يقارن بين المبادئ الأخلاقية التي قال بها فلاسفة فـــي العصـــر اليونـــاني وفـــي الحضارة الرومانية ، أو بين ما قال بها فيلسوف ، وما أوردها فيلسوف آخر .

واستخدم المؤلف ثلاثة وستون مرجعا منها أربعون مرجعا عربيا يقـــف علي قمتها كتب الأستاذ الدكتور / السيد محمد بدوي ، ومنـــها كتابـــه بعنـــوان " الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع " الإسكندرية /دار المعرفة الجامعيـــة ، ١٩٩٥. وكذلك كتب الأستاذ الدكتور / قبارى محمد إسماعيل ، وعلي رأسها كتابه بعنـــوان

" قضايا علم الأخلاق " - دراسة نقدية من زاوية علم الاجتماع . دار المطبوعات الجديدة للطباعة ، ١٩٧٨ .

وينقسم هذا المؤلف إلي عشرة فصول يتناول الفصل الأول ماهية الأخلاق وتعريفها . وتعرض فيها الفصل لمختلف التعريفات ، وأشار الفصل إلي خصائص الأخلاق ، وهل الحاسة الخلقية غريزية أم مكتسبة ، ثم تطرق الفصل إلي ارتباط الأخلاق بالعلوم والظواهر الإنسانية .

وأورد الفصل الثاني الفضائل ، وهي تعني الزيادة ، وعكسها الرذائل ، وتعني الجدب والرذاذ ، والفضيلة هي الخلق الطيب ، ومنها واجبات الإنسان وحقوقه ، والصدق ، والشجاعة ، والعدل ، والطاعة ، والاعتماد علي النفس ، وضبط النفس ، وتطرق الفصل إلي طرق غرس الفضائل .

ويلقي الفصل الثالث الضوء علي أصول الفكر الأخلاقي وتطوره ، وتطرق الفصل إلي وضع الأخلاق في مصر القديمة تحت حماية الدين ، وعد الظلم رذيلة ، والعدل يمثله إله الشمس ، وإذا ما اضطرب النظام فيعتبر هذا جرما ، وحظ الميت متوقف علي سلوكه خلال حياته وعدّد الفصل عددا من الفضائل .

وأشار الفصل كذلك إلي الأخلاق في العقيدة البوذية في شمال الهند . فقيمة "الطريق الوسط" ، تحقق السعادة الروحية ، والفضيلة وسط بين الإفراط والنقص . ويرى كونفشيوس أنه علي الحاكم أن يبدأ بوضع نفسه موضعها الصحيح ، وإذا تم ذلك لن تجرؤ الرعايا علي الانحراف عن الحق .

وفي الفلسفة اليونانية القديمة ظهرت أفكار سقراط ، وأفلاطـــون ، وهـــو يمثل قمة التحليق في عالم المثل للوصول إلي حقيقة " الخير الأسمى ، والفضيلـــة عند أر سطو هي الاعتدال ، أو هي " الوسط العدل " • وتطرق الفصل بعد ذلـــك إلي أبيقور ، والرواقيين •

وتناول الفصل الرابع الأخلاق في الحضارة الرومانيـــة • ولـــم يحـــاول الرومان معرفة المثل العليا ، أو إرساء أخلاقهم علي أسس فلسفية ، وإنما ترجـــع أصالة تفكيرهم إلي الدور الكبير الذي لعبته أوربا في تطبيـــق المبـــادئ القانونيـــة والسياسية والإدارية تطبيقاً علميا في الشعوب التـــي أخضعوهـــا • كمـــا لعـــب الرومان دوراً هاماً في نقل التراث اليوناني خاصة عند الرواقيين ، فيمـــا يتعلـــق بالمساواة الإنسانية ، والأخوة بين الناس ، وقيمة الفرد • ويتمثل فكر الرومان فـــي الأخلاق في أفكار شيشرون وسنيكا •

ويلقي الفصل الخامس الضوء علي الأخـــلاق فـــي الشـــريعة اليهوديـــة والمسيحية ، فقد جاءت شريعة موسى عليه السلام شاملة بعـــض المبـــادئ التـــي تعطى للفرد قيمته وتدعو إلي رعاية المرضي ، وتحث علي الاتحاد ، والنظافـــة ؛ واعتبرت الشريعة ثروة الفرد ملك لله فيجب رعايتها وصرفها فيما يعـــود علـــى الجماعة بالخير • ولتنظيم الإحسان أوجدت اليهودية نظام العشور • وارتبطـــت اليهودية التلموديه بالربا والبغاء • ونظمت الشريعة اليهودية العلاقات الزوجيـــة ، وسمحت اليهودية القديمة بزواج الرجل من أختين •

وانتهجت الشريعة المسيحية طريق التسامح والعفـــو ، وجعلـــت الخـــير أساس الأخلاق والفضيلة • وجاءت المسيحية بفكرة المســـاواة بيـــن الأفـــراد •

والزواج في المسيحية عقد مقدس وتجعل المسيحية للعزوبية قيمة كبـــيرة . وقـــد أخذت المرأة بعض حقوقها الاجتماعية والاقتصادية .

وطرق الفصل السادس الأخلاق عند المســـلمين . وعــرف المســـلمون أصول الفضائل ، فأصولها : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدالة . والعدالــــة جماع كل فضيلة ، والجور جماع كل رذيلة . ومن هـــــذه الفضـــائل : الخـــير والشر ، والاعتصام بحبل الله ، والشورى ، والأمر بـــالمعروف والنــــهي عـــن المنكر ، والحرية ، ومبدأ المساواة ، والصدق ، والصبر ، والعـــدل ، والأمانـــة ، والصحبة ، وتجنب النفاق ،وبين التملق والنصيحة ، وبين البخل والإسراف .

وتناول الإسلام أخلاقنا الاجتماعية فـــي الأعيـــاد ، وســـلوكيات الأكـــل والشرب والملبس والمجلس . ووضع الإسلام قواعد للعلاقات الزوجية .

وضرب الفصل أمثلة بالفضائل عند المعتزلة ، والصوفية . ومثل لذلـــك بالإمـــام محمد أبو حامد الغزالى .

وتناول الفصل السابع الأخلاق في عصر النهضة ، متمثـــلا ذلـــك فـــي المذهب الأخلاقي عند توماس هوبز ، والمذهب الأخلاقي عند جون لوك .

وفي الفصل الثامن أُلقِي الضوءُ علي الأخلاق في الفلسفة الحديثة ، وهـــي تتنوع وقد تتعارض مع ببعضها البعض . ويرجع هذا إلي ما تميز به هذا العصـــر من انتفاضات وثورات دينية وعلمية وتكنولوجية وسياسية . ونتج عن هـــذا كلـــه

القضاء علي الوصايا الفكرية التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية خـــلال العصـــور الوسطى . وكان هذا إيذانا بقيام الدولة القومية التي تميزت بوجود سلطة واحدة .

أدت هذه الظروف إلي انطلاق الفرد وتحرره مـــن شـــرائع الإقطـــاع ، وظهر الفيلسوف الحديث الذي يؤمن بالذات ، والأنا ، والعقل والشعور وضربنـــا أمثلة لذلك بالفيلسوف ديكارت ، وجان جاك رو سو ، وهيجل وعما نويل كانط .

وأشار الفصل التاسع إلي المذاهب الوضعية والمـــدارس الممـــهدة لعلـــم الاجتماع الأخلاقي . فقد ظهرت في القرن التاسع عشر مدارس تقيـــم الأخـــلاق علي أسس علمية ، وتستند إلي الوضعية ، وتســـتقل عـــن نظريـــات الفلاســـفة ، فالظواهر الأخلاقية لا تقوم علي الخيال والتأمل ، وإنما يمكن النظر إليـــها علـــي أنها حقيقة موضوعية ، تستند إلي المشاهدة والوصف الدقيق والمحدد باعتبار أنـــها قائمة بالفعل .

وفي ضوء هذه المذاهب الوضعية تفسر المبادئ الأخلاقية ؛ والنفـــور أو الحكم بالإدانة ، وماشاكلهما في ضوء التجربة أو المنفعة ، أو ترد إلـــي أســـباب مادية / اقتصاديـــة ، أو تاريخيـــة تطوريـــة ، أو بيولوجيـــة أو ســـيكولوجية أو اجتماعية .

ويلقي الفصل العاشر والأخير الضوء علـــي الأخـــلاق مـــن المنظـــور الاجتماعي ، فقد اعترض علماء الاجتماع علي الأخلاق الصوريـــة ، وخرجـــوا علي ميتا فيزيقا كانط للواجب المطلق ، وقرروا أن كل فرد منا يتلقـــى ضميـــره الأخلاقي من الوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه . كذلك فإن الحكم علـــي أفعـــال

الإنسان لا يأتي من خلال ضميره فحسب ، بل من ضمير المجتمع ، فالتيارات الخلقية ترجع إلي أصولها الاجتماعية ٠

وعلم الاجتماع يحاول أن يحرر الأخلاق من كل نزعة ذاتية عاطفية ، ومن ثم فهو لا يدرسها كما يفعل الفلاسفة ، وإنما يدرسها دراسة وضعية ، مستخدما مناهج كمية استقرائية ، ومستندا إلي الملاحظة والتجربة ، محاولا الوصول إلي القوانين التي تحكم هذه الظواهر وتتبؤنا بما سيحدث في المستقبل٠

وقد أرسى هذا المذهب أو جست كونت ، وأكمل جهوده : "إميل دوركايم"، ثم ظهرت كتابات " ليفي بريل " و " البيربايية " ٠

الطبعة الأولى ٢٠٠٠

الطبعة الثانية ٢٠٠٢

دكتور / حسين عبد الحميد أحمد رشوان

الفصل الأول

ماهية الأخلاق

تعريف الأخلاق

الأخلاق ليست علما كعلم الفلك أو الكيمياء أو الطبيعية أو الرياضيات ، ولكنها أفعال وأقوال تصدر عن الإنسان ٠ فإذا أعلن المتصوف أن الخير الأسمى هو الفناء في الله ، وإذا كتب المؤرخ أن حرق نيرون لمدينة روما كان عملا شائنا ، وإذا قالت الأم لطفلها يجب ألا تكذب بتاتا ، فهذه كلها صيغ تدل على اتجاهات خلقية ٠

والأخلاق موجودة طالما هناك تمييز في أى شكل من الأشكال بين الخير والشر ، فالإنسان تصدر عنه أحكام متنوعة ، فإذا قال : المبتدأ مرفوع ؛ فهذا حكم نوعي لا أخلاقي . وإذا قال : الأجسام تتمدد بالحرارة ؛ فهذا حكم طبيعي لا أخلاقي . أما الحكم الأخلاقي فهو أن نحكم علي الشيء بأنه خير أو شر ، فقولنا الصدق خير والكذب شر حكم أخلاقي ٠

وقد اختلفت الآراء وتشعبت حول موضوع الأخلاق ، فها هو بسكال يقول : أن الأخلاق هي علم الإنسان باعتبار أن الأخلاق تميز الإنسان عن غيره من الكائنات ٠

ويعد هذا التعريف تعريفا فضفاضا ، كما أنه يخلط بين الأخلاق وبين الأنثروبولوجيا والتي هي علم الإنسان ٠

أما سنبسر فيعرف الأخلاق بأنها " العلم الذي يبحث في النشاط الإنسـاني من حيث ما يحققه هذا النشاط للآخرين من نتائج مفيدة أو ضارة ٠ وهذا التعريف وإن كان أكثر تفصيلاً من سابقه ، إلا أنه يخلط بين النشاط الأخلاقي المنزة عـن الغرض ، وبين أوجه النشاط النفعية [١] ٠

حقيقة إن الأخلاق صفة لازمة للإنسان ، فهي تضمن التوقير والإجـلال ، وتحد من أفعال الأفراد إذا كان من أثرها إيذاء الغير ، وتفرض عليهم واجبـات. فكل منا يميز بين الأخلاقي وغير الأخلاقي ، وإن اختلفت معايير هذا التميـيز ٠ فالمجرمون ومن ينبذهم المجتمع لهم معاييرهم الخلقية التي يحكمـون بـها علـي أفراد بيئتهم ؛ وعلي غيرهم ممن يعيشون في بيئات مختلفة ٠

وتظهر الأخلاق في سلوك الفرد مع أقرب وأبعد الناس عنه ٠ فهو يسـلك ليس من أجل شهرته أو الحصـول علـي المـال ، أو العلـم ، أو التـأليف ، أو الخطابة، أو السياسة ، وإنما حسب ما يقتضيه الواجب ٠

ولكن يعترض علي التعريفين السابقين في استخدام لفظة "علـم "، فـالعلم يتعلق دائما بما هو كائن ، ويتخذ من الظواهر موضوعاً لدراسته ، فيصفها ، ليلـم بحقيقتها ، ويحاول إيجاد العلاقة فيما بينها ، ويصيغ هذا في شكل قوانيـن ، هـي أحكام تقريرية ٠

أما الأخلاق فهي تتعلق دائما بما ينبغي أن يكون ، وأحكامـها تقديريـة ، وأقرب إلي فكر عقلي يدور حول الخير والشر ٠

١- د٠ عبد الوهاب جعفر مذكرة في فلسفة الاخلاق ص.ص ٢١-٢٢

فقد اعتنت الفلسفة الأخلاقية بتعريف الخير الأسمى للإنسانية ، ووضع معايير العدالة والحق والواجب والفضيلة والمسئولية ، ومعرفة الخير والشر ، فنحن نقول – مثلا – العدل خير ، والظلم شر ، وأداء الدين إلي صاحبه خير ، وإنكار المدين ما عليه شر .

ولكن ما هو الخير ؟ وما هو الشر ؟

يعد العمل خيرا كلما قرّب من إسعاد الناس ، وشرا كلما أبعد الناس عن السعادة . فالإنسان الخير هو من عمل لخير الناس ، وربط منفعته الشخصية بمنفعتهم ، وتألم من أي أذى يصيبه هو أو يصيبهم ، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه .

وهناك أشياء هي خير في ذاتها ، وهي ما تسمى بالفضائل ، وذلك كالصدق والعدل والشجاعة والعفة .. وغيرها . كما أن هناك أشياء شر في ذاتها وهي ما تسمى بالرذائل ، وتتمثل في الظلم والكذب والجبن وغيرها .

ونحن لا نحكم علي هذه الأعمال علي أنها خير أو شر تبعا لنتائجها ، وإنما نحكم عليها حكما مطلقا مهما كانت النتائج . فالعمل الذي قصد به الخير خير مهما استتبع من النتائج ، والذي أريد به الشر هو شر ولوا ستتبع نتائج حسنه فالكذب والظلم والشره شر دائما سواء أنتجت لذة أو ألما ، والإنسان الخير من وجه إرادته للعمل حسب ما تهديه نفسه للخير .

إن الإنسان لا يلام علي عمل عمله يريد منه الخير مهما ساءت نتائجه ، بشرط أن يكون قد بذل جهده في معرفة ما ينتج عن عمله ، وإنما يلام إذا كان

في استطاعته أن يرى النتائج إذا دقق في البحث وأنعم النظر ثم لم يفعل ، فموضع اللوم هو التقصير عند اختيار العمل ، وعدم الدقة في حساب نتائجه ، وليس موضع اللوم هو إرادة العمل الصالح . فالأطباء - مثلا - لا لوم عليهم إذا بذلوا أقصى جهدهم في فحصهم وأتت النتيجة بما ليس في حسابهم ، إنما يلامون إذا قصروا في الحكم وبنوا حكمهم علي نظر سطحي غير دقيق .

والغاية الأخيرة التي ينبغي أن يسعى إليها المرء هي أن يكون فاضلا ، يتبع الفضيلة حيث كانت ، ويلزم نفسه بالعمل علي وفقها ولو تحمل في سبيل ذلك الآلام الجسام ، وليست الغاية هي السعادة ، ولكنها أداء الواجب ، والتمسك بالفضيلة ، وإن ضحي لذلك باللذة والسعادة ، بل وبالحياة إذا دعت الحال ، فالفعل الفاضل هنا هو الواجب من أجل الواجب .

قد يكون هذا التعريف أقرب إلي بيان حقيقة الأخلاق . ولكن الأخلاق لست نهيا عن السوء ، ولا أمرا بالتقوى ، بل هي منظومة أعمال يستكمل بها الفرد شروط الحياة مرتقيا من شخص إلي ذات .

ويميل هذا التعريف إلي الضيق ، ذلك أن الأشياء الخيرة ، كنمو المعرفة الإنسانية - مثلا - أمر مرغوب فيه أو له وزن أو قيمة ، ومن المفروض أن نسعى نحو إشباع هذه الغاية ، لكن البعض قد يرى أنها محاولات غير ذات قيمة ، وعلى ذلك ليس هناك داعي للسعي نحو إشباعها . وفي ضوء هذا فنحن لا نستطيع أن نقرر ما هو صائب أو خاطئ دون أن نضع في اعتبارنا القيمة أو الخير الذي يستحق أن نكافح من أجله .

وتتداخل كلمتا :" خير" و" صائب " دائما في حال استخدامهما في حديثنا ، ولكن يبدو بينهما تمييز واضح في الأخلاق . فكلمة صائب تستخدم دوما للأفعال actions أما كلمة " خير " فتستخدم لكل ما هو مرغوب فيه كالأهداف والغايات. ومع ذلك فنحن نستخدمها في حياتنا اليومية لقولنا " إنسان خير " و " شخصية أخلاقية خيرة" و"ملامح شخصية خيرة " و "بواعث خيرة " و"رغبات خيرة " .

وينطوي كل من الخير والشر علي كثير من التنوع. ففي قاموس اللغة درجات متفاوتة تنضوي تحت مفهوم "الخير " فهناك ما هو مشروع ؛ وما هو ملائم ، ومالا غبار عليه ، وما هو مشرف ، وما هو مستحسن ، وما هو جدير بالثناء ، وما هو نبيل ، وما هو سام ، وما هو رائع ، وما هو بطولي ...

وتحت مفهوم " الشر " تميز اللغة بين ما هو رديء وما هو مذموم وما هو خاطئ ،وبين ما هو قذر ، وما هو إجرامي ، وما هو كريه ، وبين ما ينطوي علي الحطة ، وما هو دني ، وما هو مقزز ، وبين ما هو شيطاني ، وما هو وحشي ، وبين ما هو فظيع وما هو بشع . وفي مجال السلوك الأخلاقي نجد معاني مختلفة . فبين القديس والشيطان ، أو البطل والرعديد ، أو الأمين واللص ، درجات من التفاوت التي تصعد أو تهبط بنا في سلم التقويم الخلقي . كذلك كثيرا ما نتحدث عن أسلوب خير ، وطريق خير ، ويوم يبشر بالخير وهكذا.

ويفترض هذا التعريف تحت كلمة " الخير " تحديد ما هو كائن حقا وتحت كلمة " الشر " تحديد مالا وجود له إلا الوهم والخدعة . وليس الخير كائنا أو شيئا ملموسا نستطيع أن نلمسه ونعرفه ولكنه أمر يصدر من الإرادة بعد أن

تستبينه النية الطيبة . وتتوقف قيمة هذا الأمر علي ما سوف يكـــون ـــ أي علـــي تنفيذه . وبدون هذا التنفيذ لا يكون هناك خير .

كذلك فإن الناس يسلكون طبقا لغاية أو غرض يسعون إليه وهم يختلفـــون في هذه الغايات التي ينشدونها اختلافا كبيرا . فبعضهم يطلب المال ، وآخر يطلـب الجاه ، وثالث يطلب العلم ، وفريق يزهد كل ذلك ويطلـــب رضـــا الله ، فيعمـل صالحا ، ويأمل النعيم في الدار الآخر ، ولكن كثيرا مـــن هـــذه الغايـــات التـــي يطلبونها ليست هي الغاية الأخيرة ، والغاية الأخيرة للإنسان أن يكـــون ســـعيدا ، فهل للناس جميعا غاية أخيرة واحدة يطلبونها أو ينبغي أن يطلبونها ؟ وما هي ؟

وتبرز هنا مشكلة أخري هي ما إذا كانت المبادئ الأخلاقية تســـتند إلـــى أساس ديني أو علماني ، وما إذا كانت تؤسس على مبـــدأ اللـــذة ، أو العقـــل ، أو المنفعة ، أو تقوم على فكرة الواجب أو الجزاء ، أو يحركها الشعور بالتضـــامن ، أو عاطفة الشفق أو المحبة .

ومن العلماء من يعتبر علم الأخلاق علما يقوم بتشجيع الناس على عمـــل ما هو صائب . والواقع أن هذا القول زائف . فالتأثير على الناس لكي يتصرفـــوا بصورة معينة كإقناعهم بقيمة أخلاقية معينة أو التحذير أو الإقنـــاع أو الوعـــظ أو الدعاية أو التقويم المغناطيسي أو العلاج النفسي هو أمر ممكن ولكنه لا دخل لـــه بعلم الأخلاق .

ويقرر البعض أن علم الأخلاق يجب أن تكون له القدرة علـــى أن يخـــبر الفرد بدقة أي الأفعال هي الصائبة وأي منها الخاطئة ، وهذا التعريف يفـــترض أن

علينا أن نعرف مراتب شاسعة من الحقائق التجريبية لكل فرد وموقفه وظروف فعله والتأثيرات المختلفة التي تؤثر فيما يؤديه من أفعال . كذلك لا يفوتنا أن كل موقف للفرد يختلف عن موقف أخر . ولا يستطيع فيلسوف الأخلاق أن يلم بكافة المواقف . ولذلك فعالم الأخلاق يدرس المبادئ الأخلاقية وليس الأفعال الفردية التي تختلف من فرد لأخر ، وتختلف كذلك في موقف عن موقف آخر للفرد الواحد[١]

ويقول آخرون أن الأخلاق تدرس ما ينبغي أن يكون وليس ما هو كائن- أي ما يجب أن تكون عليه أفعال وتعاملات الناس بعضهم بعضا . وعلى ذلك فالأخلاق بطبيعتها معيارية لأن الغرض الذي يهدف إليه هو تحديد "المثل الأعلى"، وبيان السبل الذي يمكن عن طريقها أن يتحقق " المثل الأعلى "، ودعوة الناس إلى تحقيق الكمال الخلقي .

وتعد العبارة صحيحة إلى الحد الذي يظهر فيه الاختلاف بين أحكام الواقع وأحكام القيمة . وهنا يظهر الاختلاف بين الأخلاق من ناحية والعلم التجريبي من ناحية أخري .

ومن الفلاسفة من يقول أن الأخلاق تمثل مكانا وسطا ، أو مرتبة متوسطة من مراتب التجربة العقلية : فهناك الأفعال التلقائية الساذجة التي تعبر عن الغريزة ، وعن المشاعر التي لا تحديد لها • وفي هذه المنطقة السفلي من مناطق التدرج العقلي ، تتربع الغريزة وتسيطر علي حياة الإنسان ، وتقوده إلى

---

١ - . أنظر د . على عبد المعطي محمد . المدخل إلى الفلسفة ص ص ٣٩٣ – ٣٩٨ .

الخير أحيانا وإلى الهلاك أحيانا . ويتلمس الإنسان طريقه في هذه الحالـــة علـــي هدى الحدس والاستشفاف •

أما المرتبة التي تسمو علي مرتبة الأخلاق ، فهي المرتبة التي يصل فيـها المرء إلي درجة من التجربة والحنكة تجعله يتصرف فـــي أدق الأمـــور تصرفـــا حكيما . ويمكن أن نقول في هذه الحالة إن الأخلاق قد امتزجت بكيانه ، وســـرت في دمه •

ويشترك كل من المستوى الأدنى والمستوى الأعلى للشعور فـــي صفـــة واحدة ، وهي أن الذات فيها تعمل كوحدة ، فالأنا الســـاذجة تتحـــرك بـــالغريزة، والقديسة تستمد تصرفاتها من الوحي الإلهي أمـــا المســـتوى المتوســـط ، وهـــو مستوى الأخلاق ، فيتميز ، علي العكس بانقسام الذات وترددها تبعا للعقبات التـــي تعترضها والتي تحاول أن تجد لها الحلول المناسبة • وفي منتصف الطريق بيـــن الغريزة والسمو القدسي ، نجد أنفسنا في حاجة إلي الأخلاق كي نتغلب بها علـــي الصعاب التي تواجهنا • فتضطـــر الـــذات إلـــي الازدواج وتتازعـــها عـــامل الحيـــاة (ويرتبط بالناحية البيولوجية للإنسان) ، وعـــامل الإرادة (ويرتبـــط بالناحية الروحية في الإنسان) وتحاول الإرادة أن يكـــون لـــها الغالبيـــة بحيـــث تستطيع أن توجه النشاط ، وتفرض عليه في كل لحظة قاعدة أخلاقيـــة أو مثـــالا أعلى يحدده ويرسم له الطريق •

وعلي ذلك فإن الضمير الأخلاقي هو " الرقيب " فكل حركة ، وكل نشاط، وكل سلوك لكي يكون أخلاقيا لابد أن يجيزه هذا الرقيب فإذا ما صدر الفعل دون أن يمر بهذه الرقابة انتفت عنه صفة الأخلاق .[١]

ويقرر آخرون أن " علم الأخلاق " هو دراسة ما هو " أخلاقي " وما هو " غير أخلاقي " ويفرق بينهما علي أساس أن القضايا الأخلاقية " تحتوى على عبارات مثل " صائب " " وخير " ويجب " وينبغي " في حين لا تحتوى القضايا الغير أخلاقية " على مثل هذه العبارات .

إلا أن هذا التميز غير دقيق ، ذلك أن مثل هذه الكلمات يمكن أن تستخدم في قضايا لا أخلاقية . وذلك كأن نسأل : ما هي الإجابة على تلك المسائل الحسابية ؟ أو ينبغي أن يكون هناك طريق فرعي في هذا المكان . والواقع أن مصطلح " أخلاقي " وغير أخلاقي " مصطلحات غامضة .

وخلاصة القول فإن كلمة أخلاق " مشتقة من خلق بمعنى أوجد ، أبدع علي العلاقة بين العمل والمعرفة . إنها العمل والسلوك الذي يصدر عن الفرد وفق قاعدة أو مقياس وعن عمد واختيار وإرادة ، ويسعى نحو غايات فوق فردية.

فالأخلاق تبين لنا كيف يتصرف الإنسان في الحالات والمواقف التي تفرض علينا دون أن نخالف في ذلك ضميرنا أو العرف السائد في المجتمع .

---

١ - أنظر د . السيد محمد بدوى . المدخل إلى علم الاجتماع ص ص ١٩٠ - ١٩٢ .

ويتضمن ذلك فكرة الطاعة أو الخضوع للنظام . وعلي ذلك فمجال الأخلاق هـــو مجال " الواجب " والواجب هو العمل الذي يفرض علينا •

أما عنصر العمد والاختيار والإرادة فهي عنصر هام في الأخلاق • فمـــا لم تكن هناك إرادة لا يصدر حكم أخلاقي ، فلو هبت عاصفة ودمرت بـــلادا ، أو هاجمت الأمواج فأغرقت سفنا ، فهذه الأحداث لا تعد شرا ، وبالتالي لا علاقة لـــها بالحكم الأخلاقى لانعدام الإرادة •

ولو فاض نهر النيل في اعتدال ، وروى الأرض وأفادها ، وهـــب نســيم عليل فأزهر النبات وأنعش النفوس ، لا نحكم علي هذه الأحـــداث بأنـــها خـــير ، وذلك لانعدام الإرادة • وكذلك إذا جنح حصان فأوقع صاحبـــه ، أو ســـار ســـيرا حسنا وأوصـــل صاحبه إلي غايته ، فإننا لا نحكم علي هذه الأعمال بأنها شر فـــي الأولـــي ، وخير في الثانية لأنها أعمـــال بـــلا إرادة ، وبالتـــالي لا علاقـــة لـــها بالأخلاق •

ولكي يكون سلوكنا أخلاقيا ، ينبغي أن لا نسعى إلي نفعنـــا الشـــخصي ، وإنما النفع الشخصي لفرد آخر غيرنا • فالفعل الأخلاقي حقا هو ذلك الذي يـــهدف إلي غايات غير ذاتية ، وينتج عن ذلك أن هذه الغايات لا بد أن تختـــص بشـــيء آخر غير الأفراد ، فهي فوق الفردية •

أما علم الاجتماع الأخلاقي فهو فرع حديث من فـــروع علـــم الاجتمـــاع العام، يقرر أن الضمير الأخلاقي عند الإنسان يستمد كنهه بما يسود المجتمع مـــن معتقدات وعادات وتقاليد ، وأمثال شعبية وحكم متواترة ، وأعمال أدبيـــة ، وآداب وقوانين تمنع الفرد من أن يطأ المناطق المحرمة . وعلى ذلك فـــهي نظـــام مـــن

النواهي فلو فقدت قواعد الأخلاق الزوجية لأفلت زمام الشهوات والانفعالات . ولو تزعزعت أركان الأخلاق الاقتصادية لما عرفت المطامع الاقتصادية حداً تقف عنده . فالإنسان يحكم على الأفعال والتصرفات التي يأتيها لا من خلال ضميره فحسب ، بل خلال ضمير المجتمع .

وينظر عالم الاجتماع الأخلاقي إلى الظواهر الخلقية نظرة علمية موضوعية ، فيتجرد من نزعته الذاتية وعواطفه ، ويتبع المنهج العلمي بما يشتمله من وصف وملاحظة ومقارنة ، وتخضع للقياس ، وبحيث يقودنا ذلك إلى التفسير وصوغ القوانين .

والظواهر الخلقية في نظر علم الاجتماع الأخلاقي ليست من اختراع الفلاسفة ، وإن كانت تحمل في تراثها ما جاءت به قرائح الفلاسفة ، وما يدخل في إطار ما يسمي بالأخلاق المعيارية .

ويطلق بعض علماء الاجتماع الأخلاقي إسم "علم العادات الجمعية "أو " علم العادات الخلقية "على علمهم ، فالعادات الخلقية تمثل اعتقادات الناس بصدد الصواب والخطأ ، والخير والشر ، والعقوبة والإثابة ٠٠٠٠ وهلم جرا . بالإضافة إلى الأفعال التي تكمل أو تتبع هذه الاعتقادات ، فهذه ظواهر إنسانية يجب دراستها . فإذا ما حاولنا دراسة العناصر الخلقية الكامنة في سلوك الناس فإننا نلتفت إلى عاداتهم وحكمهم وأمثالهم الدارجة .

الصفات المميزة للأخلاق

من صفات الأخلاق أنها علم نظري يقوم بالكشف عن "المثـــل الأعلـــى" . ومع ذلك فمن الصعب أن نطلق على الأخلاق لفــظ العلــم . فــالعلم بــالضرورة وضعي يدرس الظواهر والوقائع الموضوعية بالتجربة والاختبار ويستخرج منـــها القوانين . أما الأخلاق فهي نظر عقلي يدخل في مجال الميتافيزيقا أكثر منـــه فـــي مجال العلم . وتختلف الأخلاق عن العلم في أنها تتضمن الاختيار ، والطاقة التـــي تدفع إلى النزوع ، والعمل الذي يدخل في حيز التنفيذ ، وتعلق الذات بغاية معينة.

ولا تبغي الأخلاق أن تصف نظاما معينا من الوقائع ، وإنما تهدف إلـــى أن تضع مجموعة من المفاهيم التي لا تحتاج إلى أن تعبر عن حقيقة موجودة حتـــى تكون لها قيمتها ، أو التي تظل محتفظة بكل قيمتها ، حتى إذا لــم تكــن مطابقــة للواقع على الإطلاق ، بل حتى إذا لم تكن قابلة لأن تطبق عمليا في الحياة .

وعلى ذلك فعلم الأخلاق لا يكتشف القوانين ، وإنما تنحصر مهمتـــه فـــي تحديد القواعد على نحو ما يفعل المنطق . ومن الخطأ أن نخلط بين البحـــث فـــي القوانين وهو غاية العلم ، والبحث عن القواعد وهو غـــرض علـــم الأخـــلاق. إن الأخلاق تشريع ، وليس من وظيفتها العلم والمعرفة ، وإنما التكليـــف والإلـــزام . وهكذا فالأخلاق علم وفن . إنها علم معياري يرتبط بالفلسفة أكـــثر ممـــا يرتبـــط بالعلم بمعناه الدقيق .

وتقوم القواعد الأخلاقية على مجموعة من المبادئ الأولية تســلم بـــها دون أن تعني بالبحث عن مدي صحتها . وتترتب هذه القواعد على هذه المبادئ التـــي

تفترض أن الطبيعة البشرية واحدة في كل زمان ومكان . وهذا الفرض يسمح لنـــا بأن ننظر نظراً عقلياً مجرداً في مفهوم الإنسان بصفة عامة ، وأن نستخلص مـــن ذلك قواعد عامة كلية . ويعني ذلك أن الفلاسفة لا يقيمـــون وزنـــاً للظـــروف أو المناسبات أو الأزمنة أو الأمكنة أو السلالات أو الأفراد

وتزعم الأخلاق المعيارية أنها قد استخلصت هذه المبـــادئ عـــن طريـــق الاستقراء من التجربة ، أو عن طريق ملكة حدسية ، تشـــبه مبـــادئ الهندســـة . وتزعم مرة ثالثة أنها قد استنبطتها من بعض المفاهيم الميتافيزيقيا كمفهوم الخـــير أو مفهوم " الكمال " .

وتطمح الأخلاق أن تكون" كليـــة ومطلقـــة "، فصدروهـــا عـــن الضمـــير الإنساني أو العقل البشري يجعلها واحدة لجميع البشر قاطبة في كل زمان ومكـــان. [illegible] إلى أن الأخلاق تتجه نحو تحديد الخير في ذاته ، الخيرات النســـبية التـــي لا [illegible] ذلك إلا بالقياس إلى خبرات أخري .

كذلك تعبر الأخلاق عن الضمير الأخلاقي ، وهو ذلك التأثير الذي تمارســـه الذات الإرادية على مجموع المحتوي العقلي بحيث تستطيع أن تتحكم في نشـــاطه ، فتتيح أو تمنع ، وتسير وتقيد كل حركة تصدر عن الاندفاع التلقائي . وعلى ذلـــك فإن الضمير الأخلاقي يمثل الرقيب على كل حركة ، وكل نشاط ، وكل سلوك .

وتمثل الأخلاق مكاناً وسطا ، أو مرتبة متوسطة بين الأفعال التلقائية التـــي تعبر عن الغريزة ، وعن المشاعر التي لا تحديد لها ، وبين المرتبة التـــي يصـــل

فيها المرء إلى درجة من التجربة والحنكة تجعله يتصرف في أدق الأمور تصرفا حكيما ، أو موقف الصفوة من البشر كالأنبياء والقديسين .

هل الحاسة الخلقية غريزية أم مكتسبة ؟

يقول بعض الفلاسفة أن الحاسة الخلقية غريزية ، فنقرأ في القاموس المحيط أن الخلق هو الطبع والسجية ، فالخلق صفة راسخة في النفس ، ومن صفات النفس الإنسانية النشاط العقلي ، والنشاط العاطفي ، والنشاط الإرادي . والأخلاق تتعلق بجانب القصد والإرادة ، وإذا انتفي جانب الإرادة من سلوكنا فإننا لا نستطيع أن نصف هذا السلوك بأنه (خير) أو (شر) .

غير أن بعض الفلاسفة لا يهتمون بعنصر الإرادة هذا حين يقررون أن المزاج الخلقي للإنسان هو صورة روحه . ومعني هذا أن المزاج ثابت يولد مع الإنسان ولا يمكن تبديله . ويتبنى (شوبنهاور) ، الفيلسوف الألماني هذا الرأي إذ يقول : يولد الناس أخيارا أو أشرارا ، كما يولد الحمل وديعا ، والنمر مفترسا .

ويقول الفيلسوف الفرنسي (ليفي بريل) أن ميولنا الحسنة أو القبيحة التي نجيء بها إلى هذا العالم عند ولادتنا هي طبيعتنا ،" فكيف نكون مسئولين عن طبيعة هي ليست من عملنا ، أو على الأقل ليست من عملنا الشعوري الاختياري؟" .

والطبيعة الإنسانية في رأي هؤلاء الفلاسفة هي من عمل الفطرة ، وهم يصورون لنا الإرادة الإنسانية سجينة في نطاق حديدي من الغرائز والطبائع .

ويقول فريق آخر : أن الإنسان خير بطبعه والشر عارض لـــه ، ويتمثـل ذلك في جاك روسو . وهناك من يذهب إلى القول أن الإنســـان شـــرير بطبعـة والخير طارئ عليه . وتعتنق الكنيسة الكاثوليكية هذا الرأي إذ تـــرى أن الإنســان منذ خطيئة أدم قد انقلب شريرا .

وهناك رأي آخر يقول أن الإنسان خلق مستعدا للخير والشر جميعا ، وقـد أثبت القرآن الكريم هذا الاستعداد المزدوج عند الإنسان "وهديناه النجدين ،"ونفـس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها " .[1]

ارتباط الظواهر الأخلاقية بالعلوم والظواهر الإنسانية

ترتبط الظواهر الأخلاقية بغيرهـــا مـــن العلـــوم والظواهـــر الإنســـانية ، فالأخلاق لا يمكن أن تنفصل ، ولا تستقل عن أمها الفلسفة ، ولا يمكن كذلـك أن تتجرد من الأسس الفلسفية ، فالفلسفة هي فقه المعني ، والأخلاق هـــي تجســـيده ، فكل ما تتناوله الأخلاق من مسائل الخير والشر والتفـــاؤل والتشـــاؤم والضمـــير والواجب الخلقي ، كل هذه المسائل عندما ندرسها مجردة من الشعوب وعاداتـــها الجزئية إنما تصبح مسائل فلسفية بالدرجة الأولي .

هذا ومن المألوف أن نقول أن العلم والمعرفة تصـــقل الإنســان وتـهذب النفس وتحث الإنسان على أن يسلك وفقا للفضائل . ذلك أن استغراق الفـــرد فـــي البحث والتحصيل والعلم والمعرفة يبعده عن اقتراف الرذائـــل والموبقـــات ، فـــلا يغدر و لا ينافق ولا يصيبه الغرور ، ويتحلى بحلاوة اللسان ، وينأى عن الكلمـــة البذيئة ، والفعل السئ ، والكذب .

---

1 -أنظر د . السيد محمد بدوي : الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص ص ١٠ - ١٢

ولكن تبين أن طهارة الأخلاق وحسنها ليست دائما مـــن مســتلزمات ذوي العقول المثقفة بالمعارف ، فقد يجتمع التفوق العلمي والعقلي بـــالأخلاق الســافلة ، ويذل صاحب العلم لأولي المقامات الرفيعة ، ثم يتغطرس ويصيبه الغرور علــــى ذوي المنازل الدنيا .

ويرتبط النظام الاقتصادي بالأخلاق ، فأخلاقيــات الشــعوب التــي تــأخذ بالنظام الرأسمالي تختلف عن أخلاقيات الشعوب التي تعتنق النظـــام الشــيوعي . كما تختلف أخلاق الشعوب تبعا لتطور النظم الاقتصادية .

وقد تكون الثروة سببا في فساد الأخلاق وانحطاطها فإن الـــثروة والفســـاد والترف والانحطاط أمور سهل اجتماعها وما الثروة في أيدي من ضعفت إرادتـــهم وجمعت بهم أهواؤهم واستعصت عليهم نفوسهم إلا إغراء بالرذائل وشرك للمفاسـد وربما ولدت من الضرر لهم ولغيرهم شيئا كثيرا .

أما الفقر فلا تعارض بينه وبين الأخلاق في أرقي أشكالها وقـــد لا يملــك المرء سوى كده ودقته واستقامته ثم لا يمنعه عوز غيرهـــا أن يكـــون ذا منزلـــة سامية بين الناس وما أحسن النصيحة التي سمعها برنز من أبيه إذ قال له يا بنــــي لا قيمة للرجل إذا لم يكن ذا قلب يعرف الشهامة والأمانة فكن رجـــلا حقـــا فـــي عملك وإن كنت معدما لا تملك درهما .

ويرتبط علم الجغرافيا بالأخلاق ، فقد أورد علماء الجغرافيا البشرية الكثـير عن صفات الشعوب التي درسوها ، فوصفوا شعبا بالكبريـــاء والحميـــة ، وآخـــر

بالضغينة والقسوة ، وثالث بالكرم والتهذيب ، ورابع بالحماقة ، وخامس بالحقد والحسد ، وسادس بالسرقة ، وسابع بالكذب .

وتظهر علاقة وثيقة بين الأخلاق وعلم المورفولوجيا (علم الأشكال) وهما اللذان يتصلان بحركات السكان وهجراتهم ، مما يعطى صورة وشكلاً لهؤلاء السكان يتبدى فيها الطابع الأخلاقي .

وترتبط الأخلاق بالتاريخ ، ففي كتابات المؤرخين نجد وصفاً لأخلاق الشعوب . ومنهم من يميل إلى تأصيل روح الشر الكامنة في نفوس بعض الشعوب بالرجوع إلى قصة قابيل وهابيل ، أو تبيان روح الحسد كما ورد في قصة سيدنا يعقوب مع أولاده ، أو روح الغدر كما فعل أبناء يعقوب مع أخيهم يوسف . ومن المؤرخين من اعتمد على قيام جيش منتصر بقتل أسرى الحرب ، ليصف من يمارسون هذه الظاهرة بأنهم متوحشون وسفاكون للدماء .

ويزخر الأدب بالصبغ الأخلاقية التي ترد على لسان الشعراء والأدباء كما يرد على لسان كتاب القصة ، والمسرحية ، والمذكرات الخاصة ، وسير الحياة يرد بعض الحكم الأخلاقية . وتعكس المؤلفات الأدبية كذلك الأخلاق إما في صورة تأييد أو نقد وسخرية . كذلك فإن اسم الشخصيات في المؤلفات الأدبية يعكس الأخلاق السائدة سواء عن طريق الأقوال والتصريحات التي ترد على لسان بعض الشخصيات ، أو عن طريق أحداث المسرحية أو القصة التي تصور بعض الشخصيات على أنها شخصيات فاضلة ، وتصور البعض الآخر على أنها شخصيات مرذولة .

وهناك ارتباط بين الأخلاق و **اللغة** ، حيث يمكن تحليل الأعمال الأدبية لاستخلاص الكلمات والمفردات التي تحمل معني أخلاقيا ، وتفيد في تصوير الحالة الخلقية للمجتمع . كما أنه من الممكن تحديد أخلاقيات الأفراد من خلال الكلمات التي ينطقون بها والألفاظ التي يستخدمونها ، وطريقة نطقهم لها .

وتبدو وجود علاقة بين الأخلاق **والتربية** ، تظهر فيما نسميه التربية الأخلاقية ، فالتربية تتضمن الوسائل التي تنمي ملكات الفرد وقواه . ومن هذه الوسائل .

١ ــ تنمية الجسم وحفظ الصحة وهي ـ ما يطلق عليها التربية البدنية .

٢ ــ تثقيف العقل وإعداده للتفكير السليم والحكم على الأشياء حكما صائبا ، وهي مانسميها بالتربية العقلية .

٣ ــ إعداد العقل بالتراث العقلي ، وهذه هي التربية العلمية .

٤ ــ إعداد الفرد للاندماج في الحياة وكسب العيش ، وهذه هي التربية المهنية.

٥ ــ إيقاظ شعوره بجمال الكون وتمكينه من التعبير عن هذا الشعور ، وهي ما تسمي بالتربية الفنية أو الجمالية .

٦ ــ تعريفه بالحقوق والواجبات في المجتمع الذي يعيش فيه وما فيه من نظم وقوانين وهي ما يطلق عليها التربية الاجتماعية والوطنية .

٧ ــ إفهامه لمعني الكرامة والأخوة وهذه هي التربية الإنسانية .

٨ ــ توجيهه في أعماله على سنن الاستقامة وتعويده على العادات الصالحة وهذه هي التربية الأخلاقية .

٩ ــ الارتفاع بالإنسان إلى المعاني الروحية وهذه هي التربية الدينية .

ولنعلم أن سلطان الأخلاق يسري على جميع أنواع النشاط الإنسـاني ولا يخرج عن حكم الأخلاق أي نشاط بدني أو عقلي أو فني أو أدبـي أو روحـي . فالفنان الذي يجافي بفنه التقاليد الخاصة باللياقة والحياء والعفاف يتصـدى لمقـت الضمير الخلقي وكراهيته ، وإن لم يكن بذلك قد خرج عن قواعد الفن ، والعـالم الذي يكرس جهوده العلمية للتخريب والحنق الضار بأخوته في الإنسانية يكون قـد خرج على القانون الأخلاقي وإن كانت بحوثه ذات قيمة كبيرة من الناحية العلمية.

أما التربية الأخلاقية بالذات فهي التدريب على السـلوك الطيـب وتكويـن العادات الصالحة ولذلك فإن صلتها بعلم الأخلاق وثيقة ، فمـن المتفـق عليـه أن المربي إذا عرف قواعد الأخلاق ونظرياته واستطاع أن يدرك الحكمـة الكامنـة وراء كل مذهب من المذاهب الأخلاقية المتعددة فإنه يستطيع أن يختار منـها مـا يلائم الحالة الاجتماعية والطبيعة التي تتحقق في تلاميذه .

وتبدو هناك صلة بين الأخلاق وعلم النفس ، فالظاهرة الأخلاقية يمكـن أن تكون مادة لعلم النفس ، إذ يهتم علم النفـس بملاحـظة الأفـراد فـي سـلوكهم وتصرفاتهم .

ونحن نعتقد أن الحقائق لا وجود لها إلا بوجود العقل الواعـي . ويصـدق ذلك على الأخلاق . فكل ما نصفه بأنه " أخلاقي " لا يمكن أن نصفه علـى هـذه الصورة إلا بالقياس على عقل .

وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال مؤداه هل تعتمد الأخلاق على القـدرة العقليـة وحدها . نقول :لا ـــ اللهم إلا إذا وافقهما صفة الحق ، فالحق هو الـذي يضمـن

لصاحبه التبجيل والتعظيم والاحترام ، وتحمل غيره على الثقة بـــه . وهــذا هــو أساس كل فضيلة .

يظهر ذلك في معاملة المرء وسلوكه ، ويتجلى في الاستقامة والإخـــلاص في العمل ، ويتبدى في كل قول وفعل . وذلك هو الباعث على ثقـــة المـــرء فـــي نفسه ، وثقة الناس به .

ومع ذلك فلا يعول في هذه الحياة على الذكـــاء بقـــدر مـــا يعـــول علـــى الأخلاق،ولا يركن إلى العقل بقدر ما يركن إلى القلب ، ولا يوثق بالعبقرية بقـــدر ما يوثق بضبط النفس والصبر والتهذب ، ويصحبها جميعاً أصالة الرأي .

أما الصراع الأخلاقي ، والذي هو صراع بين الإرادة والاندفاع فقد ينشـــأ عنه الأمراض الجسمية أو الخلقية ، مما يتطلب معه الاستعانة بالطب النفســـي ، فالطبيب النفسي والعصبي الذي يتولى علاج الأمراض العصبية لابد لـــه مـــن أن يواجه المشكلات الخلقية ويتولاها بالعلاج .

ونحن لا نستطيع أن نعالج الثورات علاجاً ناجحـــاً إلا إذا أحطنـــا علمـــاً بنواحي شذوذ الشخص الثوري وبسيكولوجيته . كما أننا لا نستطيع أن نحل الشـــر في العالم إلا إذا ألممنا بالإندفاعات التي يصدر عنها الشر في الفرد .

أما عن أوجه الاختلاف بين الطب النفسي والأخـــلاق ، فيبـــدو فـــي أن الطبيب النفسي يقتصر دراسته على الفرد وسعادته ، وفي حين أن علم الأخـــلاق يبحث عن مقياس موضوعي للخير والشر يمكن تطبيقه على الناس جميعاً في كـــل

زمان . وقد يجد الفرد في بعض القواعد الأخلاقية أو في نظام من نظم الحياة ما يحقق له الصحة والسعادة ، وإن لم يتفق ذلك مع المثل الأعلى الخلقي باعتباره أمرا اجتماعيا في جوهره . [١]

والأخلاق مادة لعلم الاجتماع ، ذلك أن علم الاجتماع يهتم بسلوك الجماعات ، فإذا ما أردنا أن نحدد موضوع علم الظواهر الأخلاقية ، فينبغي أن نقوم أولا بتحديد العنصر الاجتماعي في كل عقل أخلاقي .

والأخلاق بطبيعتها أقرب العلوم إلى الدين ، فهناك علاقة وثيقة بين السلوك الأخلاقي والعقائد الدينية ، إذ تشترك الأخلاق مع الدين في تعلقها بالإنسان وتنظيم حياته وسلوكه . كذلك فإن الأوامر الإلهية ليست متعلقة بشعائر تعبديه فحسب ، ولكنها تنطوي كذلك علي فضائل أخلاقية . كما أن المحظورات الدينية تحتوى في غالبية الأمر علي دلالات أخلاقية .

ولقد اقترن الإيمان في القرآن الكريم بالعمل الصالح ؛ كشرط للثواب ؛ مما يعد دلالة علي وجود وشائج بين الإيمان والأخلاق .

وتظهر الأخلاق في السلوك فالأخلاق في أرقي أشكالها هي إرادة الفرد التي تعمل تحت ضابط من الدين والأدب والعقل وبالأخلاق يختار المرء سبله في الحياة بترو وتبصر ويثابر عليها جاعلا الواجب فوق الشهرة ، وإرضاء الضمير فوق المدح ، والثناء ، ولا يزال محافظا علي قدره واستقلاله مع رعاية أقدار غيره حق رعايتها ولا يزال يملك من العزم ما يحمله على أن يكون مخلصا في

١-انظر ج . أ . هارفيلد . علم النفس والأخلاق ص ص ٤ – ٨

صفاته الأدبية وأن لم يكن مقبولا عند جمهور الناس في أول أمره فما عليه إلا الصبر والتؤدة حتى يحمل الزمن والخبرة الناس علي اعترافهم بقيمته .

وتعد روح المرء الدعامة القوية في تكوين أخلاقه فإن تلك الروح وحدها هي المعول عليها في الحياة وهي التي تبعث في المرء النشاط وتمده بالاستقلال والقوة .

ولاشك أن المرء لن يصل إلي ذروة كماله إلا إذا ما اتحدت عناصر الأخلاق بالإرادة القوية وحملت الأغراض الراقية المرء علي طرق باب الواجب والمثابرة علي القيام به مهما ضحي في سبيله من الفوائد الدنيوية .

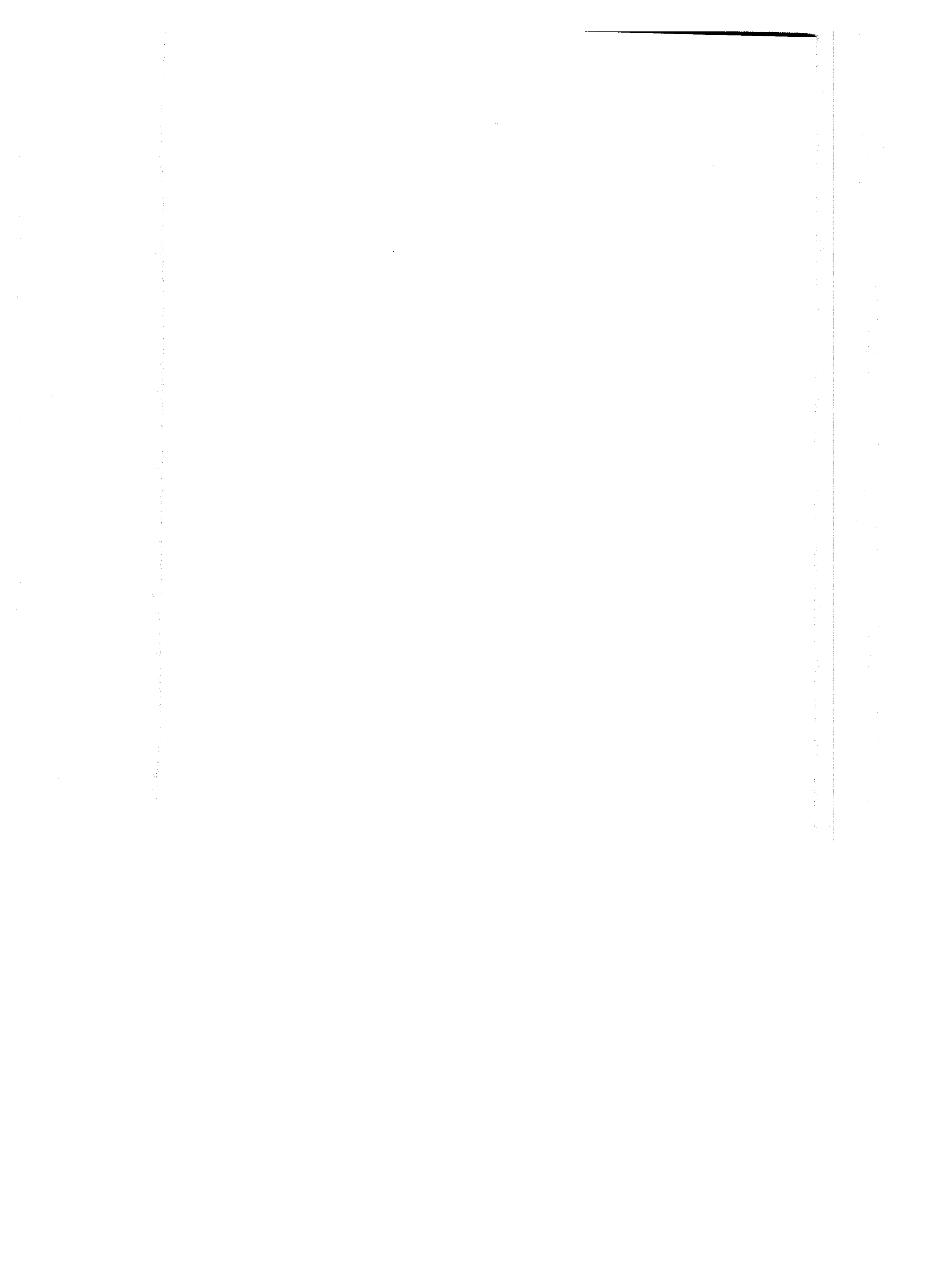
أما القوة بلا استقامة ولا روح للخير فقد لا يكون وراءها سوى الشر ومن ذلك قول نُفالِس في كتاب له في الأخلاق أنه لا خطر علي الكمال الأدبي إلا القوة المتناهية في الشدة والحياة المتناهية في القوة فإنهما أرقي ما تصل إليه الأمم الوحشية ولا ينقصهما سوى شئ من الغرور والطمع والأنانية ثم يكونان مثالا للشيطان .

وقوة الإرادة روح لكل من كان عظيم الأخلاق فان وجدت قوة الإرادة وجدت معها الحياة وإن فقدت فهناك الضعف واليأس والقنوط . جاء في بعض الحكم أن الرجل القوى يمهد لنفسه السبل ولا يقتصر القوى الإرادة الشريف النفس علي تمهيد السبيل لنفسه بل يقود غيره معه ولكل فعل من أفعاله قيمة فهو

يهدى إلي النشاط والاستقلال والثقة بالنفس ويدعو إلي تبجيل صاحبه والإعجـــاب به [1] .

---

١ - أنظر صمويل سمايلز : الأخلاق ص ص ١٤ - ١٩ .



الفصل الثاني

الفضـــــائـــــل

الفضائل

تعني كلمة فضيلة الفيض والفضل ، وهو الزيـادة ٠ وعكسـها كلمـة " رذيلة " وتعنى الجدب والرذاذ ٠ والفضيلة هي الخلق الطيب ، والخلق هو " عـادة الإرادة ، فإذا اعتادت الإرادة شيئا طيبا سميت هذه الصفـة فضيلـة ٠ والإنسـان الفاضل هو ذو الخلق الطيب الذي اعتاد أن يختار أن يعمل وفق مـا تـأمر بـه الأخلاق ، وهو الذي يعمل الخير دون أن يدفعه إليه أي ميل طبيعي ، وهو الـذي يرفض الشر حتى ولو كان مدفوعا إليه بدوافع غريزية ٠

وفي ضوء هذا يتضح الفرق بين الفضيلة والواجـب ، فالفضيلـة صفـة نفسية ، والواجب عمـل خارجي ، وعلي هذا يقال : فـلان أدي الواجـب ، ولا يقال : أدي الفضيلة ، بل حاز الفضيلة ٠

ومع ذلك قد تطلق الفضيلة علي العمل نفسه ، فيقال : "فضائل الأعمـال " وليس يعني بها كل عمل أخلاقي بـل كل الأعمال العظيمة التي يسـتحق فاعلـها الثناء الجزيل ، فلا نسمي دفع ثمن ما اشترى فضيلة ، إنما يسمى الإتيان بـالعمل الكبير مع تحمل المشاق في سبيله فضيلة ٠ وطبقا لذلك تكون الفضيلة أخص مـن الواجب [1] ٠

ويقبل الناس عادة الفضائل والقواعد الأخلاقية دون نقد أو تمحيص ، فقـد تعلموا الإيمان بها ٠ ومن أمثلة تلك القواعد لا تكذب " و " لا تخـدع أقرانـك " و

---

١ – أنظر د . أحمد عبد الحليم عطية : الأخلاق في الفكر العربي المعاصر – دراسة تحليلية للإتجاهات الخلقية الحالية في الوطن العربي ص ١٢٨ .

"لا تقتل " و" لا تسرق " ، بالإضافة إلي قواعد يجدونها ملائمة لهم مثـــل " أهتـــم بشئونك " .. وغيرها . وكثير ا ما تتناقض قاعدة أخلاقية مع أخـــرى ، وبذلـــك يمكن للفرد أن يلجا إلي القاعدة التي تناسبه في الظروف المختلفة .

ومع ذلك ، فعند التطبيق نجد أن " الكذب " و " السرقة " و " القتل " غـــير محددة معانيها تماما ، ومن ثم تكون غير واضحة . ولنضرب لذلك مثالا عـــن " لا تسرق " .

" لا تسرق " هل أنت تسرق إذا أخذت شيئا تعتقد أنه يخصك ولكنه يظهر فيما بعد أنه لا يخصك ؟ وهل أنت تسرق إذا دخلت شقة شخص علمت أنه ســبق أن سرقك وأخذت منه ما يساوى ما سرقه منك ؟ هل أنـــت تســرق إذا أعطـــاك شخص ورقة مالية بخمسة دولارات معتقدا أنها دولارا واحدا ، ولا تقل أي شـــئ بصددها ؟ هل تسرق من منافسيك إذا انغمست في عمليات احتكارية وتبيـــع لـــهم بثمن أقل وبخسارة حتى يعلن المنافسون إفلاسهم ، وبعد ذلك ترفع الأسعار ؟ قـــد يقول فرد ما أن " العمل عمل " ولكن قد يرد عليه آخر أن كثيرا من الأفعال التـــي تمت تحت شعار هذا المثل المقدس هي أمثله فظة للسرقة والغش . تـــري كيـــف يمكن أن يرسم المرء خطا فاصلا بين ما هو سرقة وما هو غير ذلك .

وتختلف قيمة الفضائل من أمة إلي أخرى ، إختلافـــا كبـــيرا. فـــترتيب الفضائل يتوقف على مركزها الاجتماعي وظروفها المحيطة بها ، وما يفشو فيـــها من أمراض أخلاقية ، وما يعتريها من أشكال حكومات ونحو ذلـــك ، وترتيـــب الفضائل في الأمة المحكومة غيره في الأمة الحاكمة ، وفي الأمة الآخـــذه بحـــظ وافر من المدنية غيره في الأمة البدوية ، وفي الأمة البحرية غـــيره فـــي الأمـــة

ساكنة الصحراء وهكذا ، فالأمة المهددة بالحروب تري الشجاعة أهم فضيلة ، والأمة الآمنة المطمئنة تري العدل خير فضيلة ، والأمة التي تحيا علي الصناعة ترى الأمانة والاستقامة عماد الفضائل ، وهكذا .

ويختلف أيضا مفهوم الفضيلة الواحدة باختلاف العصور ، فما كان يفهم من الشجاعة عند اليونان غير ما يفهم منه في العصور الحديثة ، قد كادوا لا يفهمون منها إلا الصبر علي تحمل الآلام الجسمية ، واليوم نفهم منها ما هو أعم من ذلك ، حتى إنها تشمل تعبير الإنسان عن رأيه من غير خشية لمن حوله ، والعدل تطور مفهومه تطورات عدة حسب تطور الأمم في حالتها العقلية والاجتماعية ، والإحسان إلي الفرد بالتصدق عليه قد كان يعد من أهم الفضائل في القرون الوسطى . واعترض عليها في العصور الحديثة لأنه لا يميز بين المستحق للإحسان وغير المستحق تمييزا يوثق به ، وبأنه يشل المحسن إليهم ، ويقعد بهم عن العمل ويميت ما في نفوسهم من شرف وإباء ، واستحسن المحدثون إنشاء جمعيات للإحسان تحسن إليها الأفراد وهي التي تتولى الإنفاق علي المعوزين بعد أن تدرس حالتهم وتعرف فقرهم ، ولا تكتفي هذه الجمعيات بإعطاء المال إلي المحتاجين ، بل توجد عملا لمن لا عمل له ، وتنقذ أولاد البائسين من آبائهم حتى لا ينشأوا نشأتهم ، ولا يصابوا بمرضهم ، فتنشئ المدارس الصناعية، وتعلمهم علما عمليا يكتسبون منه أقواتهم ، وقد أهتم كثير من الأمم الممدنة بإنشاء هذه الجمعيات ، وحرمت إحسان الفرد للفرد ، وحضت علي إحسان الفرد للجمعيات .

كذلك تختلف قيمة الفضائل باختلاف حالة الأفراد وأعمالـــهم ، ففضيلـة الكرم بالنسبة للفقير ليست من الأهمية بالدرجة التـي لـها بالنسـبة للغنـي ، ولا الفضائل التي في الدرجة الأولي للمسن هي بعينها فضيلة الشباب .

وسوف نورد هنا بعضا من هذه الفضائل :

واجبات الإنسان وحقوقه

يسمى ما على الإنسان " واجبا " . فمن واجبات الفرد أن يرعـى حقـوق الناس ، وأن يؤدي ما عليه من واجبات . وما للإنسان يسمى" حقا " ، فكثيرا مـا تقول أن لي حقا في أن أتعلم ، وحقا في أن أكون حرا .

والمعيشة الاجتماعية هي أساس الحقوق والواجبات ، فالاتصـال الوثيـق بين الفرد ومجتمعه هو أساس فكرة الحق والواجب ، ولو عاش الفرد وحده ، لمـا كان هناك معني للحق والواجب ، بل كان له أن يفعل ما يشاء وبلا قيد ولا شـرط، ولما كان هو عضو في المجتمع ، فلابد من الحفاظ على هذا المجتمـع حتـى لا يصيبه الفناء والتدهور . ومن هنا نشأت فكرة الواجب والحق .

والحق والواجب متلازمان ، فمتي كان لشخص حق كان هناك واجـب ، بل الواقع أن كل حق يستلزم واجب ، فإذا كان لي مائة جنيه على آخر ، يقـال : إن لي حقا أن آخذ منه مائة جنيه وواجب عليه أن يدفع هذا المبلغ . إذن فواجـب على الناس أن يحترموا حق ذي الحق .وواجب على ذي الحق نفسه أن يسـتعمل حقه في خيره وخير الناس . وإذا كان لي بيت فهو حـق لـي ، وذلـك يسـتلزم واجبين : واجبا على الناس ألا يتعدوا على هذا البيت بضرر ، وأن يحترموا حقـي في ملكيته ، وواجبا على وهو أن أستعمل البيت في خيري وخير النـاس ، فـإذا

أشعلت فيه نارا أريد إحراقه أو آذيت الناس بإيجاره لعمل مقلق للراحة لـم أكـن أديت ما وجب عليّ .

وتقوم الحياة الاجتماعية على فرضية مؤداها أن النـاس متسـاوون فـي الحقوق والواجبات ، فالناس سواسية ، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بـالتقوى، فالاختلاف في السلوك والعقيدة أو النوع (الجنس) لا يعدا أساسا للتفرقـة بيـن الناس . هذه أحكام إلهية تطبق على جميع البشر .

وقد تقلصت هذه المساواة تحـت تـأثير صدمـة الصناعـة ، والثـورة الصناعية والتكنولوجية ، فبدت تعديلات في مبدأ المساواة بين الناس في الحقـوق والواجبات . ومن ثم فهم ليسوا متساوين مساواة مطلقة .(١)

ولقد نصت معظم دساتير دول العالم على المساواة بين الرجال والنسـاء في الواجبات والحقوق ، وهـي مسـاواة فـي المجـالات السياسـية والقانونيـة والاقتصادية . ونذكر على وجه الخصوص دستور الولايات المتحـدة الأمريكيـة التي ظهر عام ١٧٨٧ . ويقول الأمريكيون أن الرجال ليسوا ملائكة ، ولو كـانوا ملائكة لما احتاج المجتمع إلى وجود حكومـة ، ودسـتور ، فوجـود الحكومـة ضروري لإقرار هذه المساواة .(٢)

---

1 - Wlilson Carey Mc Milliams, The Equality as Moral Foundation for community in Robert H. Horwitz , The Moral foundation of Americam Republic . p . p . 183 – 184 .
2 - Robert A. Goldwin , of Men and Angels , A search for Morality in constitution in Robert H . Horwitz , op . cit P . 1

إن كل إنسان يؤدي واجبه نحو الدفاع عن البلاد إذا هوجمت ،
أو أريد التعدي على حريتها . وكذلك يفعل السياسيون إذ يوقفون حياتهم على خدمة الوطن .ويؤدي الفلاح واجبه في زراعة الأرض وعنايته بالبقر والغنم، وكذلك النجار في صناعته ، والتاجر ببيعه وشرائه ، والجندي بمحاربته ، والكناس في الشوارع يكنس الأقذار ، والأم تربي أبنائها وتعني بالبيت وشؤونه والخادم بخدمتها ، والأطباء بمحاربتهم الأمراض ومعالجتهم المرضى . ورجال الحريق بإطفائهم النار ، ورجال العلم الذين ينشرون العلم ويحاربون الجهل ، ورجال السياسة الذين ينصرون الحق ويخذلون الباطل بأقوالهم وأعمالهم ، والشعراء والموسيقيون وجميع رجال الفن الذين يمدون الحياة بالسعادة ، ويشعرون الناس بالجمال ، كل هؤلاء يؤدون واجبهم نحو وطنهم .

ويؤدي كل إنسان واجبه لأنه واجب يؤديه إطاعة لضميره ، لا طمعا في ربح يناله ، ولا رغبه في شهرة يحصلها ، بل يحس بأن هناك قوة تأمره بفعل الواجب ، فإذا بدأ في عمل شجعته على الاستمرار فيه ، فإذا أنتهي منه شعر بارتياح وسرور ، وبعظمة نفسه ويتمثل ذلك مثلا في الطالب الذي يشاهد آخر يشرف على الغرق فينقذه . وأثناء إنقاذه يشعر بتشجيع نفسه على المضي في عمله ، فإذا أتم ذلك شعر بفرحة وسعادة .

إذن الإنسان في هذه الحياة لا يعيش لنفسه فحسب ، بل يعيش له وللناس، وأداء الواجب يؤدي إلي هذه السعادة .

وكثيرا ما يكلفنا القيام بالواجب مشقات يجب أن نتحملها وتتطلب منا تضحية يلزم أن نؤديها . فالقاضي العادل قد يضطر إلى الحكم على صديقه أو

قريبه فيؤلمه ذلك . وقد يحمله حب العدل على إغضاب أفراد أو هيئـات مختلفـة فيعرض بذلك نفسه لأنواع من الآلام ، والجندي يقدم حياته عنـد الخطـر فـداء لأمته ، ورئيس السفينة إذا عطلت يجب أن يبقى في السفينة حتى ينتقل جميع مـن فيها إلى قوارب النجاة . وإعلان الإنسان رأيه وتمسكه بمبدئـه قـد يبعـده عـن منصب ويحرمه من فائدة .

وسير عظماء الرجال مملوءة بالشواهد على التضحية ، فقد ينشر الرجـل مبدأ يخالف فيه الرأي العام ، أو لإنقاذ أمته من ضرر يلحقها ، أو لتخليص عقـائد دينية مما دخل عليها من التغيير ، أو لتحقيق مسألة علميـة كـثر فيـها البحـث والجدال ،أو لاستكشاف نافع يزيد في سعادة الناس . هذه التضحية هي سر عظمـة هؤلاء ، فهم يبذلون جهدا ، ويتحملون عناء.أما من يستسلم للراحة ويخلد للنعيـم ، فلا يكون عظيما .[1]

ويقوم القانون الوضعي بتنفيذ الواجب فإذا تعدى أحد على بيتي فغصبـه مني كان القانون الوضعي هو الذي يحميني ، فأسـتطيع أن أرفـع الأمـر إلـى المحاكم ، والقاضي يلزمه بمراعاة حقي وينفذ ما يجب عليه.وهناك واجب ثـاني يتمثل في استعمال حقي على أحسن وجه وهو القانون الأخلاقي ، ويـترك تنفيـذه إلى ذي الحق نفسه ، وإلى الرأي العام ، فلو أني هدمت بيتي وهـو عـامر ، أو أتلفت هندسته ، أو تركته مهجورا لا أسْكِنه ولا أسكُنه لم يتدخل القانون الوضعـي في ذلك ، وإنما القانون الأخلاقي ، فيأمرني أن أعمل الواجب على من اسـتعمال بيتي لخيري وخير الناس ، ويلومني إذا لم أتبع ذلك ، وكذلـك يلومنـي الـرأي العام،فإذا قال القانون الوضعي : " لكل مالك أن يتصرف في ملكه كيـف يشـاء "

---

[1] - أحمد أمين . كتاب الأخلاق ص ص ٩٥ -٩٨

فإن الأخلاق تقول " ليس للمالك أن يتصرف في ملكه إلا بمـــا فيــه الخــير لــه وللناس" .

أما الحقوق فتتمثل في حقوق الفرد كحقه السياسي وحقه في الملكية ، ثـــم حقوق الجماعة كحقها في الاستقلال والكرامة والأمن والســـعادة . وهــذه وتلــك حقوق مقدسة يظلها القانون والأعراف ، ولا يجوز التفريــط فيــها ، بــل يعتــبر التفريط فيها خيانة تستحق العقاب .

وتؤسس حقوق الإنسان على أساس من العقيدة أو الجنـــس أو العــرق ، وتستند إلى أساس عقلاني . وهي ذات بعد نظري وعملــي / تطبيقــي وجميعــها مستمدة من المبادئ الأخلاقية .[1]

ونلقي هنا الضوء على بعض هذه الحقوق :

حق الحياة :

لكل إنسان الحق أن يحيا ، ومن العدل كذلك أن يضحــي الفــرد بحياتــه لحفظ حياة المجتمع إذا تطلب الأمر ذلك . كذلك إذا ما هاجمت دولة دولة أخــرى ، فمن حق الدولة التي هوجمت أن تجند أبناءها للدفاع عنها .

وقد جهلت بعض الأمم في عهود بداوتها حق الحياة هذه ، فبعض القبــائل العربية في جاهليتها كانت تئد البنات خوفا من العار ، وتئد الأولاد خشية الفقــر ، وكثير من الدول كانت تقتل أسري الحرب وتعرض بعض الأمم المتمدينة الحيـــاة للخطر ، فتسمح بالمبارزة ، أو بصراع الثيران .

---

1 - See Carlos Santiago Nino . The Ethics of Human Ri hts . P.P . 9 - 17

ومن أجل الحفاظ على حق الحياة تقوم الحكومة بالمحافظة على الأمـــن ، والقبض على المجرمين ، ونحو ذلك ، كما أنه لا يمكن أن يوفر حـــق الحيـــاة إلا بتوفير وسائل المعيشة حتى لا تقع الأمة في مجاعة ، أو يكثر فيها العاطلون الذيـن لا يجدون ما يقيم أودهم ، ويحفظ حياتهم .

ويستلزم حق الحياة واجبين : واجبا على ذي الحق وهو أن يحفظ حياتـه، فالمنتحر مضيع لحقه في الحياة ، مخل بالواجب عليه ، كذلك واجب على النـــاس أن يحترموا هذا الحق للفرد فلا يتعدوا عليه - وإذا كان هذا الحق أقدس الحقـــوق كان من تعدّي عليه بقتل أو نحوه مستوجبا أشد العقوبات ، وربما كان من الحـــق أن نسلبه أيضا حقه في الحياة .

حق الحرية :

تعني الحرية حرية في جميع مظـــاهر الحيـــاة الاجتماعيـــة والسياســـية والاقتصادية ، وكذلك حرية الإنسان في أن يقول ما يريد ، ويفعل ما يشـــاء مـــن غير أن يكون لأي شيء آخر سلطان على ارادته أو عمله . ولكـــن قيـــام مديـــر بصرف مبالغ مالية دون اتباع قواعد الصرف بدعوى أن جهة العمل قطاع خـاص يعرضه للمساءلة القانونية . ومن العيب والعار وسوء الخلق أن يقوم مدير بـــنزع قميصه ، وخلع بنطلونه ، وما تحت البنطلون بعد إغلاق باب الحجرة التي يوجـــد بها عدد من الرجال - ويقول : أنا حر - وذلك من أجل أن يأخذ حقنة . وتخـــاف المرأة من الحرية كما تخاف القطة المنزلية من مغادرة منزل كانت تتنـــاول فيـــه الطعام مجانا .

إن الحرية المطلقة هي الفوضى ، فالحرية مقيدة وتحكمها شروط ، جاء تعريفها في إعلان حقوق الإنسان الصادر في فرنسا عام ١٧٨٩ م بأنها " القدرة على عمل كل شيء ولا يضر بالغير " .

وحق الحرية يتطلب أن يعامل كل فرد معاملة إنسان ، إنسان لا معامل متاع ومن أجل هذا حرم الرق والاستبداد والتسخير ونحوها .

وللحرية أنواع :

١ ــ الحرية التي هي عكس الاسترقاق ، فيقال حرو رقيق .

٢ ــ حرية الأمم ، وتعني الاستقلال وعدم الخضوع لحكم الأجنبي .

٣ ــ الحرية المدنية ، وهي تأمين الشخص من التعدي عليه وعلى ملكه ظلما ، وتشمل هذه الحرية : حرية الرأي ، وحرية الخطابة ، وحرية التصرف في الملك .

٤ ــ الحرية السياسية وهي أن يكون للإنسان الحق في أن يأخذ نصيبا في حكومة بلاده بالتصويب في الانتخابات أو ما شاكل ذلك .

حق الملكية :

لما كانت وسائل الحياة لا تكفي لسد حاجات كل الناس ، فقد تزاحموا على طلبها ، ودعاهم حب الذات إلى الاستئثار ، فكانت الملكية . وهناك شكلان للملكية . الملكية الخاصة كملك شخص كتابا أو منزلا أو ثيابا . وملكية عامة كملكية السكك الحديدية والمتاحف ودار الكتب . ومن الملاحظ أن الملكية العامة هي التي تمتلكها الحكومة ، إذ تنوب الحكومة عن الأمة ، فهي تدير هذه الأملاك وتتصرف فيها .

والملكية حق مقدس وتستلزم من الناس أن يحترموا ملكية المالك فلا يتعدوا عليه بسرقة أو غصب . كما يجب على المالك أن يستعمل ما يملك أحسن استعمال . كما ينبغي على صاحب الملكية أن يبيح استعمال ملكيته لمن هو في حاجة إليها . فإذا كنا نملك دراجة أو سيارة وكان لنا جار مريضا احتاج إلى الدراجة أو السيارة لإحضار الطبيب ، وجب مساعدة الجار باستعمالها لحفظ الحياة . ولو كان لديك بيتا احتيج إليه وقت الحرب ليكون مستشفى يعالج فيه الجرحى وجب على المالك أن يبيح لهم ذلك .

حق التعليم :

لكل إنسان الحق في أن يتعلم حسب كفاءته واستعداده ، فله الحق أن يتعلم القراءة والكتابة ، وأن يُرقي ملكاته في الفنون والعلوم حسب ما يسمح له استعداده ، وأن يتهذب بأنواع التهذيب المختلفة .

إن التعليم وسيلة من وسائل الحرية ، ومن وسائل الحياة الراقية ، فالجهل إذا فشا في أمة أثر فيها أثرا سيئا في جميع مرافقها سواء في ذلك الشئون الاقتصادية والصحية والاجتماعية والسياسية ، فالمتعلم يستطيع أن يتكسب ويدير أمور معيشته وينظم حياته أكثر مما يستطيع الجاهل ، والأسرة المتعلمة أقدر على مراعاة الأمور الصحية من الأسرة الجاهلة ، وإذا كثر الجهل في أمة كثر فيها الفقر والتشرد والإجرام ، والمتعلمون أصوب حكما إذا انتَخَبوا من ينوب عنهم ، وأصدق نظرا وأقوم رأيا إذا انتُخِبوا ، والمرأة المتعلمة أقدر على تربية أبنائها وتنظيم بيتها وإدارة شؤونها وهكذا ، والعلم باب للأخلاق القويمة والدين الصحيح، به يشعر الإنسان بنفسه ، وبه يدرك الحياة العالية ، وبه ترقى شخصيته.

الصدق

هو أن يخبر الإنسان بما يعتقد أنه الحق في قوله ، وفعله ، وذلك كالإشارة باليد وهز الرأس ونحوهما ، وقد يكون بالسكوت من غير قول ولا فعل، فمن أرتكب جريمة ورأي غيره يؤنّب على ارتكابها ثم سكت فقد كذب ، ومن الكذب المبالغة في القول مبالغة تجعل السامع يفهم منه أكثر من الحقيقة ، كما إذا بالغ إنسان في وصف شيء بالعظم أو الكبر أو الصغر حتى أفهم السامع أكثر من حقيقته .

وهناك طريقة واحدة للصدق وهو " أن يقول الإنسان الحق كل الحق ، لا شيء غير الحق ".

والصدق ضروري ، ذلك أن أغلب المعلومات التي وصلت إلينا بالسماع أو القراءة مبناها الصدق ، وعليها يعتمد الإنسان في معاملاته وتصرفاته ، فلو كانت كذبا لكانت الأعمال المبنية عليها خطأ وضلالا ، ولما وصل إلينا من العلم إلا شيء قليل ، وهو ما يمكننا أن نجربه بأنفسنا ، وهو لا يغني في الحياة .

والصدق فضيلة لأنه يزيد سعادة المجتمع وبه يرقي ويبقى ، ذلك لأننا محتاجون في الحياة إلى طبيب يرشدنا إلى ما فيه حفظ الصحة ، وإلي مهندسين نعتمد على أقوالهم في بناء الجسور ونحوها ، وإلي كيمائي يبين لنا خواص الأجسام ، وإلى مدرس يثقف عقول المتعلمين بما ينفعهم ، ولولا الصدق ما كان لنا أن نثق بأقوال هؤلاء ولا ننتفع بآرائهم .

والصدق على خلاف الكذب ، فالكذب هو أن يحذف المتكلم بعض الحقيقة ، ويذكر بعضها .

الشجاعة

الشجاعة هي القدرة المميزة التي تجعل الإنسان قادراً على التغلب على الخوف والرعب الذي يدهم الإنسان العادي ويقعده عن الحركة والعمل . ومع ذلك فالشجاعة ليست مرادفة لعدم الخوف ، فمن يلاحظ النتائج ويخاف من وقوعها ثم يواجهها بثبات رجل شجاع . وما دام الإنسان يعمل في موقفه خير ما فهو شجاع.

وقد تقتضي الشجاعة أن يجبن الإنسان لحظة ثم يستجمع شجاعته ؛ فالقائد الذي يقف في خط النار فيرتعش ويخاف أن ينزل به الموت ، ثم يضبط نفسه ، ويؤدي عمله كما ينبغي قائد شجاع ، بل شجاع أيضاً إذا رأى أن خير ما يعمله هو تجنب الخطر ، وأن الواجب يوجب عليه أن ينسحب بجنوده حيث لا خطر ، فإن هو أضاع رُشده ، أو ترك موقفاً يجب أن يقفه ، أو فَرّ بجنوده من خطر . كان عليه أن يواجهه ، فهو جبان .

ولوْ أن جماعة من الأقوياء كانوا جالسين معاً في جلسة سمر ، ثم دخل عليهم صعلوك يحمل مسدساً ، وقام بتوجيه السباب لكل منهم ، هنا يتحايل عليه هؤلاء إلى أن يتمكنوا منه ليعاقبوه . وهذه هي الكياسة والحيلة .

والشجاعة لا تكون مع العدو فقط ، ولا تعتمد على الإقدام والإحجام ، ولا على الخوف وعدمه ، ولكنها قد تكون شجاعة في مواجهة النفس وضبطها . فمن يضبط نفسه ، ويعمل ما يجب في مواجهة خطر داهم فهو شجاع .

وقد يكون الخوف فضيلة وعدمه رذيلة ، فالخوف عند إمضاء عقد سياسيّ مثلاً وإنهاء أمر خطير فضيلة ، إذ هو يحمله على الروية حتى يختمر

رأيه ، وفضيلة أن يخاف الإنسان من ثلم عرضه وشرفه ، وليس بشجاع من يدخل الحانة ويشرب جهاراً ، أو يقامر على ملأ من الناس غير هيّاب ولا وجل ، فذلك ضعف في الشعور لا شجاعة .

إنما الجبن المذموم والخوف المرذول أن يبالغ الإنسان في الخوف ؛ أو يهوّل في الشيء المخوف ، فمثلا كل إنسان عرضة لكلب يعضه ، أو سلك ترام يصعقه ، أو سيارة أو قطار يدهمه ، أو نار تشب في بيته ،أو مكروه ينال منه ، كل هذه الأشياء تخيف ، ولكن الجبان يبالغ في الخوف منها ، ويخشى جد الخشية من وقوعها ، ثم يحمله خوفه على اجتناب العمل ، فلا يركب مركبا ــ مثلا ــ خوف أن يغرق به ، ولا يرحل عن وطنه إذا لم يجد عملا خوف أن يدركه الموت ، ولكن الشجاع لا يفكر كثيرا في احتمال الشر ، ثم إذا وقع يتحمله في ثبات ، وإن مرض لا يضاعف مرضه بوهمه ، وإذا نزل به مكروه قابلة بجأش رابط فخفف من شدته .

وعموما فالشجاع ليس بالمتهور الطائش الذي لا يخاف مما ينبغي أن يخاف منه ، ولا بالجبان الذي يخاف مما لا يُخاف منه .

وكثير من الأعمال اليومية يحتاج إلى شجاعة لا تقل عن شجاعة الجنود، فرجال المطافئ ، والأطباء ، وعمال المناجم ، وصيادو الأسماك في البحار عند اشتداد الرياح وتلاطم الأمواج ، والمرضات اللائى يتعرضن للأخطار بتمريض المصابين بالأمراض المعدية ، وربانو السفن التجارية ، كل هؤلاء وأمثالهم شجعان يتحملون الأخطار ، ويقابلون الشدائد في صبر وثبات .

العدل

تصبو الأخلاق إلى الكشف عن العدل ، والذي هو الإنصاف ، وأن لا يضر المرء بأخيه ، فيعطيه ما له ، ويأخذ ما عليه ، وأن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، فكل ما عومل به ، وشق عليه ، وثقل على قلبه ، ينبغي أن لا يعامل به غيره .

وترتبط العدالة بالثروة المادية ، والمساواة في الفرص ، والحرية الفردية، والانسجام الاجتماعي ، ويتضمن العدل فكرة الصرامة والضبط التي تتصف به الرياضيات . فالعدل والعدالة والتعادل والمساواة كلها أفكار رياضية . وكثيرا ما يقال:إن الإنسان العادل هو الإنسان المستقيم والاستقامة من المفاهيم الرياضية كذلك .

وقد عرف أر سطو العدالة بأنها شكل من أشكال المساواة . ويعرف فلاسفة السياسة المحافظون العدالة بأنها المساواة أمام القانون ، والمساواة في الحقوق الرسمية ، والمساواة في حقوق الملكية .

وعرف الماركسيون العدالة بأنها المساواة في توزيع السلع والخدمات بين جميع المواطنين ، وتطبيق المبدأ القائل : من كل حسب قدرته إلى حسب حاجته ، أما أصحاب المذهب الحر فقد ربطوا بن عناصر التعريفين السابقين ، إذ تقوم العدالة عندهم على أساس المثل الأعلى للرعاية الاجتماعية ، والتي تقوم بحماية الحريات الشخصية ، وإمداد المواطنين بالسلع والخدمات . [١]

[1]- Raziel Abelson & Marie – Louise Friquegnon . Ethics for Modern life , P.P.4 33 - 434

ويوصف الفرد بالعدل ، وقد يوصف به المجتمع أو الحكومة وبالنسبة للفرد يقال : إنسان عادل . والعدل في الأفراد هو إعطاء كل ذي حق حقه . وذلك أن كل إنسان له الحق في التمتع بنصيب من الخير الذي ينال المجتمع ، فأخذ الإنسان نصيبه لا أكثر ، وإعطاؤه الناس حقوقهم لا أقل ، هو العدل ، فالغصب والسرقة ظلم لأن في كليهما أخذ ما للغير ومنعه عن حقه ، والبائع الذي يكيل للمشتري أو يزن أقل مما اتفقا عليه ظالم لأنه لم يعطه حقه وهكذا . والعدل من المظاهر الجوهرية في المجتمع ، إذ لا يستطيع أحد أن يزعم أن مجتمعه طيبا ما لم يتوفر فيه عنصر العدل .

ومن أعدي أعداء العدل " التحيز " وهو ميل الإنسان لأحد المتساويين ميلا يجعله يعطيه أكثر من حقه ، وينقص الآخر حقه ، فالقاضي مثلا يجب أن لا يفرق في سيره مع الخصوم بين غني وفقير ، وأسود وأبيض ، وذي جاه وعديم الجاه ، لأن عمله إنما هو أن يطبق القانون على الأفراد ، والناس أمام القانون سواء .

وكثيرا ما يتحيز الإنسان لآخر ويخطئ في أحكامه لتحيزه ، وهو مع ذلك غير شاعر بأنه متحيز ، ومعتقد الأنصاف فيما يري ، ومن أجل هذا يجب على الإنسان شدة مراقبته نفسه ، وحذره من الوقوع في الخطأ .

ويحمل على التحيز أمور :

١ ـ الحب ، فمن يحب إنسانا يتحيز له ، كالوالدين قلما يريان الخطأ في عمل أولادهما .

٢ ـ المنفعة الشخصية ، فإحساس المرء بأن أحد الجانبين يكسبه منفعة لا تكون في الجانب الآخر يجعله يتحيز لأحد الجانبين .

٣ ــ المظهر الخارجي ، فحسن منظر شخص ، وجمال هندامه ، وفصاحة قوله ، وآدابه في الحديث كثيرا ما تبعث على التحيز وتبعد عن العدل .

ومن ثم يجب ألا يتغلب على الإنسان في حكمه واجتهاده هوى أو ميل يصده عن العدل .

الطاعة

لو فعل كل طفل في الأسرة ما يهوى ، ولم يخضع لأي أمر ، ولم يعن الوالدان بأطفالهما لصارت معيشة الأسرة مستحيلة ، ومن ثم يجب على الوالدين أن يربوا أولادهم ، وعلى الأولاد أن يتبعوا أوامر والديهم ، وإلا لما بقيت الأسرة.

ولو سار كل تلميذ في المدرسة كما يشتهي ، حضر أو لم يحضر ، وإذا حضر يفعل ما يشاء ، ولم يفعل ما يشاء ، وكذلك فعل المدرسون في المدرسة ، لما بقيت المدرسة . ولو اعتبر كل جندي في الجيش نفسه مساويا للقائد ، وعمل كما يرى ، لم يعد هذا جيشا صالحا ، وصار نصيبه الفشل .

إن العصيان في كل مجتمع يجر إلي الفوضى ، إذ ينعدم القانون ، وتحل شهوة الفرد وهواه محل القانون ، ويتخذ المرء إرادته وهواه قانونا بدلا من القاعدة الأخلاقية .

وقد وضعت بعض القواعد الأخلاقية في القوانين الوضعية ، وذلك كتحريم السرقة والقتل . ووضع البعض الآخر كترك الحسد والكذب للأفراد وضمائرهم وهي ما يطلق عليها القواعد الأخلاقية .

وقد يشعر الإنسان أن في إطاعة الأمر ذله ، وأن في العصيان حرية . ويعد هذا خطأ في التفكير ، ففي الطاعة الحرية ، وفي العصيان ضياعها ، وقد يتخيل الطالب أن المعلم إنما يأمره حبا في الأمر ، ورغبة في إظهار السلطة ، وليس كذلك ، فإن الآمر العاقل إنما يأمر مراعيا المصلحة العامة ، وهو مثلك خاضع لها ، وكل الفرق أنه بحكم مركزه وتجاربه تعود أن ينظر إلى الخير بأحسن مما تنظر ، فالحق أن الآمر والمأمور كلاهما يطيع .

وهناك مواقف يجب ألا نطيع فيها ، كما إذا أُمِرْنا من صديق بسرقة شيء ، أو غش في امتحان ، أو تزوير في ورق ، أو انتخاب من لا يصلح ، هنالك يكون العصيان فضيلة لأن في إطاعة هذه الأوامر وأمثالها خروجا على الأخلاق ومخالفة للضمير ، ونحن ملزمون باتباع قوانين الأخلاق وسماع صوت الضمير .

والحق أن الطاعة هي الفضيلة البارزة التي تميز بين المتمدينين والمتوحشين ، في الأمة الممدِّنة يطيع الطفل أوامر أبويه علما منه بأن لا سعادة للأسرة إلا بالطاعة ، والأطفال يتعلمون الطاعة في البيت فيطيعون في المدرسة ، وإذا خرج من المدرسة إلى الحياة العامة فهو مطيع لقوانين البلاد ، مطيع لقوانين الجمعيات التي ينتسب إليها – وعلى العكس من ذلك فإن الأمة التي لم تأخذ بحظ

وافر من المدنية ، يشتد فيها العصيان ، عصيان في البيت ، وفي المدرسة ، وفي محال اللهو ، وفي سماع المحاضرات ، وفي الشارع .

الاعتماد على النفس

الاعتماد على النفس من أهم الفضائل . ويستطيع الوالدان أن ينميا هذه الفضيلة في الأبناء ، وذلك بالإصغاء إلى ما يبديه الطفل من الأسئلة والأجوبة عليها ، وإظهارهما احترام آرائه ومناقشتها ، وإبداء ما فيها من ضعف ، في لطف ، مهما كانت الأسئلة والآراء سخيفة . وإذا سلك الوالدان هذا المسلك شعر الطفل بأنه يتمتع بشخصية محترمة ، فنما عنده حب السؤال ، وحب تكوين الآراء ، ولم يصبح ببغاء يردد فقط ما يسمع ويري .

ومما يساعد على نمو هذه الفضيلة لدي الابن أن يخصص الوالدان لابنهم " مالية خاصة " يتصرفون فيها بحريتهم ، ويقوم الوالدان بتصحيح ما وقع فيه الأبناء من أخطاء . وعلى عكس ذلك فإن الأبناء والذين حُرموا المال الخاص بهم في صغرهم ثم حصلوا على المال دفعة واحدة ، فإنهم يسيئوا التصرف فيه ، لأنهم لم يدربوا التدريب الكافي منذ نشأتهم .

وإذا ذهب الطفل إلى المدرسة ، وعوده المدرسون على الاستقلال بنفسه في حل المسائل الحسابية ، والكشف في المعاجم عن الكلمات الصعبة ، نمت عنده هذه الفضيلة .

والاعتماد على النفس وسيلة من وسائل الاقتصاد ، فالأم التي تعتمد في كثير من شؤون بيتها على نفسها تقتصد كثيرا ، والرجل الذي عود نفسه أن يصلح الأشياء الصغيرة في بيته يوفر كثيرا .

كذلك هو الوسيلة الوحيدة للتعلم ، فالطفل لا يستطيع أن يتعلم المشي إلا إذا اعتمد على نفسه وسقط ثم قام ، ولا يستطيع أحد أن يتعلم السباحة بقراءة كتاب فيها، إنما يتعلم ذلك باعتماده على نفسه وفشله مرة ونجاحه أخري ، وإنما نتعلم القراءة والكتابة بمحاولاتنا ، فإذا اقتصرنا على أن نسمع غيرنا يقرأ ، ونظرنا غيرنا ، يكتب ، فمحال أن نقرأ أو نكتب ، وهكذا الشأن في كل علم .

ضبط النفس

من الواجب علينا أن لا نستسلم للغضب ، وأن نسلم زمام انفعالاتنا لعقلنا.كما يجب على الإنسان أن يضبط فكره ، فلا يتركه يهيم في كل واد ، ويتجول في كل مجال ، فالفكر إذا هام حول الشرور يوشك أن يقع فيها .

وأكثر ما يدفع الإنسان إلى الغضب أنانيته ، وحبه الشديد لنفسه ، وكثرة التفكير في حقوقه ، فيتخيل فيما لا يغضب احتقارا له ، ونيلا منه.وكثيرا ما يستسلم الإنسان لغضبه فلا يعي ما يقول ، ولا يعقل ما يفعل ، ويظن أنه بذلك يحافظ على كرامته ، مع أنه في الحقيقة يظهر بمظهر الطائش .

الانتفاع بالزمن

يعيش الإنسان في زمن محدود ، يتعاقب الليل والنهار بانتظام ، ولا يطغي أحدهما على الآخر ، وحياة الإنسان تنقسم إلى مراحل ، لكل مرحلة

خصائص خاصة بها ، صبا ، فشباب ، فكهولة فشيخوخة ، وحياة محدودة ، فإذا جاء الأجل مات الإنسان لا محالة .

وإذا ما فات الزمن ، فإنه لا يعود ، فالصبا إذا فات فات أبدا ،، والشباب إذا مرَّ مرَّ أبدا ، والزمن المفقود لا يعود أبدا .

وإذا كان الزمن محدودا ، فإنه لا يُمَدُّ ولا يُقْصَر ، وكانت قيمته في حسن استخدامه . ومن ثم يجب أن نحافظ عليه ، ونستخدمه أحسن استغلال .

ويصنع الزمن بأمرين : أولهما ألا يكون للإنسان غرض يسعى إليه ، فالإنسان بلا غرض كالسفينة في البحر بلا مقصد وما أضيع زمن قارئ يقرأ ما يقع في يده من الكتب من غير أن يكون له غرض معين ، كبحث أو دراسة في موضوع ما ، وما أتعب من يمشي في الطريق بلا هدف أو غاية .

إن الذين لا يحددون أهدافهم ويتركون الزمن يمر عليهم قلما يصدر عنهم خير أو يأتون بعمل عظيم .

أما الأمر الثاني الذي يضيع الزمن ، فهو أن يكون للإنسان غرض محدود ولكنه لا يخلص لإنجاز هذا الغرض ، فلا يجِدّ للوصول إلى هذا الغرض، ولا يعمل ما يتفق معه .

ولا يتطلب الانتفاع بـزمن أن نعمل باستمرار ، بل ينبغي أن نترك وقتا للراحة نستخدمه أحسن استخدام بحيث يجعلنا أقدر على العمل . فإذا استغللنا وقت

الفراغ في كسل وخمول عاد علينا ذلك بلا منفعة ولا فائدة . أما إذا صرفناه في لعب مفيد ، أو في رياضة بدنية أفادنا ذلك في عملنا ، وأعطانا القوة التي نستخدمها في الوصول إلى الغرض .

ولا يفوتنا أن استعمال وقت الفراغ استعمالا حسنا من أهم شئون الحياة التي يجب الاهتمام بها ، ذلك أن كثيرا ما يذهب وقتنا سدي لأننا لا نعرف كيف نستعمل أوقات الفراغ ، فالأطفال يقضون أوقات فراغهم في الحارات والشوارع بلا فائدة ، ويقضي الشباب والشيوخ أوقاتهم على المقاهي التي ينقصها الهواء النقي ، والمنظر الحسن ، والرياضة البدنية والفكرية ، مما يؤثر في أوقات العمل.

ولعل قلة الأندية الرياضية والاجتماعية هي السبب في ذلك ، ومن ثم ينبغي توفر أندية اللعب والحدائق في كل حي من الأحياء .

كذلك فإن جهل الأمة وعدم تربيتها أبناءها تربية صحيحة يفسد ذوقها ، ولعل هذا هو السبب في وجود القهوة ، وحدها عامرة بالزائرين .

أضف إلى ذلك فقدان السعادة الزوجية بين الزوج وزوجته أو بين الآباء والأبناء مما جعل أفراد الأسرة يهربون من البيوت إلى المقاهي ليمضوا أوقاتهم . ويرجع فقدان السعادة الأسرية في غالبية الأمر إلى انتشار الفقر وجهل الزوجين ، وعدم معرفتهما فن الحياة الأسرية .

طرق غرس الفضائل

للفضائل وسائل مختلفة تعين على غرسها . فتكوين العادات الصالحة في الطفل منذ صغره ، سواء في أسرته ، أو في المدرسة بإلزامهم الطفل أن يكرر عملاً صالحاً فيصبح عادة له ، وذلك كتعويده النظافة وقول الصدق والطاعة ونحو ذلك، وإذا تأصلت هذه العادات أصبح لها من السلطان عليه ما يقرب من الطبيعة التي خلق عليها الإنسان .

والإنسان يكاد يكون مجموع عادات تمشي على الأرض ، فطريقته في معيشته تعتمد على عاداته ، بل هو سعيد أو شقيّ بالعادة ، أمين أو خائن بالعادة ، شجاع أو جبان بالعادة ، فإذا عُني بنا في صغرنا ربحنا كثيراً في حياتنا .

والقدوة الصالحة تعين على غرس الفضائل لأنها تثير الشعور ، وتحيي الضمير ، وتكون القدوة بأمور :

١ ـ الصداقة ، فالإنسان يقترب من أخلاق من يصادق ، وكما قال بعضهم : " خبّرني من تصادق أخبرك من أنت " وتقليد الصديق لصديقه ظاهر في نواح مختلفة - في القول - فنحن نبدأ نتكلم بالألفاظ التي يتكلم بها الصديق ، فإن كانت سيئة بذيئة شعرنا في أول الأمر بكراهيتها والاشمئزاز منها ، ثم نتعوّد سماعها بتكرارها على آذاننا ، ولا نشعر بما كنا نشعر به من اشمئزاز ، ثم لا نلبث أن ننطق بها كما ينطق صديقنا ، كذلك - في الفعل - فنحن نعمل أعمال أصدقائنا بحكم ما فينا من ميل إلى التقليد ، ننسخها كما ننسخ صفحة أمامنا ، بل نقلد أصدقاءنا في كثير من أعمالهم من غير شعورنا ، فالكلمات التي

نسمعها منهم والأعمال التي تصدر عنهم تحفظ في أذهاننا ، ثم تبعثنـــا علـــى العمل على وفقها ولو لم نتعمد ذلك .

والصديق يؤثر في صديقة خيرا كان أو شرا ، فالصديق السـيئ ينضـح أفكارا سيئة وأقوالا سيئة وذوقا سيئا يشربها صديقه ، والصديق الصـالح ينضـح أفكارا صالحة وأقوالا نقية وذوقا طاهرا يتأثر بها صديقه .

كل هذا يوجب علينا أن نعني كل العناية بتخير الأصدقاء ، وأن نفر مــن الصديق السيئ كما نفر من المحموم ونعده خطرا يتهدد أخلاقنـا ، نـهرب مـن مجلسه ، ونهرب من سماع قوله ، ونهرب من رؤية عملـه ، لأن الشـر الـذي يصدر منه يعلق بنا .

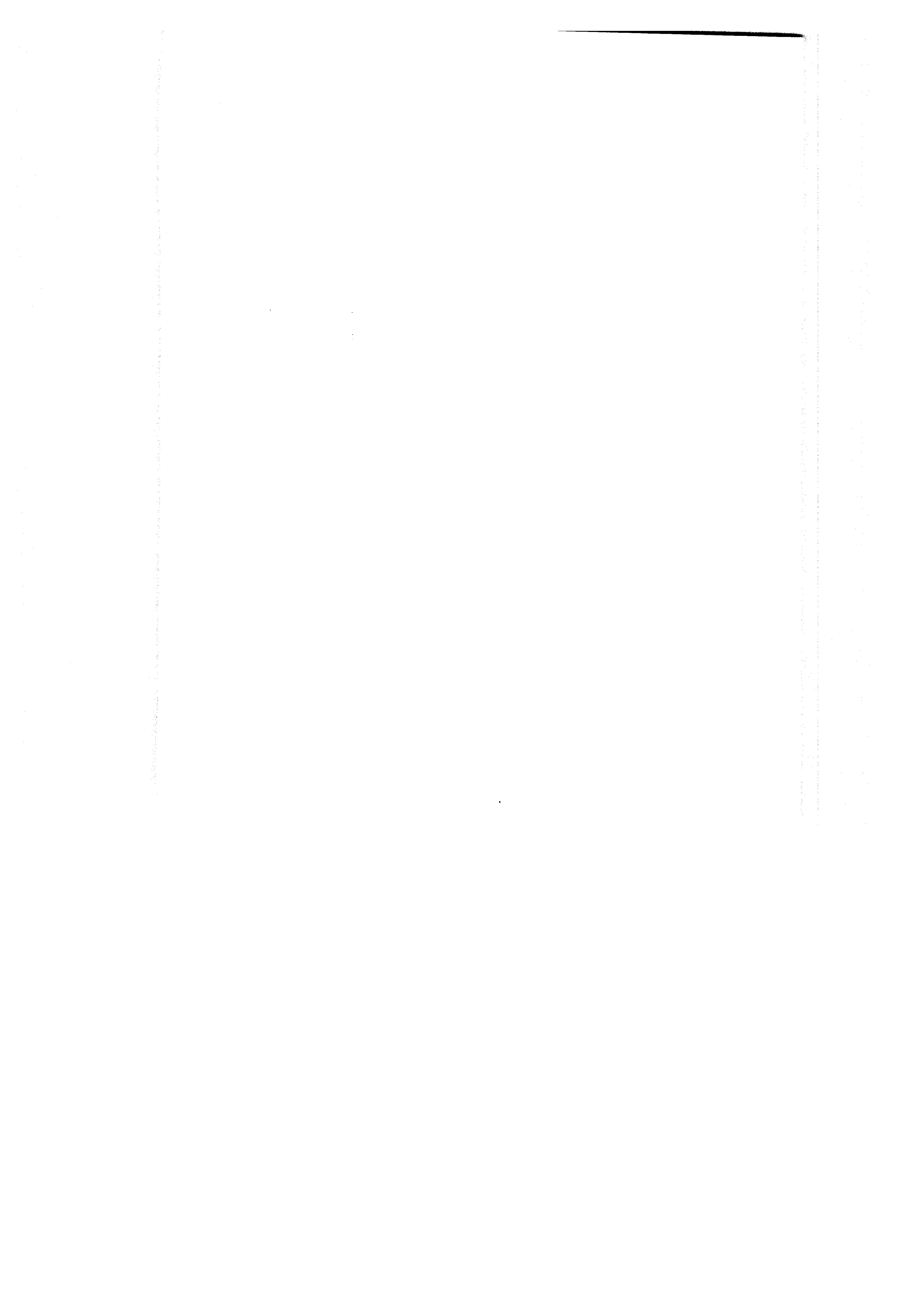
٢ ـ ومن القدوة الصالحة التي تعين على الفضيلـة سـير الأبطـال ورجـال الأخلاق ، فالقراءة في كتب تراجم العظماء وقصصهم وأعمالهم فـي حياتـهم يودع في أذهاننا ذخيرة نقلدها في أعمالنا ، وكما أن كثيرين ممن أجرموا كـان سبب إجرامهم قراءة رواية لص أو مشهد سينما أو نحو ذلك ، كذلك كثير مـن العظماء إنما كانوا عظماء برؤيتهم القدوة الصالحة وتتبعهم لسيرة بطـل رأوه أقرب إلى نفوسهم ، فعرفوا تفاصيل حياته ، فكانت منبعا لعظمتهم .

٣ ـ ومما يعين على غرس الفضائل دراسة علم الأخلاق ، فهذه الدراسة تعيـن المرء على نقد الأعمال التي تعرض عليه ، وتقويمها تقويما مستقلا و يسـتمد المرء آراءه من نظريات العلم وقواعده ومقاييسه ، وهـذا يعينـه علـى أن يكون فاضلا .[1]

[1] ـ أنظر أحمد أمين : كتاب الأخلاق ص ص ١١٢ ـ ١٤٠

الفصل الثالث

تـــاريـــخ الأخـــلاق



تقديم :-

قلنا أنه لزاما علينا أن نطرق أصول الفكر الأخلاقي وتطوره . وقد انحصرت دراسة الأخلاق عند الفلاسفة في تعريف الفضائل والرذائل ، وفي البحث عن مبدأ عام تؤسس عليه الأخلاق . فقال بعضهم إن هذا المبدء هو العقل . وقال آخرون : إنه العاطفة . وقال غيرهم : إنه الطبيعة أو اللذة أو المنفعة الخاصة أو العامة .. الخ . وهذا ما سوف نبينه في الصفحات التالية .

في مصر :

وضعت الأخلاق في أي صورة من الصور تحت حماية الدين . ولقد عد الظلم في كل عصور مصر رذيلة في نظرا لآلهة . ويعتبر إله الشمس ممثلا للعدالة ، فهو القائل " للإنسان " : قل الصدق وافعل ما يقتضيه فهو العظيم القوي.

وإذا ما اضطرب النظام فيعتبر هذا جرما، وربم كان يعوزهم الرغبة في الكفاح والبطولة . فقد كانت أوزوريس رمزا للسلام ؛ إذ لم تحارب الشعوب الأجنبية إلا عن طريق الإقناع .

واعتقد المصريون القدامى أن حظ الميت متوقف علي طريقة سلوكه خلال حياته . وعلي كل فرد أن يثبت أمام الاثنين والأربعين قاضيا للموتى أنه لم يرتكب إثما قط . وتتمثل هذه الجرائم في القتل والتحريض عليه والسرقة والغش والتزوير والفسق والزنا . وعلي الإنسان أن لا يكذب وألا يغتاب ، وألا يتجسس من وراء الباب ، وإلا يهلك نفسه فيما لا يجدي من أسى ، وألا يعوق الماء الجاري أثناء الفيضان ، وألا يعتدي علي حيوانات أو أسماك أو طيور الآلهة ، وألا يسرق الأطعمة من المعابد أو المقابر .

وتتمثل الفضيلة عندهم في عمل الخير بإعطاء الخبز للجـائع ، والمـاء للعطشان والملبس للعاري ۰ ومن يعجز عن عبور النهر يساعد علي عبوره فـي القارب الشخصي ، ويهدي إلي السبيل السويّ من ضل ۰ والرجل الطيب هو أبـن للمسنين ، وأخ للمطلق ، وزوج للأرملة ، وأب لليتيم ۰۰۰ هو كساء لمن يقرصـه الصقيع ، وملجأ من الريح ، هو للمريض مرضع أو ممرض ۰

ومن تعاليمهم أن يتجنب المرء الألفاظ النابية ، وألا يتكبر بسبب علمـه ، وألا يحتقر الوضيع إذا ما رفعه الملك ۰ والبخل عيب قبيح ۰ وعلـى المـرء أن يحب زوجه ، وأن يعمل لها كل خير ۰ واحترس مـن المـرأة الأجنبيـة الغـير معروفة في بلدها ۰ لا تبادلها النظرات فان هذه خطيئة عظمى ۰ ومن الخـير أن تبكر في الزواج ، وأن يكون للشخص أطفال كثيرون ۰ وأعد لأمك كل ما فعلتـه من أجلك ۰ أعطها المزيد من الخير ، واحملها كما حملتك ۰

ومن مبادئهم : كن وقورا حين تتناول طعامك ۰ واعتدل في شرب الجعـة واحترس من أن تكشف أسرارا ولا تكثر الكلام . والفضيلـة الأساسـية للمـرء الحشمة والحياء ولا تتظاهر بالتقوى .[١]

في العقيدة البوذية :

انبعثت العقيدة البوذية في شمال الهند من إقليم نيبال وكان باعثـها حكيـم من أصل نبيل حيث كان والده راجا . وقد أطلق عليه هذا الاسـم بعـد أن أعلـن رسالته الفلسفية اسم بوذا . وتعني الملهم أو العارف بالحقائق أو صاحب الإشـراق

---

١ - أنظر أدولف إرمان . ديانة مصر القديمة - نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة . ص ص ٢٢١ - ٢٢٦

وقد عاش بوذا في القرن السادس قبل الميلاد من حوالي ٥٦٠ إلى ٤٠٨ أي أنـــه كان معاصرا لاكسانوفون الفيلسوف اليوناني ، وكونفوشيوس حكيم الصين .

وقد خلت أقوال بوذا من المسائل الميتافيزيقية ، فلم يتعرض لطبيعـــة الله ولا للمسائل الكونية ، ولم يناقش الأحكام الدينيـــة أو الشـــعائر التـــي وردت فـــي مجموعة "الفيدا "، وهي مجموعة من النصوص الهندية القديمة .

وقد اقتنع بوذا بأن البراهمة يشغلون أنفسهم بالآلهـــة ، وأن عليـــهم يقـــع عبء تنظيم العلاقات بين الكائن المقدس والكائن الإنساني . أما هو ــ أي بـــوذا ــ فقد تملكه شعور بما تعانيه الإنسانية من آلام ، وأن الشـــر يجـب أن ينقـذ منـه الإنسان ، وهو يرجع إلى الخضوع للحسيات ، وإلى الجهد الـــذي يجعلنـا نـأخذ المظهر على أنه الجوهر .

وأدرك بوذا ما تنطوي عليه حياة الشباب من لهو ينجم عنه الكثـــير مـــن الأخطار ، وأن الألم يتولد عن الشهوات . ونحن لا نستطيع أن نقضي على الألـــم إلا إذا عملنا على إخماد هذه الشهوات ولا يكون ذلك إلا باتباع طريـــق الحكمـة الذي يوصلنا إلى الخلاص أو الشعور الأبدي أو النيرفانا .

واقتنع بوذا بأن الشيخوخة والموت آتيان لا محالة مهما طـــال أمدهـــا . فترك زوجته وولده ، وهجر منزله ، وراح يهيم على وجهه بحثا عـــن الحقيقـــة ، ويعيش عيشة الزهاد بين نساك البراهمة ، وأخضع جسمه لألوان من الحرمـــان ، والصوم ، وأتخذ لنفسه مرقدا من الأخشاب الخشنة وكان يأكل طول يومه حبـــات من الأرز ، وقيل بحبة واحدة .

وأدرك بوذا قيمة " الطريق الوسط " لتحقيق السعادة الروحية فالفضيلة وسط بين الإفراط والنقص . ويتمثل الإفراط في التهور ، والجنون ، والكبرياء ، والحمق ، والتملق . أما النقص فهو كالجبن ، وتبلد الإحساس ، والشح ، وحطة النفس ، والإنزواء . وتتوسط الفضائل هذين الطرفين ، وذلك كالشجاعة ، والاعتدال ، والكرم ، والتسامح ، والتودد .

ويرى بوذا أن أولى الخطوات الموصل للسعادة هي التفاني وإنكار الذات، والخلاص من الألم بالتحرر من الشهوات .

__كونفشيوس__

صرف كونفشيوس الأنظار عن الميتافيزيقيا وخوارق الطبيعة والغيبيات، ووجه الأذهان إلى مشكلات المجتمع البشري ، والاهتمام بتنظيم الدولة .

ويرى كونفشيوس أنه على الحاكم أن يبدأ بوضع نفسه موضعها الصحيح. ومن ثم فلن تجرؤ الرعايا على الانحراف عن الحق . فإذا كان الحاكم قويا عادلا تتصلح أحوال الجميع دون حاجة إلى إصدار الأوامر . وفي رأيه أن استعانة الحاكم بالقوانين لقادة الناس وتسيير شئونهم بفرض العقوبات يفقد الناس معنى الحياة . فعلى الحاكم أن يقود الناس بالحكمة وكبح صاحبها بقواعد اللياقة وعندئذ يسيطر عليهم معنى الحياء وتسودهم الطيبة والصلاح .

سأله أحد الحكام عن الحكومة الصالحة فأجاب : تكون الحكومة صالحة إذا ما كان الخاضعون لسلطانها سعداء ، والبعيدون عنها تواقين للانضواء تحت لوائها . ومن رأيه أن قوام الحكم الصالح ثلاثة عوامل هي :الطعام الوفير ،

والجند الكثيف ، وثقة الناس بالحكم . وفي رأيه أن الحل الوحيد لمواجهة مصائب عصر وشرورها هو الرجوع إلى الفضيلة .

الأخلاق في الفلسفة اليونانية

سقراط

جاءنا ما نعرفه عن سقراط على لسان أفلاطون في محاوراته . وكان الاتجاه السائد في الفلسفة قبل سقراط البحث في الطبيعة سواء أكان عالم السماء أم عالم الأرض . وبمجيء سقراط اتجه البحث نحو الإنسان وأخلاقه ونفسه . ولهذا يعد سقراط هو منشئ الفلسفة الأخلاقية في العالم الغربي .

لم يفصل سقراط الأخلاق عن الدين أو الميتافيزيقا . فالحياة الخلقية عنده تعتمد على أصلين : قوانين الدولة المكتوبة ، والقوانين الإلهية غير المكتوبة . وأشار إلى أهمية موضوع الاعتقاد بخلود النفس في الأخلاق . وخلود النفس مسألة ميتافيزيقية أو بالأحرى دينية . والاعتقاد بخلود النفس مسألة ضرورية لإمكان قيام حياة خلقية تقتضي المسئولية والحساب .

ويرى سقراط أن الإنسان لا يمكن أن يكشف خبايا النفس ، ويعيش كما ينبغي إلا إذا توصل إلى الحكمة ، وحقق شعار أعرف نفسك بنفسك ، فهو الموصل للسعادة . وأول مظاهر عكوف النفس على ذاتها هو الرغبة في التخلص من تأثير بعض الآراء والعادات المتسلطة على النفس بحكم العادة والتقاليد . وإذا أمكن للإنسان أن يتجرد من الأهواء والآراء المتسلطة أمكن أن يكون موضوعيا ، ومحايدا ، وعادلا ، واستطاع أن يحدد سلوكه في مجال أسرته وعمله ووطنه ؛ مما يوصله إلى الحرية والاستقلال الذاتي (ذاتية الإرادة) .

وفي هذا يختلف سقراط عن السوفسطائيين الذين يقولون أن " الإنسان هـو مقياس كل شيء " .

ويقصد سقراط من شعار أعرف نفسك بنفسك ، أن من يعرف نفسه يعلـم النافع فيأتيه ، والضار فيتجنبه ، فتتحقق السعادة . أما الـذي لا يعـرف نفسـه ، ويسرف في استعمال ملكاته وقواه ، فإنه لا يقتّر الأشخاص ولا الأشـياء ، ومـا يكاد يخرج من مأزق حتى يقع في خداع ، فلا يصل إلى الخير .

ويرى سقراط أن الفضيلة ثمرة علم ، والرذيلة ليست إلا جهلا . ولو علـم الإنسان ما هي الفضيلة ، والسبل الموصلة إليها لفعل الخير ولو علم الرذيلة فلابـد أن يتجنبها ، فما انتشرت الرذائل إلا لجهل الناس بها . ومن هنا كـانت الرذيلـة عند سقراط – هي نسيان أو تجاهل الحقيقة ، وكان الشر سلب للمعرفة .

وعلاج الشر – في نظر سقراط – يكون بتصحيح معلومات الأشـوار ، لا بتقويم نواياهم ، وغرائزهم ؛ فهم لا ينوون إلا خير أنفسـهم ، ولكنـهم يجـهلون حقيقة الخير ، أو يجهلون وسائله . ولذلك جعل سقراط من الفضيلة علما ، ومـن الرذيلة جهلا .

وعنى سقراط بعد ذلك ببيان الفضائل التي توصل إلى السعادة الحقيقيـة . وأولها : الاعتدال . وثانيها : العمل ؛ فالبطالة هي أساس الفسـاد ، لأنـها تبلـد الذهن، وتضعف الصحة . وثالثها : العدالة ، فهي غاية السلوك الأخلاقي ، والتـي يسير طبقا للقوانين الأخلاقية ، وهما نوعان : القوانين المكتوبة ، والقوانين غـير المكتوبة .

ولكن ما هي السعادة ؟ السعادة في رأيه - ليست في الجمـال ، ولا في القوة ، ولا في الثراء ، ولا في المجد ؛ فالسعادة ليست في المظـاهر الخارجية المادية ، ولكنها نتيجة لحالة معنوية تتحقق إذا استطاع المرء أن يلائم بين رغباته وبين الظروف التي يوجد بها . والحكيم هو من لا يشغل نفسه بالرغبات التافهـة بل بالرغبات التي تعلى من قيمته في نظر الناس وفي نفسه .

أفلاطون

يمثل أفلاطون قمة التحليق في عالم المثل للوصول إلـى حقيقـة "الخـير الأسمى "؛ فالعلم - عنده - ينتقل من عقل إلى عقل عن طريق الحجج والبراهين، وهو وحده لا يكفي لكي يصبح المرء فاضلا . ذلك أنه قد يعرف الشـر ويأتيـه، وقد يعرف الخير ولا يفعله ، ولو كانت الفضيلة تنتقل بالتعليم كما تنتقل العلوم من عقل إلى عقل بالأدلة والبراهين ، لاستطاع حكمـاء أثينـا أن يجعلـوا تلاميذهم فضلاء مثلهم .

ويرى أفلاطون أن الأخلاق سلوك قبل أن تكون علما ، وهذا السـلوك لا يتحقق من خلال النقل والتعليم ، فهل نستطيع أن ننقل الحاسة الخلقية مـن إنسـان إلى أخر . إنها لا تتحقق إلا عن طريق الإرادة . والسلوك الأخلاقي لا يكفـي أن يحدث مرة أو مرتين حتى يتصف بهذا الوصف ، بل يجب أن يتكرر حتى يصبح عادة ثابتة وخلقا راسخا . ولابد إذن لتحقيق التربية الخلقية أن يتواصل التدريـب على العمل بما نعمل .

ورأى أفلاطون أن الاعتقاد الديني هو وسيلة ناجحة في التربية الخلقيـة . وأنه لا يمكن للإنسان أن يمارس حياة الفضيلة والخير والعـدل إلا إذا جعـل الله غايته .

وفي رأي أفلاطون هناك نوعين من الفضيلة . فضيلة فطرية موروثة وهي لا تحتاج إلى تعليم . أما الفضيلة الحقيقية فهي تعتمد على معرفة الخير ونيته. وتمتد المعرفة من العقل إلى القلب ، وتصبح إيمانا عميقا وقوة ملهمة .

وأصول الفضائل - عند أفلاطون - أربعة هي : الحكمة ، وهي أسمى الفضائل ، ثم الشجاعة ، والعفة ، والعدل justice ، ويضعها أفلاطون فوق الفضائل الثلاث الأخرى : الحكمة ، والشجاعة ، والعفة .

ويرى أفلاطون أن قوى النفس الثلاث إذا اعتدلت نشأت عنها الفضائل . وهذه القوى هي : القوة العاقلة ، وهي إذا اعتدلت نشأت عنها فضيلة الحكمة . والقوة الغاضبة ، وهي إذا اعتدلت نشأت عنها الشجاعة ، والقوة الشهوية أو البهيمية، وهي إذا اعتدلت نشأ عنها العفة .

ويضيف أفلاطون أن الإنسان الذي يبغي تحقيق السعادة والوصول إلى الحكمة يجب أن يصغي إلى توجيه الحكماء الذين يعرفون هذه الآفاق المثالية . وهنا يستطيع المرء أن ينبذ التوافه والملذات العابرة .

ويستشعر المرء السعادة إذا أنسجم الجزء الآمر وهو " العقل " مع الجزأين الخاضعين وهما : العواطف " والشهوة " ؛ فذلك يحقق له الخير الأسمى والسعادة .

وينشأ العدل في رأيه إذا ترتبت العناصر الثلاثة للنفس الإنسانية وفق ما وضعته الطبيعة ، أما الظلم فينشأ إذا أعطى عنصر فيها سيادة ليست له بالطبيعة.

أرسطو

يعد كتاب أرسطو " الأخلاق إلى نيقوماخوس "بداية رحلة هامة في تاريخ علم الأخلاق . والأخلاق عند أرسطو هي التي تحدد ما يجب على الإنسان فعله ، وما يجب اجتنابه . فالأخلاق هي التي تنظم الحياة الفردية والاجتماعية .

حارب أرسطو مذهب اللذة ، وأنكر اللذات الفر الأنانية . وذهب إلى أن أساس الفضائل خضوع الشهوات ا حكم العقل ، أي تس زمام الشهوات للعقل يقودها .

وعرض أرسطو لعدة تعريفات للفضيلة نذكر منها :

١ – الفضيلة هي استعداد مكتسب يتأصل في طبيعة الإنسان ويدفعه إلى العمل الإرادي المتأني وفقا للوسط العدل .

٢ – الفضيلة هي ملكة اختيار الوسط العدل بين طرفين كلاهما شر : الأول شر بسبب الإفراط ، والثاني بسبب الشح أو النقص .

٣ – الفضيلة بالنسبة للعين هي أن ترى بوضوح ، وبالنسبة للحصان أن يجري جيدا ، وأن يتحمل راكبه . أما فضيلة الإنسان الأمين فهي في أداء الوظيفة التي يختص بها .

ولكي يكون الإنسان فاضلا ، فإنه يستلزم تنمية بعض الفضائل الأخلاقية، وممارستها حتى تصبح جزءا من عادات الإنسان ، فليس الكريم هو من أجاد بما عنده مرة ، ولكنه من تعود الجود حتى أصبح من طبعه .

ولكي يصبح الإنسان فاضلا ، فإنه ينبغي أن يتجنب طرفين . الطرف الأول محاولة استئصال الشهوات ، والطرف الثاني إطلاق العنان لها والانهماك فيها . إنما الفضيلة الاعتدال ، فلا تطغى أحدهما إلى الآخر .

أن كل فضيلة عند أرسطو هي اختيار " الوسط العدل " إنه وسط بين رذيلتين ، إفراط يجب تجنبه ، وتفريط – أي نقص يجب تلافيه . فالشجاعة وسط بين التهور والجبن ، والكرم وسط بين الشرف والبخل ، والعفة وسط بين الفجور والجمود .

والعدل – عند أرسطو – هو الفضيلة – التامة ، ولكنه ليس فضيلة شخصية ، لأنه متعد إلى الغير ، بل هو أهم الفضائل . فكل فضيلة توجد في طي العدل . إنه فضيلة تامة لأن العادل يمكن أن يحقق العدل في حق الغير لا لنفسه فحسب ، بل كثير من الناس يستطيعون أن يكونوا فضلاء في حق أنفسهم ، ولكنهم غير أهل للفضيلة فيما يتعلق بالغير ٠٠٠ حينئذ لا يمكن اعتبار العدل مجرد جزء من الفضيلة ، بل إنه الفضيلة كلها ، وأن الظلم الذي هو ضده ليس واحد من الرذائل ، بل هو الرذيلة بتمامها .

واهتم أرسطو بتعريف السعادة ، وجعلها هدفا وغاية . فهي الخير الأقصى ، أو الأسمى أو الأعلى . وعرض لأنواع الخيرات ، وهي الخيرات الخارجية كالثروة ، والجاه . أما خيرات النفس فهي ما يطلبه لذاته لا لشيء آخر ، وهي حياة التأمل والتفكير ويشرف عليها العقل . وخيرات البدن وجماعها اللذة . أما الخير الأعلى فهو السعادة . (١)

---

١ - انظر أحمد عبد الحليم عطية . الأخلاق في الفكر العربي المعاصر — دراسة تحليلية للاتجاهات الأخلاقية . الحالية في الوطن العربي ص ص ٥ – ٢٤

وأنظر د. محمود سيد أحمد الإنسان في أخلاق هارتمان ص ص ١١٧ – ١٢١

والفعل الخلقي – عند أرسطو – يكون خيرا لا لأنه يحقق لذة أو منفعة ، بل لأنه خير وفضيلة . وإذا كان الخير الأسمى للإنسان هو السعادة ، فما هي عناصرها ؟ يرد على ذلك أرسطو بأن السعادة الحقيقية تفترض النشاط والحيوية، فالإنسان الذي يعيش في خمول ويقضي حياته في ثبات عميق لا يمكن أن يكون سعيدا .

ولكن أي أنواع النشاط نمارسها ؟ يقول أرسطو أن الوظيفة الذي يؤديها الإنسان ، إذا ما أداها بإتقان امتلأت نفسه بالغبطة والسعادة لأنه استطاع أن يبرز مواهبه .

وقد اعترض على نظرية " الوسط العدل " لأرسطو ، ذلك أن كثيرا من الفضائل لا يظهر فيها أنها وسط بين رذيلتين كالصدق والعدل ، فليس هناك إلا صدق وكذب وظلم وعدل .

أبيقور Epieurus

فيلسوف يوناني عاش في سنة ٣٤١ – ٢٧٠ ق . م . أسس مدرسة في أثينا سنة ٣٠٦ ق . م . يعلم فيها مذهبه ، واستمرت أكثر من ستة قرون .

ويرى أبيقور أن الأعمال لا تقاس باللذات والآلام الوقتية فحسب ، بل الواجب أن يرمي الإنسان بنظره على جميع حياته ، وبحسب ما يستتبعه العمل من لذة وألم في الحياة ، فشرب الدواء المر يسبب ألما ولكن لأنه قد يذهب ألما أكبر منه – وهو ألم المرض يكون خيرا . والعاقل هو من يرفض لذة حالة للحصول على لذة أكبر منها مؤجلة .

من أجل هذا فضل " أبيقور " اللذة العقلية علـي اللـذة الحسـية ، فـهذه الأخيرة سريعة الزوال إذا قيست بتلك اللـذة الباقيـة - لـذة العقـل وتحصيـل العلم،والتي منها يتخذ الإنسان عدّة لحوادث الدهر وصروف الزمان .

ويقول أبيقور : إن خيرا للذائذ هي الخلو من الألم ، وأن الذي يصل إلـي هذه الدرجة يكون حكيما . والحكيم الأبيقوري هو الذي يهمل الروابط الإنسـانية ، فلا يهتم بالحب ، ولا يشغل نفسه بالأسرة ، لأن الـزواج والأبـوة تشـغله عـن اهتماماته . كذلك فهو ينسحب من الصراع السياسي ولا يشـارك فيـها إلا فـي ظروف استثنائية ، وينصرف إلي الحياة الهادئة البسيطة محاكـاة لواحـة الآلهـة الأبدية بعيدا عن دنيانا الحاضرة .

ويضيف أبيقور أن سعادة الإنسان تعتمد علي حالته النفسـية أكـثر ممـا تعتمد علي الظروف الخارجية ، فليس المال الكثير والجاه الكبير ونحو ذلك يعيـن علي السعادة أكثر مما تعين صفات الإنسان الخلقية و العقلية .

والسعادة - عند أبيقور - ليست المجون وحياة الدعارة ، بل هي تنظيـم الألم والرغبات . والرغبات متنوعة ، وهي :-

١-الرغبات الطبيعية الضرورية

فيجب تحقيقها وإلا تعرض الإنسان للموت والمـرض . ومثـال هـذه الرغبات الأكل والشرب والنوم وهذه الرغبات سهلة الإرضاء قليلة العدد يسـيرة المطلب ، ويكفي لإرضائها قطعة خبز وكوب ماء وقطعة خشب منبسـطة للنـوم عليها .

٢- الرغبات الطبيعية وغير ضرورية :

وذلك كالرغبة في الزواج والإنجاب • وإذا تعود الإنسان عليها يصبح خاضعا لها ، وخرج زمام الأمر من يده • ولذلك كان أحكم الناس هو الذي يزهد في هذه الرغبات •

٣- رغبات ليست طبيعية وليست ضرورية :

مثل الرغبة في الغناء والسلطة والجاه . وهذه من السخف إرضاؤها ؛ لأنها كثيرة لا تحصى ، ومتعطشة لا تروى ، وتتطلب متاعب متعددة . والحكيم ينبغي ألا يأبه لهذه الرغبات .

وفي هذا يقول أبيقور [١] : إن اللذائذ الجسمية الظاهرة ليست محرمة ، ولا مرذولة ، ولا ضرر على العاقل من أخذ حظه منها من غير إفراط .

ولاحظ أبيقور أن هناك شيئين يعملان على شقاء الناس : الإيمان بأن الآلهة تهتم بأمور الناس ، والفزع من الموت الذي يتهددنا في كل آونة .

وقد أخطأ بعض الناس ، ففهموا أن أبيقور يدعو الناس إلى الإنهماك في اللذات الجسمية ، والجري وراء الشهوات ، حتى أنهم أطلقوا كلمة أبيقور على المنهمك في الشهوات ، بينما تعاليم أبيقور بعيدة عن ذلك ، حتى أنه ندد في بعض كتبه بمن يفهم ذلك من قوله ؟

الرواقيون

يرى الرواقيون أن اللذة الأبيقورية هي مجرد دوافع طبيعية ، فهي عرض ملازم وليس مقوما من مقومات الخير . وتقوم فلسفة الرواقيين على أساس أن الطريق الموصل إلى السعادة الكاملة إنما هو في ممارسة الفضيلة.

---

١ ـ أحمد أمين : المرجع السابق ص ٣٧

فالسعادة تأتي تبعا للفضيلة ، وليست السعادة في طلب اللـــذة ، ولا فـــي تحاشـــي الألم، بل السعادة هي الخير المطلق .

ولكن ما هي الفضيلة ؟ وما هو الخير المطلق ؟

الفضيلة هي حالة تنعم فيها النفس بالهدوء والاستقرار ؛ لذا كانت شخصية الحكيـــم الرواقي هي تحقيق الخير المطلق . والخير المطلق هو التخلص من الاضطـــراب في هدوء . ولكن ما أسباب هذا الاضطراب ؟ وكيف نتلخص منه ؟

هناك أمران يبعثان على الاضطراب :

١ ــ الشعور بنقص ما فيما نعتبر أنه بالنسبة لنا من الشرف والنبل .

٢ ــ تشبع النفس برغبات في أمور لا يقدر لها التحقيق .

أما عن التخلص منها ، فقد نظر الرواقيون إلى القوى الداخلية من غرائـــز وانفعالات على أنها شر ، ولهذا طالبوا بإبادتها وإماتتها .

وتدعو الحكمة الرواقية إلى الحب والتسامح والإخـــلاص كطريـــق إلـــى السعادة والفضيلة ، أي جعل الإنسان مستعدا دائما لقبول كل شيء من خير وشـــر وظلم وجور ... وهي تريد من الإنسان أن يجعل رغباته حسب الظروف ، فـــإن لم يستطع فعليه أن يجعل الظروف تبعا لرغباته .

وربط الرواقيون بين الجمال والأخلاق ، فالجمال هو الكمال في عـــرف الأخلاق .

والواقع أن الربط بين الجمال والأخلاق ليس حكيما ، فـــإذا مـــا اعتبرنـــا الحياة الخلقية جميلة ، فإنما ننظر إليها من زاوية خارجة عن ذاتـــها . إن الحيـــاة

الخلقية في جوهرها فعالية للشهوات ومجاهدة للأهواء والنزوات ، وليس في هـــذا ما يبرر وصفها بالجمال .

الفصل الرابع
الأخلاق في الحضارة الرومانية

تقديــــم

لم يحاول الرومان معرفة كنه عالم المثل ، أو إرساء تشـــريعاتهم علـــى أسس فلسفية ، فها هو فيتروس كتب في فن العمارة ، وألف جالين Galen فـــي الطب ، وكتب فيجيتيوس في المناهج العسكرية . أما رجال القانون فقد كتبوا فـــي أصل وطبيعة وشرعية السلطة السياسية ، واهتمـــوا بوضـــع الأســـس والقواعـــد العملية في السياسة والقانون التي تنظـــم الدولـــة ، وتعـــرف الأفـــراد بـــالحقوق والواجبات ، وتكفل استتباب الأمن وتحقيق العدالة .

وترجع أصالة الرومان في تفكرهم الاجتماعي والسياسي إلى الدور الكبـــير الذي لعبته روما في تطبيق المبادئ القانونية والسياسية والإدارة العامـــة تطبيقـــا عمليا في الشعوب التي أخضعوها . ولهذا اتصفـــوا بصرامـــة الخلـــق ، وقـــوة العزيمة، وتصرفاتهم لنظام دقيق في ظل القانون .

ومن ناحية أخرى ، ترجع أهمية الفكر الروماني كذلك إلى الـــدور الـــهام الذي لعبته روما في نقل التراث اليوناني خاصة عند الرواقييـــن ، فيمـــا يتعلـــق بالمساواة الإنسانية ، والأخوة بين الناس ، وقيمة الفرد بالرغم من ضآلتـــه . وقـــد نقل هذا الفكر إلى الدول الأوروبية بفضل اتساع رقعة الإمبراطوريـــة الرومانيـــة شرقا وغربا . [1]

وقد اقتنع الرومان أن العالم يجب أن يعرف لا لمجرد المعرفة ، بل يجـــب أن يعرف ليستخدم ، ولذلك أقاموا أنساقا من القوانين يستلزم احترامها ، وتعتـــبر

---

[1]- see Harry Elmer Barness, Introduction to the History of sociology, P. 13 .

وانظر د. حسين عبد الحميد رشوان ، الفلسفة الاجتماعية والاتجاهات النظرية في علم الاجتماع ص ٦٧

مقياسا للتنظيم الاجتماعي في العالم الذي عرفوه . وهذا ما يفسر لنا ازدهار التشريع وقوته . وكان معيار النظام الروماني الوحيد هو قيمته العملية ، ومقدار ما يحقق من نجاح في محيط الحياة .. وهو يتمثل في حنكة القائد المنتصر ، أو في التدبير وموازنة اقتصاديات الدولة لتحقيق الرخاء في كل أسرة ، أو في إعداد دفاع أو اتهام قوى الحجة لخدمة الصالح العام ، أو في إعداد تشريع يطابق حاجات الناس ويحقق العدل في جميع أشكاله وصوره .

وتستهدف هذه النظرة الدافعية العملية تأدية الواجب ، مما يؤدي إلى العظمة وسيادة الوطن ، والذي يصبح محورا لجميع القيم ، فالإنسان يتزوج إذا كان يخدم الدولة ، وينجب أطفال وفق ما تقضيه مصلحة الدولة ، كما أنه يعيش ويطمح في أن يموت من أجلها .

وبالرغم من أن الدولة الرومانية قد قامت على أساس من الغزو والقوة الحربية ، وإخضاع الشعوب التي غزتها ، فإنها قد منحت هذه الشعوب قدرا من الحرية المحلية ، وتوسعت في الاعتراف بالمواطنة والحقوق السياسية وعلى الأخص حق الاقتراع لهذه الشعوب التي أصبح أفرادها مواطنين رومانيين.

يعد ذلك انتصارا لفكرة الدولة العالمية أو المجتمع العالمي التي نبتت جذورها في فلسفة الرواقيين الذين كانوا يعتبرون الإنسان جزءا من الطبيعة أو العالم الكوني ، وأن الناس يجب أن يخضعوا لقانون واحد هو القانون الطبيعي الذي يوحد بينهم جميعا ليكونوا مجتمعا ضخما واحدا هو مدينة العالم The City of The World . وهذه الفكرة هي التي تحققت على أيدي الرومان والتي كان تحقيقها يمثل القضاء على الوحدات السياسية الصغيرة .

نجم عن هذا كله عزوف رجال الفكر والسياسة في روما عن تناول ما هو مثالي ، وما ينبغي أن يكون عليه المجتمع والإنسان كما فعل رجال الفكر اليونانيين ، وإنما اتجهوا إلى الملاحظة ووصف أخلاق الرجال ، ودوافعهم ، وتحليل نفسياتهم في محيط الواقع . ويمثل هذا الجانب شيشرون .

ماركوس توليوس شيشرون
(١٠٦ –٤٣ ق . م)

ولد شيشرون Cicero في روما عام ١٠٦ ق . م . وتلقى العلم على يد خيرة من أساتذة عصره . فقد درس القانون في روما ، والفلسفة في أثينا ، ومارس الخطابة ، والكتابة ، والمحاماة ، والسياسة ، واشترك في الحياة العامة . وترك عدة كتابات أهمهما " الجمهورية " و " القانون " .

وتمثل فلسفة شيشرون مزيجا من أعمال المؤرخ بوليبيوس الذي أبدى إعجابه بدستور روما . واعترف بجمال جمهورية أفلاطون بالرغم من رفضه لها. كما انطبعت فلسفته بالرواقية .

فقد أبرز شيشرون نظرية الرواقيين في القانون الطبيعي ، وبين أن هذا القانون الطبيعي يستمد وجوده من عنصرين . أحدهما أن هذا العالم تحكمه العناية الإلهية ، وهي واحدة لا تتجزأ . والآخر الطبيعة الاجتماعية للناس . وهذان العنصران يمثلان دستور الدولة العالمية الذي يتماثل في كل مكان ، ويلزم أحكامه كل الناس ، والأمم ؛ فلا يمكن لأي تشريع يناهضه أن يسمى قانونا ؛ إذ

ليس في مقدور أي حكم أو شعب أن يجعل الصواب خطأ ، أو الحق باطلا . كما أخذ عن الرواقيين رأيهم في الأخوة الإنسانية فالإنسان أخ لأخيه الإنسان .

ومال شيشرون إلى رأي أرسطو القائل بأن المجتمع يرجع إلى غريزة الإنسان الاجتماعية أكثر من ميله للرأي الأبيقوري الذي يذهب إلى أن المجتمع يقوم بسبب ما يشعر به الإنسان من ضعف إذا عاش في عزلة عن أشباهه من الناس ، إلى جانب ما يشعر به من فوائد تعود عن الاجتماع .

ونقل عن أرسطو كذلك فكرة "المدينة" كبؤرة للسياسة ، غير أنه وسع في نطاقها من ناحية ، وتأثر بعقليته القانونية من ناحية أخرى . ذلك أن شيشرون كان من فقهاء " القانون الروماني " .

ويرى شيشرون أن الدولة كي يكتب لها البقاء لابد أن تلتزم بالالتزامات والحقوق المتبادلة ، والتي تربط بين المواطنين . وفي ضوء هذا فالدولة مجتمعا أخلاقيا ، أو جماعة من الأشخاص الذين يمتلكون الدولة وقوانينها ملكية مشتركة. وهي توجد لتحقق للناس مزايا المعونة المتبادلة والحكم العادل .

ويرى شيشرون كذلك أن الدولة وقانونها خاضعان للقانون السماوي ، وللقانون الطبيعي العام أو القانون الأخلاقي ، وذلك هو الحكم الذي يسمو على القانون البشري الدنيوي . أما القوة فهي ليست إلا مسألة عارضة في طبيعة الدولة ، ولا مبرر لها إلا حيثما يلزم تنفيذ مبادئ الحق والعدالة .[١]

---

١ - انظر د. السيد عبد الحليم الزيات . في السياسة ونظم الحكم ص ص ٧٠ - ٧٣ وانظر د. علي عبد المعطي محمد ود. محمد علي محمد . السياسة بين النظرية والتطبيق ص ١٠٢ .

لوسيوس أنيوس سنيكا Seneca
(٣٠ ق.م - ٦٥ م)

ولد في قرطبة (Corduba) ، وسرعان ما جئ به إلى روما وتلقى فيها كل ما كان يستطيع أن يتلقاه من تربية وتعليم . ومن رسائله الغضب ، وفي قصر الحياة ، وفي الحياة السعيدة ، وفي الرحمة ، وفي هدوء الروح ، وفي حسن التدبير .

يمثل سنيكا الجانب الديني في مقابل شيشرون الذي كان يمثل الطابع القانوني . وذهب سنيكا إلى القول بعالمين للإنسان هما : عالم صغير وهو عالم المدينة التي يحيا فيها . وعالم أكبر هو عالم دولة تتكون من الكائنات العاقلة التي تربط الإنسانية بعضها ببعض . وفي تصوره عن هذا العالم أنه يسوده علاقات معنوية ودينية، بدلا من الروابط القانونية السياسية .

وفي ضوء هذا مجد سنيكا حالة الطبيعة الفطرية ، ففيها عاش الإنسان بلا ضغط أو إلزام أو خضوع لأية سلطة أخرى إلا سلطة عقله ، كما كان الناس متساويين إذ لم يكن عنصر الملكية الفردية قد دخل الحياة بعد . والسبب الرئيسي في القضاء على هذا العصر الذهبي هو ظهور مبدأ الملكية الفردية ، والذي تاق الأفراد فيه إلى التخلص من الملكية الجمعية ، وتشبعوا بشهوة الحرب وراء الثروة والجاه ، ثم ظهرت ضرورة إنشاء نظم اجتماعية وسياسية لكي تحد من هذه الشرور .[1]

١ــ د. حسن شحاتة سعفان . تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية ص ٥٦ .

ومن آرائه أن الحكيم يتحتم عليه أن يكون فقيرا ، فإذا جاءه المال عن طريق شريف كان في وسعة أن يقبله ، ولكن يجب أن يكون في مقدوره أن يتخلى عنه متى شاء دون أن يندم عليه . ويرى أننا لا نستطيع أن نكون عقلاء حكماء في كل شيء ، وأنه ليست حقيقة أمرنا إلا قطعا متناثرة في الفضاء اللانهائي، ولحظات قصيرة في الأبدية ، وإن محاولة هذه الدراسة المتشعبة أن تصف الكون ، أو الكائن الأعلى ، لعمل ترتج منه الكواكب سخرية ومرحا.

والفلسفة عند سنيكا هي علم الحكمة . والحكمة هي فن العيش ، والسعادة هي الغرض الذي نبتغيه ، ولكن الطريق إليها هو الفضيلة لا الرذيلة ... وسوف تُنا ل أخر الأمر بالشرف ، والعدالة ، والحِلْم ، والرأفة قدرا من السعادة أكثر مما نتناوله بالجري وراء اللذة . وما من شك في أن اللذة طيبة مستحبة ، ولكنها لا تكون كذلك إلا إذا اتفقت مع الفضيلة .

ولكنْ كيف يحصل الإنسان على الحكمة ؟ إن السبيل إلى ذلك أن تمارسها كل يوم بقدر مهما يكن ضئيلا ، وأن تمتحن سلوكك في آخر كل يوم ، وأن تكون قاسيا مع أغلاطك ، ليّنا على أغلاط غيرك ، وأن تصاحب من هم أعظم منك حكمة وفضيلة .[1]

---

١ — انظر ول ديورانت : قصة الحضارة – الجزء الثالث من المجلد الثالث – قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية ص ص ١٧٤ – ١٨٢ .

الفصل الخامس
الأخلاق في الشريعة اليهودية والمسيحية



في الشريعة اليهودية

صور العهد القديم الإله تصويرا يقربه من صفات البشر . وكان المجتمع قبل نزول الشريعة اليهودية يعيش حالة من الفوضى والفساد ، ... فلا قانون ، ولا عدل ، ولا أمن ، ولا نظام . فجاءت هذه الشريعة لعلاج هذا المجتمع،ولوضع حد للفوضى التي تنحر في البناء الاجتماعي ، وتغيير الاتجاه نحو الخير ، والقضاء على الشرور التي كانت سائدة منذ بدء التاريخ لفساد النظم الاقتصادية والسياسية والطبقية التي كانت قائمة وقتذاك .

جاءت هذه الشريعة لتنظيم الجماعة لتصبح مكانا صالحا لسكن الإنسان ، فلا يقتل إنسان بلا قصاص ، ولا يعتدي إنسان على إنسان بلا عقاب . وإذا أهان الإنسان إنسانا فيجب أن يقتص منه مهما كانت أسباب الإهانة . فقد نصت شريعة موسى عليه السلام على أن : العين بالعين والسن بالسن .[1]

وقد جاءت شريعة موسى عليه السلام شاملة بعض المبادئ التي تعطي للفرد قيمته ، وتدعو إلى رعاية المرضى وتحث على الاقتصاد وتطرقت إلى الثروة ، وحث الناس على النظافة . تقول هذه الشريعة أن الفرد من خلق الله وحياته أغلى شيء لديه ، وهي مرتبطة بحياة الجماعة ، فيجب المحافظة عليها ، ورعايتها وصرفها فيما يعود على الجماعة بالخير والرفاهية ، ووقايتها من الشرور ، والاتحاد عماد الحياة الاجتماعية .

---

١ ـ انظر د. حسن الشرقاوي : الأخلاقية الإسلامية ص ص ٣٤٦ - ٣٤٧

واعتبرت الشريعة ثروة الفرد ملك لله فيجب رعايتها وصرفها فيما يعـــود على الجماعة بالخير والرفاهية . إذا كل الأفراد إخوة ، والعطف وحسن المعاملـــة واجبة على كل قادر . وهذه يجب أن تكون أساس الإحسان ، وهي أهم من المـــال نفسه .

ولتنظيم الإحسان و حدت اليهودية نظام العشور ، وهـــي تقديـــم عشـــر المحصول أو الثمار أو الخيرات لتوزع على الفقراء والأرامل والأيتـــام . واهتـــم الدين اليهودي كذلك ، بالنظافة التي تقي من الأمراض .(١)

وقد ارتبطت اليهودية التلمودية بالربا والبغاء في أوروبا خلال الفترة إلـــى الثورة الفرنسية . وارتبطت صورة اليهودي بشخصية المرابي عـــبر التـــاريخ ، وهي الصورة التي خلدها شكسبير في شخصية شلوك في مسرحية تاجر البندقيـــة. وكان اليهود يتقاضون فوائد باهظة تراوحت من ٣٢,٥% إلى ٢٢٠% .

وتفشت بين اليهود الإباحية والرذيلة في العالم ، وفتح باب الزنـــا علـــى مصراعيه . وأعلنت الماسونية أن الأسرة ليست من طبيعة المجتمع ، وأن عـــري الجسم حرية له وصحة وسعادة ، وأن على الأبناء أن ينبذوا سلطة الوالدين .(٢)

---

١ ــ انظر أ د . فؤاد حسنين على إسرائيل عبر التاريخ وفي البدء ص ٢٠١

وانظر د . حسين عبد الحميد أحمد رشوان : تطور النظم الاجتماعية وأثرها في الفرد والمجتمع ص ص ١٠١– ١٠٢ .

٢ ــ أنور الجندي المخططات التلمودية – اليهودية الصهيونية ص ص ٤٥ – ٤٧ .

وقد نظمت الشريعة اليهودية العلاقات الزواجيـــة ، إذ ســمحت الديانـــة اليهودية القديمة بالسماح لرجل بالزواج من أختين ، ومن أمثلة ذلك زواج يعقــوب من الأختين لئية وراحيل ابنتي لابان . ثم حرمت الشريعة اليهودية ذلك فيما بعــد. ففي سفر التثنية نجد أن الديانة اليهودية قد حرمت الزواج بين الأقارب الآتيين:-

١ — الزواج من امرأة الأب .
٢ — زواج الرجل من أخته بنت أبيه أو بنت أمه .
٣ — زواج الرجل من حماته .
٤ — الزواج من أبنة الابن أو أبنة البنت .
٥ — الزواج من العمة أو الخالة .
٦ — الزواج من امرأة العم .
٧ — الزواج من امرأة الأخ .
٨ — الزواج من امرأة وبنتها .
٩ — الزواج من أختين معا .

ومما يلفت النظر أن الديانة اليهودية لم تحرم زواج الأب من ابنته ،ولـــم تنص على تحريم النكاح بين أفراد أكثر قرابة من الذين سبق ذكرهـــم . ويتمثـــل هذا في زواج إبراهيم من أخته ، وزواج يعقوب بأختين . وفي عصر داوود كـــثر الزواج بين الأخوة والأخوات في الأسر المالكة .

وقد نص سفر أشعيا على أنه إذا اقترنت المطلقة برجل أخر ثم توفي هـذا الزوج أو طلقت منه لا يحق لزوجها الأول إعادتها إلى عصمته .

وقد فرقت الشريعة اليهودية بين الرجل والمرأة ، أي بين الجسد (المرأة)، والروح (الرجل) ، وما يفعله الرجل من أعمال لا أخلاقية في ملة إسرائيل مرجعه إلى المرأة . فقد جاء في سفر التكوين ، الفصل : ٣ الفقرة : ١٣) : فقال آدم : المرأة التي جعلتها معي هي التي أعطتني من الشجرة فأكلت.[١]

وقد عانت المرأة في ملة إسرائيل من الذل والهوان والتحقير ، فكانوا يضعونها في مرتبة الخادم ، وكان يخول لأبيها حق بيع ابنته القاصر، وهي دون مرتبة أخيها ، وليس لها حق في الميراث إذا كان لها أخوة ذكور ، (الإصحاح ٢١ من سفر التكوين) ، وحين تحرم من الميراث لوجود أخ لها ذكر يثبت على أخيها النفقة والمهر عند الزواج .وإذا كان الأب ترك عقارا فيعطيها من العقار ، أما إذا ترك مالا منقولا فلا شيء لها من النفقة والمهر . وإذا آل الميراث إلى البنت لعدم وجود أخ لها ذكر ، لم يجز لها أن تتزوج من سبط أخر ، ولا يحق لها أن تنقل ميراثها إلى غير سبطها .[٢]

وكانت المرأة وهي في المحيض نجسة في البيت ، فكل ما تلمسه من الطعام أو كساء أو حيوان ينجس وإذا ولدت المرأة في الشريعة اليهودية تبقى سبعة أيام غير طاهرة ، ثم تمكث لاستكمال طهارتها ثلاثة وثلاثون يوما بعد الولادة ويحظر عليها دخول المعابد مدة أربعين يوما . وإذا وضعت الأم أنثى فيلزمها ضعف المدة .[٣]

---

١ ــ محمد متولي الشعراوي . المرأة في القرآن الكريم ص ١٠

٢ ــ انظر عصام المرستاني ومحمد الحسناوي : عالم المرأة وهموم المرأة المعاصرة ص ١١ .

٣ــ انظر السيد محمد عاشور : مركز المرأة في الشريعة اليهودية ص ص ٢١ – ٢٢ .

وانظر حسين عبد الحميد أحمد رشوان : علم اجتماع المرأة ص ص ٢٠ – ٢١ .

في الشريعة المسيحية :

انتهجت الشريعة المسيحية طريق التسامح والعفو ، وجعلت القلب بديلا للعقل ، والنية الطيبة بديلا للعدل الظاهري ، والخير أساس الأخلاق والفضيلة ، يقول سيدنا عيسي عليه السلام : احبوا أعداءكم ، وباركوا من يلعنكم ، واعملوا الخير لمن يبغضكم ، وصلوا لمن يسيئكم أو يغدر بكم " .

وقد نادي آباء الكنيسة بنظرية السيفين ، ومؤداها أن الله خلق لحكم هذا العالم سيفين أحدهما ديني والآخر زمني ،وأنه سلم أحدهما للبابا والآخر للإمبراطور ، والسيف الروحي هو كلمة الله ، وتستخدمه الكنيسة لعقاب كل مرتكب للخطيئة ٠ أما الآخر وهو سيف مادي فتستخدمه السلطة الزمنية لعقاب من يسلكون سبيل الشر ٠

وجاءت المسيحية بفكرة المساواة بين الأفراد ، فليس هناك أغنياء وفقراء، وسادة وعبيد ، وأحرار وأرقاء ٠

والزواج في المسيحية عقد مقدس يربط بين رجل واحد وامرأة واحدة ، ولا يفرق بينها إلا الموت ٠ ولا يفسخ هذا العقد إلا لعلة الزنا ، والمهر يعتبر ثانويا في الزواج المسيحي ، إذ أن الزوج لا يدفع المهر إلا طبقا للعادات المحلية ٠ وتحرم المسيحية تعدد الزوجات ٠

وتجعل الكاثوليكية للعزوبية قيمة دينية كبيرة ، جاء في الإصحاح السابع من رسالة بولس الرسول الأول إلي أهل كورنثوس " من زوج فحسنا يفعل ، ومن لم يزوج يفعل أحسن " كذلك تحرم الكاثوليكية علي القسيس الكاثوليكي الزواج ٠

وقد تبين أن المتزوجين من الكاثوليك أقل عدداً منهم بين البروتستانت – فقد صنعت دراسة محلية في غضون سنه ١٩٣٠ – ١٩٣٣ في ثلاث مدن أمريكية هي بروكلن ، وسيراكيوز ، التابعتان لحكومة نيويورك ، وكولومبوس التابعة لحكومة أوهيو – تناولت ١٢٥٠٠ أسرة من العرق الأبيض تبين منها أن نسبة المتزوجين في سن ٣٠ – ٣٤ عند الرجال هي ٦٥ % عند الكاثوليك ، و٧٨% عند البروتستانت ، وعند النساء ٦٦% ، و ٨٠% . [١]

كذلك يمنع الدين المسيحي الزواج خلال الصوم الكبير وقبل عيد الميلاد Avent، ألا أنه قل اليوم الانتباه إلي الزمن السابق للميلاد ، وبقي الاعتبار للصوم الكبير ولا سيما أواخره • لذلك نجد شهر آذار (مارس) عند الأوروبيين تقع فيه النهاية الصغرى لعقود الزواج • كما أن النهاية العظمى للزواج واقعة غالبا في المجتمعات المسيحية بنيسان (إبريل) بعد الخروج من الصيام أي هي قريب من عيد الفصيح •

وقد أخذت المرأة بعض حقوقها الاجتماعية والاقتصادية اعتمادا على تعاليم الدين المسيحي الروحية والخلقية • فقد دعا المسيح عليه السلام إلي المساواة بين البشر لا فرق بين ذكر وأنثى ، وكان عليه السلام برا بالنساء عطوفا عليهن •

ومع هذا ظلت أوربا المسيحية ، كما كانت أوربا الوثنية تزدري المرأة شر ازدراء ، ولم تكن تنظر إلي صلاتها بالرجل علي أنها صلات ذكورة وأنوثة وكفي ، بل علي أنها صلة عبودية ورق ومهانة •

١– د• عبد الكريم اليافي • في علم السكان ص ١٧٤

يقول القديس بولس : المسيح سيد الرجال ، والرجل سيد المرأة . الرجـــل لم يخرج من ضلع المرأة ، ولكنها هي التي خرجت من ضلع الرجل • الرجل لـم يخلقه الله للمرأة • المرأة خلقها الله للرجل • ويقول القديس أوغسطين : الرجـــل سيد والمرأة عبد • إنها إرادة الله التي جعلت سارة تطيع إبراهيم وجعلته ســـيدها فزوجاتكم عبيد لكم ، وأنتم سادة لهن • وروت فلسفة الكنيسة أن " الرجل ينتمـــي إلي نفسه والمرأة تنمي إلي الرجل ". [١]

ومن المفكرين الذين عادوا المرأة عـــداء شـــديدا الفيلســـوف المســـيحي اللاهوتي الإيطالي توما الاكويني (١٢٢٥ - ١٢٧٤ م) الذي كان يقـــول :" أن المرأة خلقت دون الرجل كمالا حتى علي صعيد النفس بـــالذات وهـــي ملزمـــة بطاعته لأنه أكثر رؤية وتعقلا منها • لا وجود في الحقيقة إلا لجنس واحـــد هـــو الجنس الذكر ، وما المرأة إلا ذكر ناقص • ولا عجب إن كانت المـــرأة ، وهـــي الكائن المعتوه والموسوم بميسم غباء قد سقطت في التجربة ، ولذلك يتعين عليـــها أن تظل تحت الوصاية •

ونورد هنا الأخلاق عند بعض فلاسفة المسيحية •

القديس أوغسطين (٣٥٣ - ٤٣٠ م)

ولد بتجستي في شمالي أفريقيا لأب وثني وأم مسيحية ، فشب أول الأمر علي وثنية أبيه ، لكن اعتنق المسيحية وهو في الرابعة والثلاثين • ودافع عن الكنيسة دفاعا قويا جعله في العالم المسيحي بمنزلة الإمام •

١- انظر د• محمد حسين هيكل • حياة محمد ص ٢٨٠

وانظر أنيس منصور شباب - شباب ص ٥

أيقن أوغسطين بوجود العقل فالشك فيه هو نفسه تفكير عقلي ، ووجـــــود العقل في الإنسان دليل علي وجود الله ، وإلا فمن أين تأتي للعقل مقاييســـه التـــي يميز بها بين الحق والباطل ؟ أنها بالطبع لم تأت من العالم الطبيعي عـــن طريـــق الحواس ، لأن المعرفة الحسية كلها موضع شك من العقل حتى يثبتها أو ينفيـــها . إن مصدرها هو الله . ويرى أوغسطين أن السبيل إلي الخير الأسمى هو الاتحـــاد بالله بواسطة التأمل . وأقوى دافع إلي الخير والفضيلة هو الحب ، حب الله وحـــب الإنسان .

ويرى أوغسطين أن الحياة الاجتماعية تقوم فـــي نشـــأتها علـــي مبـــادئ القانون الطبيعي ، غير أنه نظرا للخطايا التي وقعـــت فيـــها ذريـــة آدم وعبثـــهم بأصول العقل والأخلاق ، أصبح القانون الوضعي ضرورة اجتماعية . ومن هـــذه الضرورات استحدثت السلطة الزمنية دعائمها .

ويقول أوغسطين أن الله تعالي قد أودع في قلوب بعض الأفـــراد محبـــة الذات ، وفي قلوب البعض الآخر محبة الله . وهكذا أصبحنا أمام طـــائفتين مـــن الناس : أهل مدينة الله أو السماء ، وأهل مدينة الدنيا أو الأرض . وللأولى نعيـــم خالد ، وللثانية حياة الرذيلة وعذاب الآخرة .

ويضيف أوغسطين أن تـــاريخ البشرية ســـجل للصـــراع بيـــن هـــاتين المدينتين ، وأن هذا الصراع ما يزال قائما ، إذ أن مجتمع الخير ومجتمـــع الشـــر يختلطان في كل مكان . ومن ثم فإنه لا سبيل إلي وحدة المجتمع إلا فـــي وجـــود الدولة المسيحية . وهو ما يعني أن الدولة من وجهة نظره هي الســـلطة الزمنيـــة للكنيسة .

ودرس أوغسطين نظام الملكية الفردية ، وأرجع حقها إلي الذات الإلهية ، فالله هو المالك الحقيقي ، والملكية ليست حقا وضعيا ، وليست حقا وطبيعيا ، ولكنها تقوم علي السلطة المدنية ، وتنحدر من أصل قدسي ، ولذا يجب علي الدول حمايتها وإقرارها ، وإقرار ما يؤدى إليها من بيع وشراء وبدل وهبة وإرث وغير ذلك . وعلي الحكومة أن تحارب وسائل التملك غير المشروعة : كالسرقة والاغتصاب .

ودرس أوغسطين ظاهرة الرق ، واعتبرها نظاما طبيعيا ، وأقر ظاهرة الحرب ، واعتبرها ظاهرة لا غني عنها في الحياة الاجتماعية . و ما دامت كذلك فيجب أن تسودها الرحمة ، وتنتفي فيها مظاهر التنكيل والعبودية .[١]

سالسبرى Sailislury

(١١١٥ - ١١٨٠ م)

قس إنجليزي ، اهتم بموضوع التمييز بين وظائف الدولة والكنيسة . وفي رأيه أن رجال الدين فوق رجال السياسة وأكثر منهم ضرورة للمجتمع . ويجب علي الساسة أن لا يتعدوا سلطاتهم المحدودة ، والتي إذا تعدوها فإن علي أفراد المجتمع أن يثوروا ضدهم ويخرجوهم . علي أن الحكومة المدنية ضرورية لكبح جماح الشريرين .

القديس توماس الالكويني

(١٢٢٥ - ١٢٧٤)

فيلسوف ولاهوتي إيطالي ، من أشهر ممثلي الفكر الكاثوليكي . ولد لأسرة ذات نفوذ اجتماعي وسياسي . وانتظم في رهبنة دمينكان عام ١٢٤٤

---

١ - د. مصطفى الخشاب : علم الاجتماع ومدارسه - تاريخ الفكر الاجتماعي ومدارسه ص ٧٨ .

ثم عين أستاذا في جامعة باريس (١٢٥٢ - ١٢٥٩) ، ثم سافر إلـــي إيطاليـا ، حيث علم عدة سنين ، ثم عاد إلي باريس.

أكد الإكويني استقلال الدولة عن الكنيسة ، فهي تنظيـم وجـد لمسـاعدة الكنيسة وإقامة النظام والأمن بما يكفل للناس بلوغ هدف الخلاص . وتفسير ذلـك أن السلطة العليا في المجتمع إنما تصدر عـن الله ، وأن الله يكلـها إلـي أفـراد الشعب، ومن ثم تأتـي السلطة السياسية بعد السلطة الدينية .

والحكومة في نظره قد تكون صالحـة أو فاسـدة ، عادلـة أو ظالمـة . والحكومة الصالحة هي التي يتوخى حكامها الصالح العام ، وتصبـح فاسـدة إذا توخي الحكام مصلحتهم الخاصة ، والأولى هي حكومة الأفراد ، والثانيـة هـي حكومة العبيد والأرقاء .

وأوصي الإكويني رجال القضاء بأن يرجعوا إلي ضمائرهم عند الفصـل في القضايا باعتبارهم أعضاء في مجتمع لا باعتبارهم موظفيـن فـي الدولـة . والجـزاء في نظرة يؤدي وظيفة أخلاقية ووظيفة اجتماعية . ووظيفته الأخلاقيـة تأديب المجرمين ، ووظيفته الاجتماعية إقرار العدل ، وسيادة الطمأنينة .

وفي التربية ألف الإكويني كتابا عن " المعلم " عالج فيه مسـائل التربيـة والتعليم الأساسية ، وقال : إن المعلم يجب أن يتحلى بصفات سامية أخلاقية فـي الدرجة الأولي ، كما أنه يحتاج إلي فكر مثقف ، وإلي معلومات واسعة، ومعرفـة بالروح الإنسانية ، وطرائق العقل في تحصيل العلم .

وعرض الأكويني لظاهرتي الملكية والرق ، واعتبر الملكية ظاهرة جائزة شرعا ، فهي اصطلاح اجتماعي نافع يحقق الخير العام ٠ وهي ليست شروا في ذاتها ، وإنما الشر في الاستئثار بالمنافع وحرمان الفقراء ، إلا أنه قرر أن الفقر إذا أصبح عاما ، فإن الأشياء يجب أن تصبح عامة وملكيتها تصبح مشتركة٠ واعترف الإكويني بنظام الرق ، وسلم بأنه يؤدى وظيفة اجتماعية ٠

الفصل السادس

الأخلاق عند المسلمين

الأخلاق في الجاهلية :

طبعت الصحراء في الجزيرة العربية التي تجمع بين الحر الشديد والبرد الشديد ، والتي يجودها المطر أحيانا ، وتتعاقب فيها الأحداث الجوية من النقيض إلى النقيض فجأة ، طبعت العرب بطابعها العميق . ففي حياتهم الشدة والجفاء والغلظة ، وفيها أيضا اللين والرضا ما كانت الحياة طيبة والكرامة موفورة ، وفيها كذلك الغضب إذا دنى منهم الشر .

ويعيش العربي في نطاق محدود بجزيرته ، ولذلك كان محدود الخيال، فلم يحاول أو لم يستطع أن يفكر في حياة خيرا من حياته التي يحياها ، ولم يحاول أو لم يفكر أن يكون له مثل أعلى ، ولم يحاول أو لم يتهيأ له الأسباب التي تجعل منه فيلسوفا .

وقد عرف عرب الجاهلية شيئا عن النفس الإنسانية ، وما فطرت عليه من طبائع . كما أنهم تطبعوا بدافع الفطرة السليمة إلى كثير من الفضائل التي كانوا يتواصون بها ، ويفخرون بتوارثها .

وتمثلت المثل العليا عند العرب في " المروءة " و" الرأفة " و" الرحمة ". وهي تقوم على الشجاعة في القتال ، والصبر على الشدائد ، والإصرار على الثأر ، وحماية الضعيف . كذلك نجد الكرم والإيثار كما نجد السلب والنهب. وترجع فضيلتا الشجاعة والكرم في هذه البيئة الصحراوية إلى حياة العربي غير المستقرة أو المطمئنة .فحياتهم كانت تتعرض لقسوة الطبيعة ، والتقلب بين شظف

العيش ونعيمه ، مما يدفعهم إلى تقدير الشجاعة والكرم ، إذ كانا أهم وسائل الحيلة والدفاع .

ومن مثل العرب في الجاهلية الوفاء بالعهد ، والإخلاص ، فعلى الرغم من أن البدوي لا يتردد في الإغارة وسلب ممتلكات القبائل الأخرى ، إلا أن هناك إخلاصا كبيرا في الحفاظ على الودائع والأمانات .

وعن المثل العليا وكما يقول اكثم بن صيفي ، وقد عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام : الصدق منجاة ، والكذب مهواة ، والشر لجاجة ، والحزم صعب، والعجز مركب وطئ ، آفة الرأي الهوى ، وخير الأمور الصبر ، وحسن الظن ورطة ، وسوء الظن عصمة . [١]

الأخلاق عند المسلمين

تتميز الأخلاق الإسلامية عن الأخلاق التي تبنتها الفلسفات اليونانية ، فللإسلام نظامه الأخلاقي وفضائله المميزة عن الأخلاق الفلسفية ، فغاية الأخلاق في الإسلام ليست اللذة أو السعادة ، بل السعادة الأخروية من خلال المنفعة العامة الدنيوية التي تصون الروح وتعني بالجسد . ومعيار الفضيلة هنا ليس الوسط الأرسطي ، وإنما تناسق خلقي بين الرياضيات المتباينة الدرجات .[٢]

---

١ — انظر محمد يوسف موسى : فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلتها بالفلسفة الإغريقية ، مع مقالة في الأخلاق في الجاهلية والإسلام قبل عصر الفلسفة ص ص ١٢ - ٣٩.

٢ — انظر أحمد عبد الحليم عطية – الأخلاق في الفكر العربي المعاصر ـ دراسة تحليلية للاتجاهات الأخلاقية الحالية في الوطن العربي . ص ١٨٧ .

وأخلاق المسلمين نابعة من القرآن والسنة والإجمـــاع والقيـــاس . وقـــد راعى رسول الله صلي الله عليه وسلم الآداب ، فكان مثالا أعلى لـــــها ، وعمـــل على تأديب أمته لها . وقد أثنى الله تعالى عليه في قوله :

" **وإنك لعلى خلق عظيم**" (القلم ، الآية : ٤) ومن حديثـــه (ص) : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق " .

ولقد جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين يديه ، فقـــال يا رسول الله ، ما الدين ؟ قال : حسن الخلق ، فأتاه من يمينه ، فقال : يا رســـول الله ، ما الدين ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من شماله ، فقال : يا رسول الله مـــا الدين ؟ فقال : حسن الخلق ، ثم أتاه من ورائه ، فقال : يا رسول الله ؟ ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال : أما تفقه ؛ هو أن لا تغضب . وقيل لرسول الله : ما الشؤم ؟ قال سوء الخلق .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أوتي بسبايا طيء وقعـــت جارية في السبي فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحيـــاء العرب فإني بنت سيد قومي ، وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ، ويطعم الطعام ، ويفشي السلام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، وأنا ابنة حاتم الطائي . فقال عليه السلام : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقا ، ولـــو كـــان أبوك مسلما لترحمنا عليه ، خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخـــلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق . فقام أبو بردة بن نيار فقال يا رســـول الله : الله يحـــب مكارم الأخلاق ؟ فقال : والذي نفسي بيده ، لا يدخل الجنة إلا حسن الأخلاق .

وإذا تحدثنا عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم وجدنا أنفسنا أمام سيل هائل من الفضائل والمكارم الأخلاقية . فمن أخلاقه الصدق والأمانة التي كان متحليا بها قبل وبعد البعثة .فكان أهل مكة يقولون : جاء الصادق الأمين وذهب الصادق الأمين .وقد سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : هل جربتم عليه كذبا ؟ فقال أبو سفيان : ما جربنا عليه كذبا إنما هو الصادق الأمين . وكان أبو سفيان لم يسلم بعد .

وقيل لعائشة : كيف كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم في أهله ؟ قالت : كان أحسن الناس خلقا ، لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا في الأسواق - لا يرفع صوته ، ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن يعفو ويصفح .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم متزهدا . وكذلك كان آل الرسول وأزواجه وأصحابه مقتدين به في تزهده . ويذكر لنا أبن المبارك عن الشعبي قوله : " كان فراش على بن أبي طالب يوم دخل بفاطمة - رضي الله عنها - جلد كبش " .

وقد زهد الرسول عليه الصلاة والسلام في المال - يقول (ص) في هذا المعنى : " أتاني جبريل عليه السلام بمفاتيح خزائن الأرض ... فوالذي نفسي بيده ما بسطت إليها يدي " ولو علم الرسول (ص) أن المال غاية الإنسان لبسط يده إلى مفاتيح خزائن الأرض ، ولو علم أن فيها خيرا له ولأمته ما تركها أبدا ، وبسط يده عليها وأخذها ونعم بها وصحابته وأمته .

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها وهي تصف الحياة المعيشية في بيت الرسول (ص) الذي عرض خزائن الأرض . تقول : " كان يأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله (ص) مصباح ولا غيره ٠٠٠ وقد سئلت عائشة فيما كنتم تعيشون ٠٠٠ ؟ قالت : بالأسودين : (التمر والماء) .

وكان صلى الله عليه وسلم متواضعاً . فعن أنس بن مالك قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود المرضى ، ويشهد الجنازة ، ويلبي دعوة الملوك ، ويركب الحمار . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم متحلياً بخلق الحياء ، والحياء خلق يمنع من الرذائل .

وكان قلبه عليه الصلاة والسلام يفيض بالرحمة ، فعن أنس أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال : إني لأدخل الصلاة وأنا أريد أن أطيلها ، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز - أي أخفف في الصلاة - في صلاتي ما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه . "

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله خادماً له قط . ولا امرأة له قط وما ضرب بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله ٠٠٠ وما عرض عليه أمران : أحدهما أيسر من الأخر إلا أخذ بأيسرهما ما لم يكن إثماً . فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه ". [(١)]

(١) أنظر الشيخ / عبد اللطيف محمد عمارة . التربية بالقدوة الحسنة أعظم من التربية بالكلمة ولها تأثير بالغ. عن مجلة المجاهد ، العدد ٢٠٣ في يوليو ١٩٩٧ ص ١٥ .

ومن أظهر ما تخلق به المصطفى (ص) : حسن المعاشرة ، وكرم الضيفة ، ولين الجانب ، وبذل المعروف ، وإطعام الطعام ، وإفشاء السلام والابتداء به ، وحسن الجوار ، والإصلاح بين الناس ، والسماحة ، وعيادة المريض ، وتشييع جنازة المسلم ، وتوقير ذي الشيبة ، وكظم الغيظ ، والعفو عن الناس ، واجتناب الغيبة ، والكذب ، والشح ، والجفاء ، والمكر ، والخديعة ، والنميمة ، وقطيعة الأرحام ، والتكبر ، والفجور ، والاحتيال ، والاستطالة ، والبذخ ، والفحش ، والتفحش ، والحقد ، والحسد ، والبغي والعدوان والظلم .(١)

وكان من حديثه صلى الله عليه وسلم أنه قال " أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها ، أوصاني بالأخلاق في السر والعلانية ، والعدل في الرضا والغضب ، والقصد في الغنى والفقر ، وأن أعفو عمن ظلمني ، وأعطي من حرمني ، وأصل من قطعني ، وأن يكون صوتي فكرا ، ونطقي ذكرا ، ونظري عبرة " .

وقد أفهم النبي (ص) قومه وعشيرته ألا دوام لملكهم إلا بالخلق وحده . فإذا أردنا أن يحترمنا الناس ، فلنحترم أنفسنا ، ولنسير بأخلاقنا إلى حيث أراد الله أن نكون خير أمة أخرجت للناس .

هذه بعض أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعلينا نحن المسلمين أن نتخلق بأخلاقه ، وأن نقتدي به في سلوكه وأفعاله . أما إذا سقطت الخلق سقطت الدولة معه .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت : فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

---

(١) انظر أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين . الجزء السابع ص ص ٩٩ – ١٠٠ .

وغاية الأخلاق عند فقهاء المسلمين أن تصدر الأفعال عنها بلا كلفة ، ولكن بصناعة وترتيب تعليمي ـ أي بفهم لما نفعل ولأسباب ما نفعل .

الفضائل في الإسلام

تشتق كلمة فضيلة في اللغة العربية من الفيض . وهي حالة كمال النفس تناولها إذا اعتدلت ، وكانت وسطا ، فلم تجنح إلى الإفراط أو التفريط . فالنفس إذا غالت في الترهبن والعزلة بدعاوى التزهد في الدنيا ، وزعمت أنها تبتغي دار الآخرة فلا تجتهد ولا تجاهد في الدنيا ، فإنها تظلم نفسها ، وقد خرجت عن الوسط العدل ، والخير الفاضل في الدنيا والآخرة .

ويتبين من ذلك أنه من الواجب اتخاذ طريق الوسط العدل ، فهو المواكب للطبيعة الإنسانية . ففي قوله تعالى : "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس " (البقرة ، الآية : ١٤٣) ، "و لا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك و لا تبسطها كل البسط "،(الإسراء ، الآية :٢٩)"ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا "، و" فاستقم كما أمرت " ، "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما" ، "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا " وهذا الكمال إذا تم للنفس قربت من الله عز وجل .

وقد عرف المسلمون أصول الفضائل ، فأصولها : الحكمة ، والشجاعة والعفة، والعدالة . وكل فضيلة من هذه الفضائل تنطوي عنها فضائل أخرى .فمن الحكمة يكون حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقافة الرأي . ومن الشجاعة يكون

الكرم ، والشهامة ، والاحتمال ،وكظم الغيظ ، ومن العفة يكون الحياء ، والقناعة، والورع ، والصبر . على أن العدالة جماع كل فضيلة ، والجور جماع كل رذيلة.

الخير والشر

عرفت النفس الإنسانية كما تدل بعض الآيات القرآنية في تكوينها معنى الخير والشر . يقول تعالى : " **ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها**".وأصل النفس الإنسانية الخير ، فهي ذات أصل طيب قال تعالى : " **ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم** " إلا أن عدم استخدام الإنسان للقوى والمواهب التي أودعها الله في قلبه هي التي أفسدت الإنسان قال تعالى : " **لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل**".

وهكذا عرفت النفس الإنسانية طريقي الفضيلة والرذيلة والخير والشر . يقول تعالى : " وهديناه النجدين " فالطبيعة الإنسانية قد تدفع إلى الخير ، وقد تندفع إلى الشر : إن النفس لأمارة بالسوء .

وقد روى الحسن قال رسول الله عليه وسلم : " إذا أراد الله بقوم خيراً ولى أمرهم الحكماء ، وجعل المال عند السُّمَحاء ، وإذا أراد الله بقوم شرا ولى أمرهم السفهاء ، وجعل المال عند البخلاء " .(أبو داود) .

ورأى العرب المسلمون أن من الخير أن يعرف المرء الشر فيحذره ، ولا يقع فيه ، قيل لعمر بن الخطاب : إن فلاناً لا يعرف الشر . قال : ذلك أحرى أن يقع فيه .

الاعتصام بحبل الله :

أمر الإسلام باجتماع الكلمة بالاعتصام بحبل الله . يقول تعالى : "**واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** " (آل عمران ، الآية : ١٠٣) ، فإذا اختلفت الآراء حول أمر اجتهادي وجب السير مع الجماعة " يد الله مع الجماعة ومن شذ شذ إلى النار " (الترمذي) . وألزم الإسلام الإنسان أن يسأل أهل العلم بالشيء الذي يجهله ، ويتطلع إلى معرفته ، وقال تعالى " **فسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون** " (النحل ، الآية : ٤٣) .

وعاب الإسلام على الذين يتبعون الظن ولا يتحققون فيما ينقلون أو يحكمون ، فقال تعالى : " **هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون** " . (الأنعام ، الآية : ١٤٨) .أما الذين يستمعون إلى أقاويل السوء فينشرونها من غير تحقيق ولا يرجعون إلى حسن الظن والتثبت في اتهام الناس فقد أنبهم القرآن في قصة الإفك أشد تأنيب . ومن قوله تعالى في ذلك :" **ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا إن كنتم مؤمنين**" .

الشورى :

تعتبر الشورى من أهم المبادئ التي تقوم عليها الديموقراطية ، وهي حكم الشعب ، وذلك بمعنى المشاركة الشعبية ، والرقابة الشعبية ، أو الإشراف على أعمال الحكومة . وذلك من أجل أن تقوم الأحكام على الرضا الشعبي .

وقد جعل الإسلام الشورى أساسا من أسس الحكم ، ونص على ذلك القرآن ، في قوله تعالى : " **وأمرهم شورى بينهم** " .(الشورى ، الآية : ٣٨)

ويقصد بأمرهم هنا كافة الأمور ذات الطابع العام . أما بينهم فتشير إلى المجتمع عامة . وفي سورة آل عمران يقول تعالى : " **وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله** " .(الآية :١٥٩) .

هذا هو أساس السلطان الذي لا يجور ولا يستبد . ويسري أمر الشورى على كافة مجالات الحياة السياسية . وقد أكد الإسلام على ضرورة اتخاذ القرار النهائي من جانب المسئول . ويتمثل ذلك في قوله تعالى : " **فإذا عزمت فتوكل على الله** " .

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

حثت التربية الإسلامية على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حتى لا يتورط الناس في المعاصي ، ونقضي على كل فساد في المجتمع ، وتربط العلاقات الاجتماعية في رباط من الخير والمعروف ، وتقوى بذلك الأخوة في الله، ويترعرع الشباب في ظل مجتمع آمن .

ويظهر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في جميع العلاقات الاجتماعية ، بين الأب وأبنه ، وبين الابن وأبيه ، وبين الزوج وزوجته ، وبين الأرامل ، وفي الأسرة ، وفي المجتمع ككل ، بل وفي كل جانب من جوانب الحياة. ففي القرآن الكريم : " **الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** " (التوبة ، الآية : ١١١) . " **وعاشروهن بالمعروف** " (النساء ، الآية : ١٩) .

وتحقق هذه القاعدة الأخلاقية توازن الإنسان ، ويعرف حقوقه وواجباته نحو نفسه ومجتمعه وربه .

الحرية

تعني الحرية في الحدس العربي الاختيار (من الخير) ، والاصطفاء (من الصفا) . أي يتضمن معناها الانطلاق والحرية ، بل إنها غاية مرتقى الحياة.وفي جو كهذا ينعم الجميع بالحب والفضيلة .

والحرية عكس العبودية ، والصراع بينهما قديم قدم الإنسانية . فمن أجل الحرية خاضت الشعوب معارك عديدة ، ومن أجل الحرية تضحي الشعوب بشهدائها وأموالها ، ومدنها وبيوتها ، ومن أجل الحرية وقعت الحروب . وتتعدد الحريات ، فهناك حرية العقيدة ، والحرية الفكرية ، وتحقيق مبدأ المساواة .

حرية العقيدة :

لا يرغم الإسلام أحدا على ترك دينه ، واعتناق الإسلام . وفي هذا يقول الله تعالى : " **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي** " .

الحرية الفكرية :

منح الإسلام كل فرد الحق في إبداء رأيه ، وفي النقد والتقويم . كما أن لكل فرد الحق في تقرير ما يراه في حدود الظواهر الطبيعة والإنسانية . فالإسلام لم يحاول أن يفرض على العقول أية نظرية علمية معينة بصدد هذه الظواهر .

ولكنه حاول أن يستحث العقول على النظر في ظواهر الكون وحفز الناس على التأمل في هذه الشئون واستنباط قوانينها العامة .[١]

مبدأ المساواة :

وقرر الإسلام مبدأ المساواة بين البشر ، فهم متساوون كجنس واحد من حيث المنشأ . " **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة** " وهم أيضا متساوون في الحقوق والواجبات أمام القانون ، وبدون تفرقة .

ولنلاحظ أن الحرية المطلقة هي الفوضى ، فالحرية تحكمها شروط اجتماعية ، ومفهومها وحدودها هي محصلة الصراع بين قوى مختلفة في المجتمع . ونفرق بين الحرية والفوضى على أساس أن الحرية هي استعمال حقك بحيث لا يطغي على حق الآخرين . أما الفوضى فهي طغيان حقك على حق الآخرين .

ولضمان الحرية . تشرع القوانين والأنظمة ، وتتنزل الشرائع والديانات ، وكل خروج عليها عدوان على الحرية المنظمة ، وفتح باب للفوضى التي تطغي على الحريات والحقوق .

وقد ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلا من أروع الأمثلة ، يبين الحد الفاصل بين الحرية والفوضى ، بقوم كانوا في سفينة ، وكان بعضهم في أعلاها وبعضهم في أسفلها ، وكان الذين في أسفلها يأخذون الماء من فوقهم ، فقالوا : لماذا لا نخرق في مكاننا خرقا نأخذ منه الماء من البحر رأسا ؟ ...

---

١ ـ انظر د. على عبد الواحد وافي . حقوق الإنسان في الإسلام ص ٦٢ .

يقول عليه الصلاة والسلام : فإن وما أرادوا هلكوا جميعـــا ، وإن أخـــذوا علـــى أيديهم نجوا ونجوا جميعا (رواه البخاري والترمذي)

وعلى ذلك نرى هؤلاء أن يستعملوا حريتهم فيما يخصهم ، ولكنهم يجــب أن يمنعوا من استعمالها إبقاء على السفينة ومن فيها .

ويتبع فضيلة الحرية حقوق ، نذكر منها حق الحياة . وهو حق مقــدس لا يحل انتهاك حرمته . يقول الله سبحانه وتعالى : " **ولا تقتلوا النفس التي حـــرم الله إلا بالحــق** " (الإسراء ، الآية : ٣١)

ويقول سبحانه وتعالى: " **ولا تقتلوا أولادكـــم خشـــية إمـــلاق نحـــن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأ كبيرا** " (الإسراء ، الآية : ٣١) .

وحرص الإسلام على حماية النفوس ، وهدد من يستحلها بأشــد عقوبــة فيقول تعالى : " **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب اللـــه عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما** " (النساء ، الآية : ٩٣) .

ويقول رسول الله صلى الله علية وسلم " **لزوال الدنيا أهون على الله مـــن** قتل مؤمن بغير حق " . (ابن ماجه بسند حسن) .ويقول أبن عباس رضـــي الله عنهما : " لا توبة لقاتل مؤمن عمدا ".

والقتل هدم لبناء إرادة الله ، وسلب لحياة المجني عليه ، ويســـتوي فـــي التحريم قتل المسلم والذمي وقاتل نفسه . فقد روى البخاري عـــن عبـــد الله بـــن

عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " من قتل معاهدا ، لم يُرَحْ رائحة الجنة ، وإن ريحها يوجد من مسيرة أربعين عاما.
وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن رسول الله (ص) قال : من تردى (التردي : السقوط أي أسقط نفسه متعمدا مثلا) ، من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها أبدا ، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمّة في يده يتحاساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ (يضوب بها نفسه) بها في نارِ جهنم خالدا فيها مخلدا فيها أبدا .

وقد اعتبر الإسلام القاتل لفرد من الأفراد كالقاتل للأفراد جميعا . يقول سبحانه وتعالى : "أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا".[1]

الصدق

الصدق أساس الفضائل النفسية ، وضرورة من ضرورات الاجتماع وقد خلق الله السماوات والأرض بالحق ، وطلب من الناس ألا يقولوا إلا بالحق ، ولا يعملوا إلا بالحق ، ولذلك كان الزعيم الصادق أنجح الزعماء ، وأكثرهم أتباعا، والتاجر الصادق أكثر التجار زبائن وأكثرهم ربحا . ولعل أصدق ميزان لرقي الأمم هو صدق أفراد الأمة . يقول الله تعالى : " يا أيها الذين ءامنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين " . (التوبة ، الآية : ١١٩) .

ومن هنا كان الاستمساك بالصدق في كل شأن ضرورة ملحة لخلق المسلم ، وسمة أساسية في سلوكه . لذلك كان بناء المجتمع في الإسلام قائما على محاربة

١ - السيد سابق : فقه السنة . المجلد الثالث ص ص ٦ -٨ .

الظنون والإشاعات وما هو محل ريب . وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث " .(البخاري) وقال كذلك : "يطبع المؤمن على الخلال كلها إلا الخيانة والكذب " وقال أيضا :" كبُرَت خيانة أن يحدث أخاك حديثا ، هو لك مصدقا وأنت له كاذب " . (البخاري) .

والصدق عكسه الكذب ، والذي هو رذيلة تنبئ عن تغلغل الفساد في نفس صاحبها ، وعن سلوك ينمو نحو الإثم . ومن أشكاله كذب السياسي على شعبه ، وكذب الرئيس على أمته ، وكذب الحزب على أتباعه ، وكذلك النائب على من أنتخبه ، وكذب العالم على العامة ، وكذب التاجر على زبائنه ، وكذب الصديق على صديقه .

ومن أخبث صور الكذب شهادة الزور ، وقد عدها رسول الله صلى الله عليه وسلم من أكبر الكبائر ، وقرنها لذلك بالشرك ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس . وقدْ وصف الرحمن عباده بأنهم " **لا يشهدون الزور** " (الفرقان ، الآية:٧٢).

لو صدق هؤلاء جميعا لاستقامت الحياة .(١)

الصبر :

من الواضح أن حياة الإنسان على هذه الأرض مليئة بالمتاعب والمشقات. وهي تشبه رحلة في بحر متغير الأنواء مضطرب الأمواج . رحلة محفوفة بالمخاطر والمعاناة حتى يصل الإنسان إلى بر النجاة . يقول تعالى :" يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه " "الانشقاق ، الآية : ٨٤) .

١- انظر محمد الغزالي : خلق المسلم ص ص ٣١-٣٤ .

ولعل الصراع مع الشر هو الذي يجعل حياة المؤمن أطيب وأعمق متعة؛ لأن مقاومة الشر تجعل للحياة معنى وهدفا ، وهو العمل على انتصار الخير في النهاية .

وتحتاج العبادات كلها إلى قدر من الصبر والاحتمال في أدائها ؛ ولذلك يقول الله تعالى :"**وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها** " (طه الآية : ٢٠) . ونجد الصبر في القرآن يقترن بالأعمال الصالحة لاحتياجها إليه ، لقوله تعالى : "**إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات** " (هود ، الآية : ١١) .

ويقترن الصبر بوجه خاص بالدعوة إلى الله كما في قوله تعالى :"**وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا**" (السجدة ، الآية : ٣٢) .وقد وصف القرآن الكريم المؤمنين بأنهم يصبرون في البأساء والضراء وحين البأس ، في كل حالات الشدة ، ولا سيما في حالة القتال . يقول تعالى :" **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** " (البقرة ، الآية : ٢) .[1]

العدل :

العدل هو الإنصاف ، وأن لا يضر المرء بأخيه ، فيعطيه ماله ، ويأخذ ما عليه ، ولا يحب لأخيه ما لا يحب لنفسه ؛ فكل ما عومل به ، وشق عليه ، وثقل على قلبه ينبغي أن لا يعامل غيره به . والعدل صفة من أهم صفات المؤمنين المتقين التي تنعكس في كل نواحي حياتهم النفسية والاجتماعية والسياسية . يقول الله تبارك تعالى :" **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل** " (النساء ، الآية : ٥٨) .

١ـ انظر د. أحمد عبد الحميد عراب . الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن الكريم ص ص ٩٢ ٥٣

وعلى عكس العدل – الظلم ، فهو الجور ، وتجاوز الحـد واللـؤم ، وأن تحكم بشيء للغير وليس من حقه . ويقال ظلم فلان حقه أي غصبـه ، أو نقصـه إياه .

والظلم مؤذن بخراب العمران ويستعجل عمر الدولة قبـل الأوان . وقـد حدد ابن خلدون الغاية من تحريم الشارع للظلم ، فيقـول :" وأعلـم أن الحكمـة المقصودة للشارع في تحريم الظلم هو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابـه ، وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري ؛ لأن هذا النوع لا يبقى ولا يزدهر إلا إذا قـام الشرع بتحقيق وظائفه على أكمل وجه ، وهي : حفظ النوع ، والنفس ، والعقـل ، والنسل ، والمال . ومن هنا جاءت الحكمة في تحريم الظلم وخطره "(١)

الأمانة :

الأمانة بوجه عام هي تحمل المسئولية في كل عمل يؤديـه المسـلم فـي علاقته بالله وبالناس . وانتشار خلق الأمانة في نفوس المواطنيـن مـن الأخـلاق الاجتماعية التي تدل على سمو المجتمع وتماسك بنيانه . قال تعـالى :" **إن اللـه يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلـها، وإذا حكمتـم بيـن النـاس أن تحكمـوا بالعدل**".(النساء ، الآية : ٥٨) .والأمانة عكس الخيانة ، والتي إن انتشـرت بيـن الناس ، فإنها تبعث على الشكوى والقلق وازدياد الخصومات والجرائم ، فلا يـأمن صديق صديقه ، ولا زوج زوجته ، ولا أب ولده .

١ـ انظر د. طلعت غنام : علم الاجتماع من منظور إسلامي ص ٨٩ .

والأمانة شاملة للقيام بجميع التكاليف والالتزامات الاجتماعية والأخلاقية. فهي موجودة في دائرة العقل والجسم ، وفي مجال الأسرة ، وفي دائرة المجتمع والناس جميعا ، وفي دائرة البيئة الطبيعية .

فالعقل أمانة لدى الإنسان إن عمل بمقتضاه ونظمه بالعلم والمعرفة كان قائما بحق الأمانة مؤديا لها خير أداء . والجسم أمانة ، فإن أنت غذيته وصححته ورفقت به ، ولم ترهقه بالأعمال ولو كانت عبادة كنت محسنا محافظا على الأمانة ، وفي ذلك يقول عليه الصلاة والسلام :" نفسك مطية فأرفق بها "

أما زوجك وولدك ووالداك وكل من يشترك معهم في أواصر القربى ، فيلزمك حفظهم والنصح لهم ، وهم أمانة عندك فإن راعيت حقوقهم وبذلت لهم النصح وأبعدت عنهم الأذى كنت قائما بالأمانة أحسن قيام . يقول الله تعالى :" **يا أيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا** " (التحريم ، الآية : ٦) .

وهناك حقوق للوالدين : حبهما وطاعتهما (إلا في معصية) ، وبرهما بكل صور البر والإحسان ، في الحديث والصحبة والخدمة والإنفاق والافتداء بالنفس والمال ، وحقوق الأم في كل هذا أكبر من حقوق الأب . يقول تعالى : "**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا** " (الإسراء ، الآية : ٢٣-٢٤) .ويقول سبحانه وتعالى :" **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله في عامين أن أشكر لي ولوالديك إلى المصير** " (لقمان، الآية: ١٤) .

والشعب في أيدي الحاكمين ، والمسئولين أمانة ، فإن قاموا بما يجب عليهم نحوه من نصح ورعاية وصيانة لكرامته وحريته كانوا أبناء أوفياء . في حديث نبوي شريف :" الإمام راع وهو مسؤول عن رعيته " (رواه البخاري ومسلم) ، وإلا كانوا من أغش الناس وأكثرهم خيانة . يقول (ص) " من بات غاشا لرعيته لم يرح رائحة الجنة " (الطبراني والبخاري ومسلم) .

والدين أمانة في أعناق رجال الشريعة ، إن شرحوه للناس وصانوه من التحريف والتلاعب ، وبينوا ما فيه من حق وخير وحالوا دون العدوان على شرائعه وآدابه ، كانوا أوفياء لأقدس ما في الحياة من معنى كريم ، وإن لم يفعلوا ذلك كانوا مرتكبين لأبشع صور الخيانة وأشدها خطرا يقول تعالى :" **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس و لا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبئس ما يشترون** " (آل عمران ، الآية : ١٨٧).

والعلم أمانة في نفوس العلماء ، إن وطؤوا للناس سبله ، وكشفوا في الكون أسراره ، واستعملوه في رفاهية الإنسانية وخيرها وسلامها كانوا أمناء أوفياء ، يستحقون ثواب الله وخلود التاريخ "**إنما يخشى الله من عباده العلماؤا**" (فاطر ، الآية : ٢٨)

والمال في أيدي الناس أمانة ، فإن أحسنوا التصرف به والقيام عليه وأداء الحقوق الاجتماعية فيه ، كانوا أمناء أوفياء ، لهم الذكر الجميل في الدنيا ، والنعيم المقيم في الآخرة ، وإلا كانوا خونة ظالمين " **وأنفقوا مما جعلكم**

مستخلفين فيه " (الحديد ، الآية : ٧) ، " **والذين يكنزون الذهـب والفضـة و لا ينفقونها في سبيل الله فبشـرهم بعذاب أليم** " . (التوبة ، الآية : ٣٤) .

الصحبة :

المؤمن الصادق هو الذي يتجنب الجلوس مع الهازلين . يقول الله تعالى: " **وقد نزل في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعـدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنكم إذا مثلـهم إن الله جـامع المنـافقين والكافرين في جهنم جميعا** " .

وتحث الآية على اجتناب أصحاب المعاصي ، لأن من لم يتجنبهم رضـي عن فعلهم ، والرضا بالكفر كفر . هذا فضلا عن أن الجالس مع الخائضين يجلـب لنفسه الشبهة وترك مواطن الشبهات أولى بالعقل الحكيم .

ولكن كيف السبيل إلى تجنب الخوض إذا كان الخائضون ممن يلازمـون المرء في بيته أو عمله أو ممن تفرض الضرورة عليه الاختلاط بهم . والجـواب أن شغل المرء نفسه والانهماك بما ينفع من عمل هـو سـبيل تجنـب الخـوض والخائضين ، أو الانصراف إلى قراءة جادة أو ذكر لله تعالى وتسبيح ، إذا كـان لا يستطيع أن يغادر مجلسهم . (١)

تجنب النفاق

يقول الله تعالى :" **إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لـهم نصيرا** " (النساء ، الآية : ١٤٥) . ويباعد المرء بينه وبين النفاق إذا اتبع القواعـد الآتية :

١- أنظر د. يعقوب المليجي : أخلاق المنافقين ص ص ٢٣ – ٣٥ .

١ ـــ الالتزام بالصدق :

فالكذب أكبر موارد النفاق وليسأل المرء نفســـه : لمـــاذا أكـــذب ؟ وإذا استيقن المرء بينه وبين نفسه أن الكذب لا يحقق نفعا حقيقيا وأن ضرره محـــض في الدنيا والآخرة فسوف يسارع إلى الصدق . وأكثر ما يعين المرء على الصـــدق قلة الكلام وإيثار الصمت ، كما يتعين على المرء أن يتخير الصادقين وصحبتـــهم. والله تعالى يقول :" **يا أيها الذين ءامنوا اتقوا اللـــه وكونـــوا مـــع الصـــادقين** " (التوبة، الآية : ١١٩) .وليتعود المرء على الجد في القـــول وتجنـــب الاســـتهزاء والمزاح فذاك طريق إلى الصدق ، وليذكر قوله تعالى :" **يا أيها الذيـــن ءامنـــوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومـــن يطـــع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما** " (الأحزاب ، الآيات : ٧٠ــ٧١) .

٢ ـــ ترك الطمع :

إن أعظم ما يفسد القلب شدة الطمع في قاع الحياة الدنيا ، مما يدفع المـــوء إلى ركوب أي وسيلة توصل إلى المآرب .

٣ـــ التحلي بالتواضع :

إن من أكبر ما يبتلي به الإنسان الرغبة في الظهور ونيل رضاء النـــاس وإعجابهم وتقديرهم ، وتلك الرغبة المدمرة تغري المرء بالنفاق ، فـــهو يكـــذب ، ويخون ، ويغدر ، وينتقم ، ويتحول إلى منافق يخون من ائتمنه ومـــن صادقـــه ، ويغدر بمن عاهده ووثق به .

٤ ـــ تخير الأصدقاء :

من أراد أن ينأى عن مزالق النفاق فلينأى بنفسه عن مخالطة المنـــافقين ، ولا يتخذ منهم أصحابا وأخلاء فالمرء على دين خليله .

٥ ــ عزة النفس :

أن النفاق باب لذل النفس ، والمنافق يبيع كرامتـه ويحقـر ذاتـه حيـث يحملها على الكذب والغش ، والمنافق يتملق رئيسه ويغشه ويخادعه ويكذب حيـن يبيع أو يشتري . ولو أخذ المرء عزة نفسه نهجا في حياتـه ، وصـان كرامتـه لصان نفسه عن النفاق ، ولربح في حياته وأخراه أعظم ما ينال من النفاق .

٦ ــ الإيمان بالقضاء والقدر :

يؤثر المنافق الاستعانة بالبشر على أن يستعين بالله رب العـالمين ، مـع أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا .

٧ ــ الفرد والمجتمع :

كلما خالط الفرد الناس وانغمر فيهم ، زادت علاقاتـه معـهم ، وعظـم اهتمامه بهم ، مما يوقعه في الشر وقد ينغمر في النفاق . والأولى أن يوازن المـرء بين العزلة والاختلاط فلا يسرف في هذا ولا ذاك وهو حين يخلو إلى نفسه بتفكـير وبتدبر ، ثم هو حين يخالط الناس يخطو بكياسة وحذر .[1]

بين التملق والنصيحة

ما أشد حاجتنا اليوم إلى فضيلة الصدق في النصح والجهر بالحق ، ففـي كل حكومة تقوم ، وفي عهد كل طاغية مستبد ترى المتملقين والمنـافقين يزينـون لصاحب السلطة ، أنه حبيب الشعب ، وأنه المستأثر بحب الناس وتأييدهم ٠٠٠ ولـم يعدم حاكم أو مسئول ولا رئيس منحرف من أن يجد أنصارا يصفقون له ويـهتفون باسمه ، مؤيدين مناصرين ٠٠ وبذلك استمر الفساد في حكم البلاد ، وفي الأجـهزة

---

١ - انظر نفس المرجع : ص ص ١٤٧ - ١٥١ .

الحكومية ، واستمر الطغاة في تزييف إرادة الأمة . ولو وجـــدوا النــاصح الــذي يصدق ، والألسنة التي لا تكذب ، والأقلام التي لا تستأجر ، والصحـــف التـــي لا تشري ، والشعب الذي لا ينخدع ، لا نقطع عنهم طريق الفســـاد ، ولخجلــوا مــن إدعاء مواقف البطولات .

ولا شك أن الإنسان يخطئ ويصيب ، ويستقيم ويتعثر ، ويميل مع الحـــق حينا ومع الهوى أحيانا ، فلا تغضب من صديقك إذا نصحك ، أو مـــن أستاذك إذا أرشدك ، أو من أخيك إذا دلك على عيب . فلست مهما كبرت منزلتك أكبر مـن أن تستمع للحق وتنقاد إليه .

من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :" إذا رأيت أمتي تـــهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم ".(رواه الحاكم) وعن عمـــر بـــن الخطـــاب يقول: " أيها الناس أسمعوا وأطيعوا " ، فيقوم إليه رجل ليقول له : لا والله لا نســـمع ولا نطيع ... فسأله عمر عن ذلك ، فيجيب الرجل بأنهم يشكون فيما يلبس عمـــر من ثياب ، ويطلبون لذلك حسابا عليه ، ويسألونه من أين لك هذا يا أمير المؤمنيـــن؟ فلا يضيق عمر بطلب الشعب ، ولكنه يقدم حسابه ، حتى إذا أقتنع الناس بطهارة يد عمر ، قال قائلهم . الآن سمعا وطاعة .

ويحكم عمر في قضية ، فيقوم إليه علىٌّ رضي الله عنـــه ، فـــيرد عليـــه ويبين له خطأ حتى إذا أقتنع عمر ، عدل عن حكمه ، وقال :"لولا على لهلك عمر"

وكان عمر يوماً مع أصحابه فقال له رجل : يـــا أمـــير المؤمنيـــن أتـــق الله٠٠٠ فقال بعض الحاضرين لذلك الرجل : أتقول لأمير المؤمنين ذلـــك ، فقـــال عمر دعُوه فليقلها ٠٠ لأخير فيكم إذا لم تقولوها ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها " ٠[١]

بين البخل والإسراف :

البخل مرض يقتل صاحبه ويدل على غفلة عمياء أو أنانية سوداء ، ومـــن الناس من يبخل على نفسه فيحرمها أن تأكل أطيب الطعام وتلبس أجـــود الثيـــاب ، استكثاراً لما ينفق عليها من طعام ولباس ومتعة ، ولقد رأى رســـول الله صلـــى الله عليه وسلم رجلاً من هؤلاء رث الثياب فقال له :" ألك مال ؟ نعم قـــال :" مـــن أي المال هو ؟" قال : من الذهب والفضة والإبل والغنم ، فقال عليه الصـــلاة والســـلام :إذا فلتر أثر نعمة الله عليك فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده "(الـــترمذي والحاكم).

ومن الناس من يجود على نفسه ويبخل على عائلته ، فهو يلبـــس أجـــود الثياب ويأكل ألذ الطعام ، ويمتع نفسه بالإسفار والرحلات ، حتى إذا كـــانت نفقـــة زوجته أو أولاده ضاقت في وجهه السبل ، وركبته الهموم والعلل ، وتبرم بزوجتـــه وأولاده ، وشكي ما يلقي في نفقة البيت من عنت وإرهاق .

وقد ترى في بعض الناس الجواد السخي في الولائم والضيافات ، فينفـــق على وليمة لكبير أو زعيم أو صديق ، آلاف الدراهم ليتقرب إلـــى مـــن يضيفـــه ، وليعظم صيته بين الناس بالجود والكرم ، ولكنه بخيل شحيح يضن بالقليل من المـــل على أبواب الخير العامة .

١- أنظر د. مصطفى السباعي. أخلاقنا الاجتماعية ص ص ٥٥ –٥٧ .

والإسلام يأمرنا في حياتنا الخاصة بالاعتدال لا سرف ولا تقتير فيقول تعالى:" وَلا تَجعَل يَدَكَ مَغلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا تَبسُطهَا كُلَّ البَسطِ فَتَقعُدَ مَلُوماً مَّحسُوراً "(الإسراء ، الآية : ٢٩) ، ويقول تعالى :" وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَم يُسرِفُواْ وَلَم يَقتُرُواْ وَكَانَ بَينَ ذَلِكَ قَوَاماً "(الفرقان ، الآية :٦٧) ، ويقول تعالى :" وَكُلُواْ وَاشرَبُواْ وَلا تُسرِفُواْ " (الأعراف ، الآية :٣١) .

أخلاقنا الاجتماعية في الأعياد :

في العيد من المغزى الاجتماعي تذكير للمجتمع في حق الضعفاء والعاجزين على الأغنياء ، حتى تشمل الفرحة بالعيد كل بيت ، وتعم النعمة كل أسرة . وإلى هذا المغزى الاجتماعي أوجدت صدقة الفطر في عيد الفطر ، ولحوم الأضاحي في عيد الأضحى ، فلا تشرق شمس العيد إلا والبسمة تعلو شفاه الناس جميعاً ، وتغمر البهجة قلوب أبناء المجتمع قاطبة .

ولا شك أنه إذا أردنا أن نعرف أخلاق أمة فلنراقبها في أعيادها إذ تنطلق فيها السجايا على فطرتها ، وتبرز العواطف والميول والعادات على حقيقتها والمجتمع السعيد هو ذلك المجتمع الذي تسمو أخلاقه الاجتماعية في العيد فيبدو متماسكاً متعاوناً متراحماً .

سلوكيات الأكل والشرب واللباس والمجلس :

قبل أن يبدأ المسلم طعامه عليه أن يذكر اسم الله تعالى . ومن الآداب الإسلامية في المأكل استخدم الأصابع الثلاث ، وهذا أنفع للأكل . فإن الأكل بإصبع واحدة أو إصبعين لا يستلذ به الآكل ولا يشبعه . إلا بعد طول وقت . ولا تفرح المعدة ولا آلات الطعام بما ينالها في كل أكلة

كما أن الأكل بالأصابع الخمس كلها ، يوجب ازدحام الطعام على المعدة ، وعلى الآلات (كالأسنان والفم) وربما انسدت الآلات من كثرة الطعام . فأصابت الأكل بأذى عظيم ، أو دفعت الآلات إلى المعدة الطعام الكثير ، الذي لا تقوى على احتماله ، فلا يجد الآكل أي لذة في أكله .

والغريب أن الأوروبيين بخاصة ، والأمريكيين بعامة بدءوا يستحسنون الأكل بأصابعهم الثلاث ، بدلا من استخدام السكاكين والشوك والملاعق حيث ثبت لهم أن هذه الأدوات المعدنية يعلق بها كثير من الجراثيم مهما نظفت ، ومن ثم تنتقل بواسطتها إلى المعدة فتسبب لها الأمراض المتعددة .

ومن هدى الرسول صلى الله عليه وسلم في آداب الشرب أنه كان يشرب قاعدا ،لكن صح عنه أنه شرب قائما ، ومعنى ذلك أن الشراب جائز مع الوقوف، لكن يستحسن الشرب مع الجلوس .

وكان الرسول صلى الله عليه وسلم إذ شرب تنفس ثلاث وذلك أروى للمرء ، والتنفس يكون خارج القدح ثم يعود مرة أخرى إلى الشراب .

ولهذه الطريقة في الشرب فوائد جمة هامة ، وهو الري من شدة العطش ، إذ التوقف يهيأ للمعدة الملتهبة دفعة دفعة ، فتسكن الدفعة الثانية ما عجزت عنه الأولى ، والثالثة ما عجزت عنه الثانية . وهذه الطريقة أسلم لحرارة المعدة ، وأبقى عليها من أن يهجم عليها الماء البارد دفعة واحدة فإنه لا يروي المعدة لمصادفته لحرارتها .

كما يخشى منه أيضاً فساد المعدة والكبد ، والوقوع فـي أمـراض رديئـة خصوصاً بالنسبة لسكان المناطق الحارة أو في زمن الصيف .

وكان لباس الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليس بـالقصير ولا بـالطويل ، فلا يطيل أكمام الأزار أو القميص ولا يقصره عن الحد المعقول .

وكان يستحب رسول الله (ص) اللباس الأبيض ، نظرا لأنه قليـل الحمل للدنس . ويظهر فيه بوضوح الوسخ إذا علق به شيء منه . ويؤكد الرسول صلـى الله عليه وسلم ذلك ، فيما يروي عنه قوله :

" ألبسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم "

(عن ابن عباس رضي الله عنه والإمام النووي وأبو داود الترمذي)

لكن بعض الصحابة رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في حلة حمـراء ، وفي ذلك يقول الصحابي البراء رضي الله عنه :" ولقد رأيته في حلة حمراء مـا رأيت شيئا قط أحسن منه " . (متفق عليه) .

كما أن بعض الصحابة قد رأى الرسول في عمامة سوداء يخطـب بـها الجمعة، يقول :" خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس ، وعليـه عمامـة سوداء " . (رواه مسلم) .

والقاعدة الإسلامية في اللباس ، التوسط فيه ، فالله سبحانه وتعـالى يريـد أن يرى أثر نعمته على العبد ، فلا يشح ويبخل ويقتر في لباسه ، كما أنه تعـالى

لا يحب الجبارين والمغترين ، والذين يسيرون في خيلاء في الطريق العام ، بملابس فضفاضة .

والأمر كذلك بالنسبة للحرير ، فقد روى الفاروق عمر رضي الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :
" لا تلبسوا الحرير فإن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة " (متفق عليه)
وفي حديث آخر يقول صلى الله عليه وسلم :
" حرم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي " (الترمذي)

ومداولة لبس الحرير تميت الرجولة في الذكر .وتجعله يتشبه بالنساء في مشيه وسلوكه ، لما فيه من نعومة الملبس ، الأمر الذي يؤثر غالباً على سلوك الرجل .

إلا أن قاعدة تحريم لبس الحرير على الرجال ، فيها استثناء ، فقد سمح الرسول صلى الله عليه وسلم للصحابي عبد الرحمن بن عوف ، وكذلك للزبير رضي الله عنهما في لبس الحرير وذلك لإصابتهما بحكة ، أي حساسية في الجلد كانت بهما . وهذا يدل على اليسر في القواعد الشرعية ، والآداب الإسلامية .

ويتضح من ذلك أن المقصود بآداب اللباس الاعتدال في كل شيء بما لا يكون مثيراً للآخرين أو يحمل معنى الابتذال أو الإسراف أو الغلو من ناحية ، كما يحمل معنى البخل والتفريط والتقتير من ناحية أخرى .

ومن آداب المجلس في الإسلام ، ألا يدخل رجل على مجلس فيقوم له بعضهم ليجلسه مكانه ، فلقد نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك :

" لا يقيمن أحدكم رجلا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا "

وهذه نظرة عميقة للنفس البشرية ، إذ أن الناس سواسية ، فإذا دخل أحد الكبراء إلى مجلس ، وقام له أحدهم ليجلسه مكانه، شعر الأخير بدنو منزلته أمام الناس كما يشعر الكبير بعلو كعبه عليهم ، وهذا ربما يكون من أسباب الفتنة والشعور بالعظمة ، وهذه الأخلاق منافية للخلق الإسلامي .

لكن إذا خرج أحدهم من مجلس ثم رجع إليه فهو أحق بمقعده ، إن جلس فيه غيره ، وهذا معناه أن الآداب الإسلامية ليست قواعد جامدة وإنما تطبق بحسب الظروف والملابسات ، وما فيه مصلحة للفرد والمجتمع على السواء .

وإذا جلس الرجل فيجب أن يكون وقورا فلا يحدث جلبة وضوضاء تشوش على الحاضرين سكينتهم ، وتفسد عليهم مجلسهم وهذه الآداب الرفيعة .[1]

العلاقات الزوجية :

وضع الإسلام لكل من الزوجة والزوج والآباء والأبناء حدودا واضحة يتميز فيها حق كل فئة عن حق الفئة الأخرى . وهي حقوق متكافئة منسجمة تؤدي إلى ملء القلوب بالحب ، وملء البيوت بالنعيم ، وملء المجتمع بالنسل الصالح الذي يبني ولا يهدم ، ويسمو ولا ينحدر .

[illegible] سرقاوي المرجع السابق ص ص ١٨٧ – ١٩٣ .

وقد أقام الإسلام هذه الحقوق على دعامتين من العدل والحب ؛ فالحب هو أمر نفسي يبعث على اشتراك الرجل والمرأة في الحياة الزوجية . وتزيد الأيام هذا الحب توثقا واستمساكا . إنه إعجاب كل من الزوجين بخلق الآخر واستقامته ودينه ، لا رغبة في ماله ، فالمال يزول ، ولا في جماله فالجمال يزول ، ولا في جاهه فالجاه ينهار .

يقول الله تبارك وتعالى :" **ومن ءاياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** " (الروم ، الآية : ٢١) . ويقول تعالى :" **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** " (البقرة ، الآية :١٨٧) - أي أن حاجة كل منهما إلى الآخر كحاجة الإنسان إلى اللباس وملازمته له .

وقد وضع الإسلام الحدود الفاصلة بين حق الزوج وحق الزوجة . فأول حقوق الزوج طاعة الزوجة له بالمعروف . وهي ليست طاعة العبد لسيده ، ولا الذليل لمستعبده ، وإنما هي طاعة الأخ الصغير للأخ الكبير . والزوجة غالبا تكون دون الرجل سنا وهي طاعة المساهم الصغير للمساهم الأكبر ، والزوجة لا تساهم في نفقات البيت كما يساهم في ذلك الزوج .

وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله تعالى :" **الرجال قوامون على النساء** " (النساء ، الآية :٣٤) وفي هذا المعنى يقول الرسول عليه الصلاة والسلام : " إذا صلت المرأة خمسها ، وصامت شهرها ، وحفظت فرجها ، وأطاعت زوجها ، قيل لها أدخلي الجنة من أي الأبواب شئت " .(أحمد والطبراني) .

ومن حق الزوج على زوجته أن تعني الزوجة ببيتها وتحفظ للزوج ماله وأثاثه ، وتوفر له راحته . وقد أخبر الرسول (ص) أن من حق الزوج على زوجته أن لا تعطي شيئا من بيته إلا بإذنه ، فإن فعلت ذلك كان لها الأجر وعليها الوزر . وفي رواية أخرى أثمت ولم يتقبل منها .

ومن حقوق الزوج أن ترعى الزوجة شعوره ، فتبتعد عما يؤذيه من قول أو فعل أو خلق ، وأن تراعي ظروفه المالية ، ومكانته الاجتماعية . فلا تكلفه من النفقات مالا يطيق . وقد تكون على حق فيما تطلبه من نفقه ، ولكن زوجها لا يستطيع أن يقدم لها ذلك إلا أن يسرق أو يستدين .

ومن حقوق الزوج أن توفر له الزوجة سكن النفس واطمئنانه في البيت بنظافة جسمها ونظافة بيتها ، وأن تتزين له حين يقدم بما يقربها به ويزيد حبه لها وشوقه إليها ولا تلح عليه فيكرهها ، ولا تباعد عنه فينساها، إن دنا منها تقترب منه، وإن نأىٰ عنها تبعد عنه ، ولتحفظ أنفه وسمعه وعينيه .

ومن حقوق الزوج على زوجته أن لا تخرج من بيته بغير إذنه ؛ فإذا خرجت بغير إذنه لعنها الله وملائكه الغضب حتى تتوب أو ترجع . ومن حقه عليها كذلك أن لا تبدي زينتها للأجانب ليطمئن قلبه وتسكن نفسه ؛ فمن أخلاقيات القرآن:" **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن و لا يبدين زينتهن إ لا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن و لا يبدين زينتهن إ لا لبعولتهن أو ءاباءهن أو ءاباء بعولتهن أو أبناءهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نساءهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات**

النساء و لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعـــا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون " (النور ، الآية : ٣١) .

ومن حقوق الزوج أن تترك له زوجته وقتا يفرغ فيه لنفســـه ولفكـره ، سواء كان عابدا ، أو عالما ، فإن لم تفعل كره جو البيت ، وفر منها إلـــى مكـــان ينجو فيه من مضايقاتها . وقد تمتد النفرة من البيت إلى النفرة منها وهنـــا تكـــون الكارثة .

ومن حقوق الزوجة على زوجها أن ينظر إليها على أنها سكن له ، تركـن إليها نفسه ، وتكمل في جوارها طمأنينته ، ويرتبط بالحياة الكريمة معها ســـعادته أو شقاوته ، يقول تعالى :" **ومن ءاياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتســـكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** " (الروم ، الآية : ٢١) .

ومن حقوق الزوجة على زوجها أن ينفق عليها بالمعروف ، فيـــأتي لـــها بالمسكن الصالح الذي تصان فيه حرمتها وصحتها وكرامتـــها ، وكذلـــك الملبـــس الصالح الذي يصونها من الابتذال ويدفع عنها أذى الحر والبرد ، وكذلك الطعـــام الصالح الذي يغذي الجسم ويدفع المرض ، ويأكله الناس عادة من غير ســـرف ولا تقتير ، وفي حدود الاستطاعة المالية للزوج . يقول تعـــالى :" **لا يكلـــف اللـــه نفسا إ لا وسعها** " (البقرة ،الآية : ٢٨٦) . ويقول ســـبحانه وتعـــالى :" **وعلـــى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف** " (البقرة ،الآية : ٢٣٣) . أما أن تطلـــب الزوجة من النفقة فوق ما تحتاج ، وفوق ما يطيق الـــزوج ، ففـــي ذلـــك عنـــت وإرهاق يعرض العائلة للفقر والحرمان .

ومن حقوق الزوجة على زوجها أن يعلمها واجباتها الدينية ويرشدها إلى ما تحتاج إلى معرفته من دين وثقافة وخلق كريم ، حتى تقف بين يدي الله خاشعة عابدة ، وتكون من أبر الزوجات بزوجها ، وأحنى الأمهات على أولادها ، وأسعد النساء في بيتها وأسرتها . ولذلك أباح الإسلام للمرأة التي يقصر زوجها عن أن يعلمها ما تحتاج إليه من أحكام الشريعة أن تخرج لتسأل أهل العلم بدين الله عن ذلك .

ومن حق الزوجة على زوجها أن ينبسط معها في البيت، فيهش للقائها ، ويستمع إلى حديثها ويداعبها . وقد يظن بعض الجاهلين المتزمتين أن في هذا ما يتنافى مع الورع أو الوقار أو الهيبة . وهذا خطأ فاحش . فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح مع زوجاته بما يدخل السرور إلى قلوبهن . وكان يسابق عائشة رضي الله عنها . وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام : " أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم خلقا وألطفهم بأهله " (رواه الترمذي والنسائي والحاكم) .

وليس مما يبيحه الشرع أن يمنع الزوج زوجته من التنزه معه في البساتين والحقول والرحلات .

ومن حق الزوجة على زوجها أن يحسن خلقه معها فيكلمها برفق ، ويتجاوز عن بعض الهفوات ، ويقدم لها النصح بلين تبدو فيه المودة والرحمة.[1]

---

١ - انظر مصطفى السباعي : المرجع السابق ص ص ١٣٩ - ١٥٢ .

المعتزلة

يختلف أهل السنة عن المعتزلة في مسألة الخير والشر . فالشر والخير عند أهل السنة سواء أدركا بالعقل أم بالشرع صفات ذاتية في الأفعال . فقد يكون العمل خيراً بالإضافة إلى شيء ما ، وشر بالإضافة إلى شيء أخر كما قد يكون خيراً في زمن ، وغير خير في زمن آخر .

أما عند المعتزلة ، فالخير مطلق ، والشر كذلك مطلق ، مادام هذا أو ذاك يرجعان إلى صفات الأفعال الذاتية كما يكشفها العقل ، والذي هو الفيصل في معرفة الخير والشر ، وهما لا يتغيران طبقاً للاعتبارات المختلفة .

ويعود هذا إلى الشرع ، وما أمر به الله وما ينهي عنه . فما أمر الله به فضيلة ، وما نهى عنه رذيلة . وهكذا يصل المعتزلة بين معرفة الله ، وبين الإنسان ككائن عاقل أخلاقي ، بل يضعون المعرفة الخاصة بالتفرقة بين الخير والشر بعد معرفة الله .

والعدل الإلهي من أصول المعتزلة ، ويوجد اتصال بين أصل العدل وأصل التوحيد . فجميع ما يفعله الله سبحانه وتعالى عدل ، وهو منزه عن الظلم، وذلك حتى لا يشابه المخلوق في صدور الظلم عنه. هذا وإن اختلفت الموازين في الدنيا حيث الشرور والآلام ، فإنها يجب أن تستقيم يوم القيامة . قال تعالى : "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين " (الأنبياء : ٤٧)

هذا ولله سبحانه وتعالى أسماء أخرى ذات دلالات أخلاقية كالرحمة والرأفة والمغفرة . ومع ذلك تبقى صفة العدل هي الأساس .[١]

وبمقتضى الحكمة الإلهية لا يمكن أن يكون الخلق عبثا ، وإنما كل شيء يدل على إحكام التدبير والنظام :" إنا كل شيء خلقناه بقدر " (القمر : ٤٩) ومن ثم فإن الله ينادي الإنسان أن ينظر في ملكوت السماوات والأرض وأن يفكر ويتدبر ثم يؤمن ويعتبر . وهكذا كل شيء مستمد من العقل لا من التجربة لأن العقل وحده هو الذي يضفي على الموجودات والظواهر تصور التدبير والنظام

ويرى المعتزلة أن الإنسان خالق لأفعاله خيرها وشرها مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً ، ويستلزم ذلك قدرة الإنسان وحريته فيما يريد ويفعل ، وإلا بطل الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ولو فعل الإنسان الحسن دون علم ، فهو كالماشي يقتل عقرباً من غير قصد ، فهو لا يستحق بذلك الجزاء ، وإنما يستحق المدح .

إن ما يفعله الله بالمؤمنين من الولاية والرضا هو ثواب ، إلا أن الثواب لا يكون إلا في الآخرة ، وأن ما يفعله الله بالمؤمنين في الدنيا من المحبة والولاية ليست بثواب ، وإنما فعله بهم ليزدادوا إيماناً وليمتحنهم الله بالشكر عليه

وتطرق المعتزلة إلى بعض الموضوعات الأخلاقية المتعلقة بمعاش الإنسان . والرزق عندهم أهم مظاهر هذا المعاش . وهو من خلق الله . على أن ذلك لا يبرر الغضب ولا الرزق الحرام . فمن غصب إنساناً مالاً أو طعاماً فأكله،

---

(١) انظر د. أحمد محمود صبحي : الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ص ص ٤٧ _ ١٠٣

فقد أكل ما رزق الله غيره ، ولم يرزقه إياه . ولما كان الرزق الحرام قبيحاً فـــالله غير فاعل إياه ، إنه كسائر المعاصي لا يريدها ، ولا يريد الأســـباب المتوســطة فيها أو المؤدية إليها .[1]

الصوفية

يرى الصوفية أن أعمال الجوارح تصدر عن خطرات القلب وإرادته فـإذا صفت السريره صلح العمل كذلك فإن القلب هو المحرك للقوى النفســية الباطنــة كالشهوة والإرادة والقوة . ومن ثم فإن القلب هو الذي يجب تصحيحــه وتقويمــه وحسابه وعتابه . يقول تعالى :" .... ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكــم " فــي حديث لسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام :" إن الله لا ينظر إلى صوركـــم ولكــن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " .

قرن الصوفية الدين بالأخلاق ، فالتشبث بالعقل بالاسترشـــاد بنــور الله ضروري في الخطر حتى لا يلتبس الأمر ، ويشتبه على الإنسان وجــه الخــير . وإن مداوة محاسبة النفس ورعاية القلب يجعل المرء يميزها . إما إذا التبس الأمــر فقد لزم الجذر ، والترقب ولكن الخطرات عادة لا تختلط ولا تلتبــس إلا لضعــف اليقين أو لقلة العلم بسرائر النفس ، أو نتيجة متابعة الهوى أو محبة الدنيا .

هذا ومجاهدة النفس واجبة حتى تسكن هواجسها . ولا يزال العبد يجــاهد نفسه ويخالف هواه حتى يحمي الجوارح من المكارة ، ثم من الفضـــول فيظــهر الباطن ويخنس الشيطان وتسكن الهواجس . أما من غلبت عليه حب الدنيا وكـــان أكله من حرام ، فإنه لن يميز بين الوسواس والإلهام .

١- انظر نفس المرجع ص ص ١٨٧ ـ ١٩٠ .

وسبر الصوفية أغوار النفس البشرية مستندين في ذلك إلى أسس أخلاقية، وقدموا بحثا في النية التي يحاسب عليها الإنسان وأشاروا إلى الرياء ، والعجب بالنفس ، والحسد .

وأكد الصوفية على ضرورة تطهير القلب وتعميره بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ، وتخليصه من الرذائل الممقوتة والعقائد الفاسدة . وغسل البدن أو الأعضاء بالماء دون تطهير الباطن من الرذائل هو تعلق بالقشور دون اللباب .

ويرى الصوفية في الصلاة معان باطنة . فاستقبال القبلة _ يصرف المصلي عن سائر الأمور إلا الله . وحركات الصلاة هي تحريك الباطن وضبط الجوارح والنية في بدء الصلاة تعني امتثال لله والكف عن المعاصي . ويقتضي التكبير أن لا يكون في قلب الإنسان شيء أكبر من الله .

والصوم عند الصوفية ثلاث درجات صوم العموم ، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص .وصوم العموم هو كف البطن والفرج عن الشهوة . وصوم الخصوص هو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . أما صوم خصوص الخصوص فهو كف القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية . ويبقى الصيام معلقا بين السماء والأرض لا ترفعه إلا زكاة الفطر .

ويقوم الصوفي بإخلاء قلبه مما ران به من الذنـوب والأثـام . فيتـوب ويظل على حذر من الشبهات ، وإن رابه شيء تركه . ومقام الورع عند الصوفـي هو الخروج من كل شبهة . ودرعه في ذلك محاسبة النفس ، والتبري من مظـالم الخلق حتى لا يكون لأحد مظلمة ، ولا دعوى ولا طلب .

والزهد أول قدم القاصدين إلى الله ، ويصل بعد ذلك إلى مقـام الفقـر ، والذي هو شعار الأولياء . ولا ينتظر الصوفي من أحـد شـيئاً ، ولا يشـكو ولا يظهر أثر الفاقة ، وإنما يظهر الغنى في غير تصنع . ولا يتواضع الصوفي لغنـي من أجل غناه ، ولا يتعاظم على فقير .

والصوفي صبور ، فهو لا يجزع أمام المصائب ولا يشكو ،ولكنه يقـف مع البلاء بحسن الأدب مع الله ويرضى بقضائه .

والصوفي متوكل ، مستسلم لما تملية المقادير والأحكام ، ومُسقط من قلبه كل أثر للطمع فيما أيدي الناس ، وتارك السخط حيـث تسـتوي أمامـه النعمـة والمصيبة .

وتلك الأخلاق الفاضلة تمنح الصوفي الرغبة الزائدة في الاتصال بـالله ، وهكذا لا تنفصل الحياة الروحية عن الحياة الخلقية في طريق الصوفي إلـى الله ، ذلك أن الطريق ينتهي به إلى مقام الفناء.[١]

---

[١] انظر: نفس المرجع ، ص ص ٢٦٣ - ٢٩٥

أبو حامد الغزالي

اشتهر الصوفي العظيم أبو حامد الغزالي (القرنين الحادي عشر والثاني عشر) وخلد اسمه ، ولقب بحجة الإسلام . والخلق عند الغزالي هيئة في النفس راسخة ، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فإذا كانت الهيئة تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة فعلا وشرعا سميت تلك الهيئة خلقا حسنا . وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة خلقا سيئا .

وهي هيئة راسخة ، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت ورسوخ .

ويرى الغزالي أن الأخلاق تابعة للنفس لا للجسد ، ولا يمكن أن تحصل الفضائل فينا إلا بعد إزالة الرذائل من النفس .[1] وفي رأيه أن المرء إذا أراد لنفسه صلاحا ــ فلابد من محاسبة نفسه كل ليلة قبل أن ينام على ما عمل في النهار . فهذهُ المحاسبة تعد وسيلة طيبة للخلاص من الآثام بالندم على ما ارتكبه الفرد من خطايا ورذائل ، والتزام لعدم الوقوع فيها ثانية . فالدين يدعو لاصطناع هذه الوسيلة ويحث عليها .

والأخلاق عند الغزالي قابلة للتغيير ، وإلا كانت عبثا مجهودات المصلحين الأخلاقيين وما يتبعون أنفسهم فيه من مواعظ ونصائح وتأديبات .ويأتي تغيير خلق شيء بأخر حسن ، بتكلف الضد ومحاولة تعوده حتى يرسخ ويصير عادة خلقا .

١- د/ سامية مصطفى الخشاب . علم الاجتماع الإسلامي ص ٨ .

والفضيلة - عند الغزالي - وسط بين طرفين واعتدال ، وحد الاعتدال معياره العقل والشرع معا ، فالحكمة وسط بين الخب والبلة . والخب هو الإفراط بأن يكون الإنسان ذا مكر وحيلة والبلة هو التفريط والنقصان عن حد الاعتدال الناشئ وعن بطء الفهم وقلة الإحاطة بصواب الأفعال . والعفة هي وسط بين الشره والخمود فالشره إفراط هذه القوة المبالغة فيما لا يرضاه العقل من اللذات . والخمود هو عدم انبعاث الشهوة إلى ما يرى العقل نيله من مطالب ورغائب فيها سعادة وخير .

والشجاعة وسط بين التهور والجبن . والتهور هو تطرف في الإقدام على ما يوجب العقل الإحجام عنه من الأفعال . والجبن هو التفريط وعدم الإقدام في مواطن الرذيلة ، وكلاهما رذيلة ينأي عنه الطبع المستقيم .

والسخاء خلق محمود شرعا ، وهو وسط بين طرفي التبذير والتقتير وقد أثنى الله تعالى عليه فقال : " **والذين إذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** " (الفرقان : الآية : ٦٧) . وقال تعالى : " **ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط** " (الإسراء : ٢٩) .

وكذلك المطلوب في شهوة الطعام الاعتدال دون الشره والجمود . قال الله تعالى: " **وكلوا وأشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين** " (الأعراف : الآية: ٣١) . وقال في الغضب : " **أشداء على الكفار رحماء بينهم** " (الفتح ، الآية : ٢٩) .

وقال صلى الله عليه وسلم : " وخير الأمور أوساطها " (البيهقي) وهذا له سر وتحقيق ، وهو أن السعادة منوطة بسلامة القلب عن عوارض هذا العالم.قال الله تعالى : "إلا من أتى الله بقلب سليم " (الشعراء ، الآية ٨٩) . والبخل من عوارض الدنيا والتبذير أيضاً من عوارض الدنيا . وشرط القلب أن يكون سليماً منهما ، أي لا يكون ملتفتا إلى المال ، ولا يكون حريصاً على إنفاقه ولا على إمساكه . فإن الحريص على الإنفاق مصروف القلب إلى الإنفاق ، كما أن الحريص على الإمساك به مصروف القلب إلى الإمساك ، فكان كمال القلب أن يصفو على الوصفين جميعاً .

وهكذا فالفضيلة وسط ، والفاتر لا حار ولا بارد ، بل هو وسط بينهما ، وكأنه خال عن الوصفين ، وكذلك سائر الأخلاق ، طرفي الأمور ذميم هذا هو المطلوب ، وهو ممكن . [١]

ويرى الغزالي أن أمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربع الحكمة ، والشجاعة ، والعفة ، والعدل ، والباقي فروعها . ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله (صلي الله علية وسلم) ، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه . فكل قريب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالي ، بقدر قربه من رسول الله (صلي الله عليه وسلم) ومن انفك عن هذه الأخلاق كلها ، واتصف بأضدادها استحق أن يخرج من بين البلاد والعباد ، فإنه قد قرب من الشيطان اللعين المبعد ، فينبغي أن يبعد .



١ - انظر الغزالي (محمد أبو حامد) . أحياء علوم الدين . المجلد الثالث . بيروت .

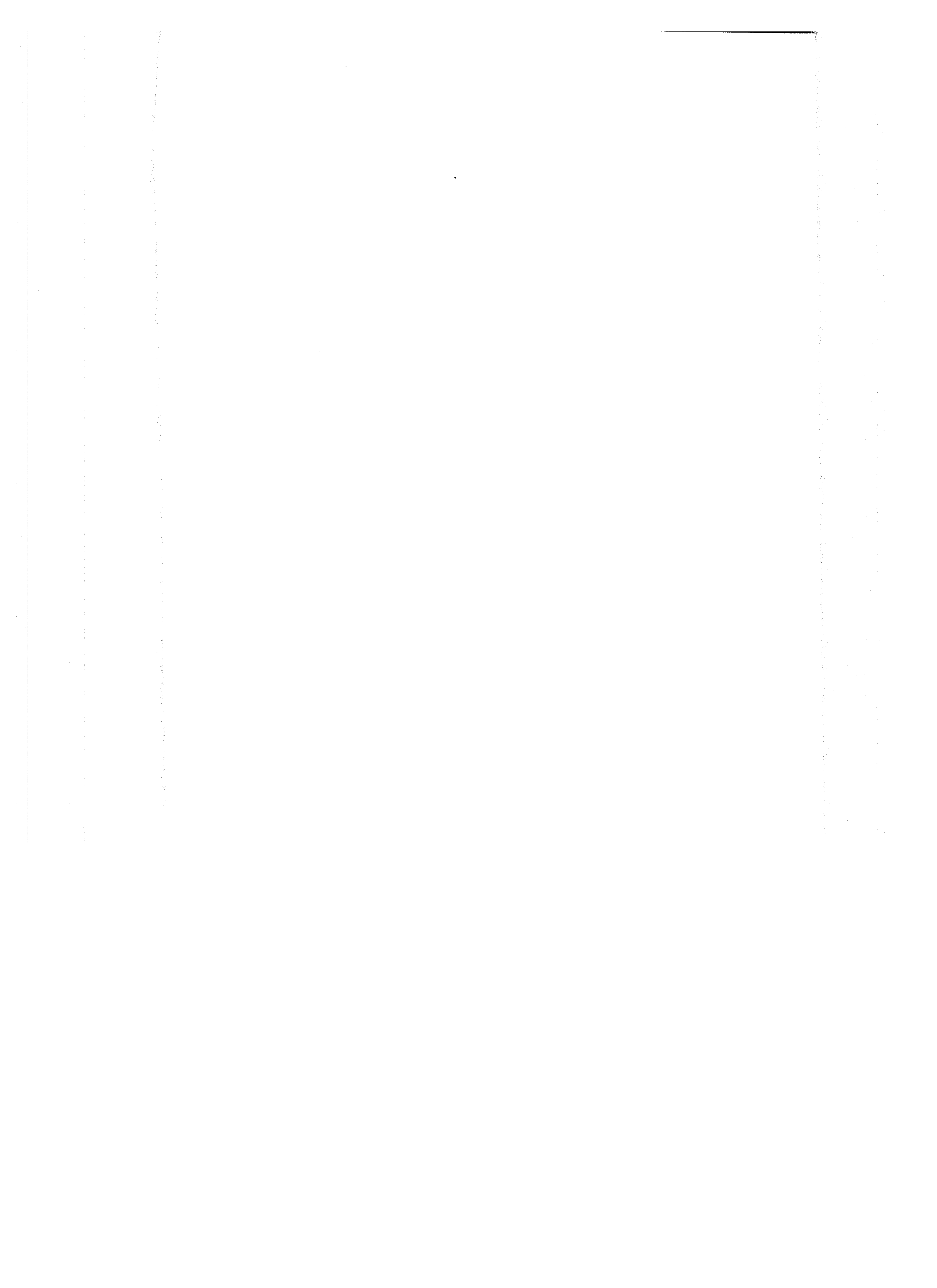
والحكمة هي فضيلة النفس العاقلة ، وهي تسوس القوة الشهوية ، وتقيم العفة ، وتقود القوة الغضبية ، والتي فضيلتها الشجاعة ويكون ذلك دفاعا عن العرض ، أو الدين ، أو الوطن ، أو نحو ذلك مما يوجب الحمية .

وبالحكمة تدرك النفس الفرق بين الصواب والخطأ ، وبين الصدق والكذب في الأقوال ، وبين الحق والباطل في الاعتقادات ، وبين الجميل والقبيح في الأفعال . وبالحكمة يتعلم المرء الأمور الألهية والأمور الإنسانية . والحكمة رأس الأخلاق الحسنة ، وهي التي قال الله عنها : ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا (صورة البقرة : ٢٢٠) .

ولا يرى الغزالي السعادة الحقيقية في اللذات الحسية ، بل هي وصول المرء إلى كماله الخاص به ، وهو إدراك الأمور علي ما هي عليه ، أي بإدراكها عارية مما يلابسها واضحة جلية ، ومعرفة الحقائق الإلهية . والوصول إلي هذا النوع من السعادة يكون نادرا في هذه الحياة ، لكنه يتم في الحياة الآخرة، ففيها البقاء لا الفناء ،والسرور لا الغم ، والعلم لا الجهل ، والغنى لا الفقر وهذه السعادة الحقيقية .

ولم ينس الغزالي الواقع ، إذ قرر أنه لكي تكون السعادة كاملة ، فيجب أن ينعم المرء بخيرات النفس والبدن والخيرات الخارجية . فالطريق للسعادة علم وعمل .

الفصل السابع
الأخلاق في عصر النهضة



توماس هوبز (١٥٨٨ - ١٦٧٩ م)٠

فيلسوف إنجليزي عاش من ١٥٨٨ - ١٦٧٩م وكان من أنصار الملكية المطلقة ٠ ففي عام ١٦٤٠ كتب مقالا أيد فيه حكم تشارلس الأول في صراعه مع البرلمان . ومن أشهر كتبه كتاب البحث في نظام المدنية De Cive و" التنين " Leviathan ٠

بني توماس هوبز مذهبه الأخلاقي علي أساس مادي ونفسي ٠ ورأي أن كل شيء في العالم بما في ذلك الموجودات البشرية وعقولها يجب تفسيرها بواسطة المادة المتحركة ٠ وقدامتدت نظريته هذه إلي سائر فلسفته ، ومنها الأخلاق ٠

والإنسان - عند هوبز - مخلوق يملك رغبات ، وفي طبيعته حبه لنفسه ، والعمل علي إسعادها ، وأساس عمله الأَثَرَة (حب الذات) وما من عمل يعمله إلا من أجل مصلحته ، وحبا لذاته ، لا لغيره من الناس ، ونتيجة رغبة في منفعة شخصيته يراد تحصيلها إن عاجلا أو آجلا وإذا عمل الخير لغيره ، فإن الباعث الحقيقي وراء ذلك هو حبه لنفسه وطلب اللذة لها ، ودفع الألم عنها ٠

من أجل هذا قال هوبز : يجب أن نساير طبيعة الإنسان فلا نكلفه ما ليس من طبعه ، بل نأمره أن يأتي من الأعمال ما فيه أكبر لذة له ، ويتجنب ما فيه أكبر ألم له ٠

ويضيف هوبز أن الإنسان كان في حالة تنازع مستمر مع الغير وأن حالة التنازع هذه تعود إلي : التنافس ، وعدم الثقة ، والشهرة ٠ والناس بطبيعتهم

غير متساويين في القوة ، وقد يقتل الإنسان الضعيف - الإنسان القوى باستخدام أساليب الحيل والدهاء ، وكذلك يمكن لرجلين أو ثلاث ضعفاء أن يقتلوا رجلا قويا يخشونه جميعا • وهكذا انطوت الحياة علي الغدر ، وعاش الناس في خوف متبادل من خطر الموت .

ويستخلص هو بز من ذلك أن حالة الطبيعة هذه ، وهي مرحلة ما قبل الحياة الإجتماعية ووجود الدولة ، كانت المجتمعات تعيش فيها علي الطبيعة . The State of Nature، وكانت مرحلة لا تطاق ، تتسم بالوحشية والتربص ، ويحددها قانون الغابة ، وهي حالة حرب الكل ضد الكل • وكانت الغلبة فيها للأقوياء ، والهزيمة والهوان للضعفاء •

وتحول حالة الطبيعة هذه دون قيام الصناعة أو التجارة ، أو الزراعة ، أو الفلاحة أو الملكية • كما أنها تحول دون قيام العلم والأدب والرفاهية ، بل ودون الحياة كلها •

وفي ظل هذه الحالة ينعدم النظام ، فلا وجود لمبادئ أخلاقية ، ولا مكان لفكرة الحق ، والصواب والخطأ ، والحسن والقبيح ، والعدالة ، واللاعدالة ، ولا وجود القانون ، وبالتالي فليس هناك إلزام •

ويرى هو بز أن الناس إذا أرادوا الخروج من حالة الطبيعة هذه ، فيجب عليهم تأسيس قوة مشتركة لتدعم إبرامهم لاتفاقية السلام ، فيثق الواحد منهم في الآخر • ولذلك اتفقوا فيما بينهم علي أن ينزلوا عن كافة حقوقهم الطبيعية

وحرياتهم لقوة تتمثل في شخص أو مجموعة أشـــخاص ، ويتعـــهدوا بطاعتـــه ، والولاء له دون شروط .

وقد أطلق هو بز علي هذا الشخص الحاكم اسم " التنين " ، وهو وحشـــ بحري ورد ذكره في الكتاب المقدس في سفر أيوب . وقد وصف هـــذا الوحـــش الطاغي بأن الرعب يمشي في ركابه . وتقوم هذه القوة الوحشية الطاغية المرعبـــة بروع من يحاول الخروج علي معاهده عدم العدوان ومعاقبته . وبذلـــك يضمـــ الناس لأنفسهم الأمن والطمأنينة .[١]

ويعلق هوبز علي ذلك بأن الغرائز غير الاجتماعية لا يمكـــن منعـــها أو القضاء عليها إلا بواسطة السلطة المطلقة ، والتي تقضي بأن إرادة الحـــاكم هـــي القانون ، فلا يحق لرعاياه أن يفعلوا ما يأمرهم بالامتناع عن فعله ، ممـــا يـــترتب علي ذلك من ضمان لعدم العودة إلي حالة الفطرة غير الآمنة .

هذا ولم يقبل هو بز فكرة الاعتراف بالحقوق والحريات للأفراد ، ولكنـــه آثر عليها مبدأ تركيز السلطة في شخص الحاكم ، وإقرار النظام التسلطي [٢]

وهكذا تغير الحال ، فيحل المجتمع المدني والتنظيم السياسي محل حالـــة الطبيعة، ويتحقق الأمن للناس ، مما يمكن من إقامة الصناعة ، ويحقق الرخاء[٣]

١- انظر د . محمد علي حيدر . أصالة الفكر السياسي في الإسلام . نقلا عن مجلة الوعي الإسلامي . العدد ٨٠ لسنة ١٩٧١ .

2-See Maxey. Political Philosojphy. P.P 225 – 228

-وانظر د. السيد عبد الحليم الزيات . في السياسة ونظم الحكم ص ص ١٤٢-١٤١ .

3 See Hobbes . T . . Leviathan . P . 96 .

– وانظر د . محمود سيد أحمد . الأخلاق عند هيوم . ص ١٧ .

ويرد علي أفكار هو بز بأن في الإنسان عاطفة حب غيره من الناس إلـــي جانب حبه لنفسه ، فهو فيه رحمة بالمنكوبين ، وغضبا علي المجرمين ، وحنـــوا من الوالدين علي أولادهم ٠ ومن ثم فلا مجال للقول بأن مقيـــاس الأخـــلاق لـــذة الإنسان وحده ، وأن تكليفنا له بمراعاة الناس والعمل لخيرهم لا ينافي طبيعته٠

جون لوك John lock

(١٦٣٢ - ١٧٠٤ م)

رفض لوك الحق الإلهي المطلق للملوك ، والذى نادي به توماس هوبـــز ؛ فأفراد الأسرة المالكة لا يولدون ومعهم حق إلهي أو فطري لحكم الناس ؛ إذ يولـــد الناس أحرارا[١]، والمساواة بينهم مطلقة ٠

ومع ذلك فقد بدأ لوك في نفس الخط الذي ابتدأ منه هـــو بـــز بـــافتراض وجود حالة الفطرة كمرحلة سابقة علي المجتمع المدني ٠ إلا أنه يختلف عنه فـــي وصفه لحالة الطبيعة ؛ ففي رأيه أنها لم تكن حالة مـــن الفوضـــي والعـــدوان ، والعنف والقتال ، ولم تكن مجال حالة حرب واضطراب.كما لم تكن مرحل ســـابقة علي المرحلة الاجتماعية ، بل كانت مرحلة خير وسلام وأمن ٠

وكانت حالة الطبيعة هذه مرحلة ســـابقة علـــي الحالـــة السياســـيةPre Political؛ إذ يتيح القانون الطبيعي الفطري للجميع حالة من الحرية والمســـاواة، واحترام الفرد لمصالح الآخرين ، وذلك في حدود قانون الطبيعة دون أن يعتمـــدوا في ذلك علي إرادة شخص آخر ؛ فالناس هم مخلوقات أخلاقيـــة عاقلـــة تـــدرك قانون الطبيعة ٠ وتتبلور الطبيعة عنده في ثلاثة أمور هي : الحياة ، والحريـــة ، والملكية ٠

إلا أن حالة الطبيعة هذه كان ينقصها القوانين التي تنشأ معبرة عن الرغبة العامة ، والقضاة الذين لا يتحيزون ، ويفصلون في المنازعات طبقا لتلك القوانين ، وسلطة تتمتع بإكراه قادرة علي أن تضمن تنفيذ الأحكام التي يصدرها هؤلاء . ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يكون قاضيا ومنفذا في ذات الوقت يحكم بما يشاء وينفذ ما يشاء ؛ مما ينجم عنه صدور أحكام متفاوتة و متحيزة ، حيث يختلف الأحكام التي يصدرها الأفراد مختلفون في القضايا المتماثلة . والمطلوب هو توفر الحد الأدنى لحياة الأغلبية ، ووجود سلطة تتعامل مع الأقلية التي تهدم القوانين . ولا يتوفر ذلك إلا في المجتمع .

ولتحقيق هذه المزايا فضل الإنسان الانتقال من حالة الطبيعة إلي حالة الجماعة ، والمجتمع المدني . فالهدف الرئيسي من اتحاد الأفراد وضع أنفسهم تحت سلطة معينة هو المحافظة علي حرياتهم وممتلكاتهم ، وذلك لوجود بعض نواحي النقص في حالة الفطرة . ومن ثم شعر الناس بحاجتهم إلي قاض يطبق القانون ، وسلطة تنفيذية تفرض أحكام القاضي ، وجهاز تشريعي يضع القواعد اللازمة التي تصدر بقضايا الأحكام .

وبناء علي ذلك دخل الناس في تعاقد ، وصنعوا العقد الاجتماعي ، واتفقوا بإرادتهم ورضاهم . وكانت غايتهم في ذلك المحافظة علي حقوقهم الطبيعية وهي : حق الحياة والحرية والملكية ، والتي يتحتم علي الجميع احترامها وعدم الاعتداء عليها .

والتعاقد هنا تعاقد بين طرفين : الشعب من جهة ، والحكومة أو الملك من جهة أخرى . ومن ثم فلا يجوز للحاكم أن يفرض أى قيود علي حريات

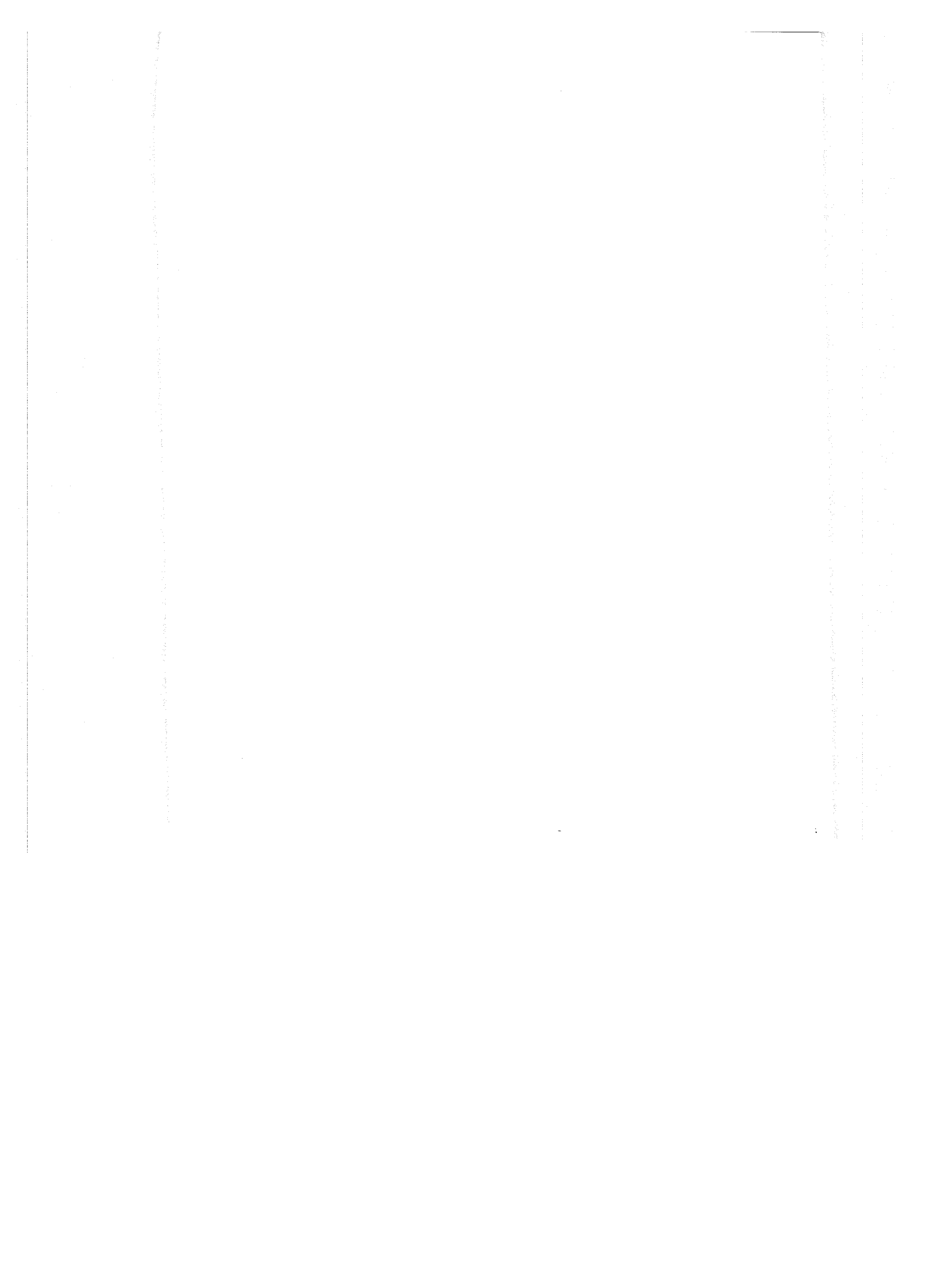
الأفراد إلا بما يتفق مع القانون الطبيعي ٠ فلا يستطيع - مثلا - أن يأخذ من أى إنسان جزءا من ملكيته دون موافقته ٠ وبذلك تكون سلطة الحاكم مقيدة بحقوق الفرد السابقة علي دخول الجماعة ٠

وعلي ذلك فإذا أخل أي طرف بهذا العقد فإنه يصبح لا غيا؛ مما ينجم عنه أن الملك وجب عزله إذا أخل بتعهداته ، وأهمل مسئولياته تجاه الشعب ٠ ومن ثم يلتزم الملك بتسخير سلطانه في تحقيق الصالح العام ، واحترام الحقوق الطبيعية للأفراد ٠

ويتضح من ذلك أن تحليل لوك للعقد الاجتماعي يتفق مع أصول الديموقراطية فإذا كان الناس قد نزلوا عن سلطتهم الطبيعية ، فإن هذا النزول لم يكن لفرد أو جماعة معينة ، ولكن للمجتمع ككل ٠

الفصل الثامن

الأخلاق في الفلسفة الحديثة



تقديم :

يتميز العصر الحديث بتعدد ما تولد خلاله من الفلسفات والأيديولوجيات والتيارات الفكرية المتباينة ، والتي قد يتعارض بعضها مع بعض أحيانا • ويرجع هذا التنوع والتعارض الفكري إلي كثرة ما حدث خلال هذه الحقبة من الزمن من انتفاضات وثورات دينية وعلمية وتكنولوجية وسياسية ابتداء من ثورة الإصلاح التي قام بها مارتن لوثر عام ١٥٢٠ ، ثم الثورة الصناعية ، فالثورة الأمريكية عام ١٧٧٦ ، والثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، وثورة عام ١٨٤٨ الاشتراكية ، وغير ذلك من مظاهر التغير الاجتماعي ؛ مما كان له تأثير كبير علي تصور المبادىء الأخلاقية •

ولقد نتج عن هذا كله القضاء علي الوصايا الفكرية التي فرضتها الكنيسة الكاثوليكية خلال العصور الوسطى • كما أسهمت حركة الإصلاح الديني في تقويض دعائم السلطة البابوية ؛ مما ممكن الملوك من استعادة نفوذهم وسيطرتهم علي الوحدات السياسية التابعة لهم • وكان ذلك إيذانا بقيام الدولة القومية التي تميزت بوجود سلطة واحدة لها صفة السيادة • وبذلك قضي نهائيا علي فكرة ثنائية السلطة (أي السلطة الزمنية والسلطة الدينية)•

وقد اقترن انهيار وتدهور المؤسسات التي كانت سائدة في العصور الوسطى بانطلاق الفرد وتحرره من شرائع الإقطاع وسيطرة الكنيسة وتعميق وعيه بفرديته • وقد انعكس ذلك علي الفيلسوف الحديث الذى نظر إلي العالم من ناحية الذات ، ومن زاوية " الأنا " ، ومن ناحية العقل والشعور ، وذلك عكس

الفيلسوف القديم الذى كان ينظر إلي العالم نظرة عالمية من ناحية العالم ، ومن ناحية الموضوع ، ولذلك كان عقل الفيلسوف القديم مرآة للوجود وللعالم .

ونذكر في هذا الخصوص أفكار بعض فلاسفة هذا العصر التي تتعلق بالمبادىء الأخلاقية .

ديكارت

(١٥٩٦ - ١٦٥٠)

يلقب الغربيون ديكارت بأبى الفلسفة الحديثة ، لأنه في زعمهم أول من جعل العقل إماما . وقد رفض ديكارت " الأنا " التي تتأمل المثل ، وأصبحت " الأنا " عنده هي نفسها مصدر المثل وصانعه القيم فالإنسان هو الصانع الوحيد لقواعد الخير والشر .

وقسم ديكارت الأخلاق إلي نوعين :
أخلاق مؤقتة ، وأخلاق نهائية . وهما غير متعارضين . فكلاهما تستهدف تحقيق حياة سعيدة للإنسان . إلا أن الأخلاق المؤقتة - في مذهبه - لم تعد لها من أهمية في هذا الزمان ، لأنه أصبح في مقدور الإنسان أن يتخذ العقل إماما .. وأن يستعيض عن الأخلاق المؤقتة التي هي التقاليد والعادات بالحقائق العلمية .. والأخلاق النهائية في تصور " ديكارت " تحقق سعادة أكبر من السعادة التي تحققها الأخلاق المؤقتة .. لذلك فهو يقسم الخيرات إلي نوعين :

١- الخيرات التي في مقدورنا تحقيقها ، ونحن مسئولين عنها مسئولية أخلاقية .
٢- الخيرات التي ليس في مقدورنا تحقيقها والتي لسنا مسئولين عنها .

ويرى " ديكارت " أن الأخلاق الحقيقية هي أخلاق النـــوع الأول لأنـــها راجعـــة إلينا ، أما الأخلاق الثانية فليست خيرا علي الحقيقة لأنها ليست معروفـة لنا ، وهو في ذلك يتفق مع الرواقيين في أن الخير الأسمى إنما هو فـــي معرفـــة الحق . فالحق والخير عنده أمرا واحدا ..

وينتهي " ديكارت " من ذلك إلي أن يقول : " أننا إذا حكمنا حكما حســنا ، فمعناه أننا نفعل حسنا ، أي أنه عن طريق إصدار أحكام عقلية تكون الأفعال ، فـلا فرق بين الحق العلمي والحق الأخلاقي .

لكننا نختلف مع " ديكارت في هذه النظرة اختلافا كليا إذ أنه لا يكفـــي أن تكون الإرادة الإنسانية حسنة لكي يكون الفعل حسنا .. حيث لا يخفي أن هنـــاك فرق واضح بين الإرادة والعمل ، ذلك لأنه كثيرا ما تكون لدى الإنسان خـير إرادة في الدنيا ، إلا أن سلوكه العملي لا يكون بـــالضرورة أخلاقيـا فـالإرادة ليسـت العمل .

ويربط " ديكارت " من ناحية أخرى بين النفس وقواعد الأخلاق ، فـــيرى أن النفس مستقلة عن الجسم ، وهي أشرف منه لأنها روحية محضة ، كما أنـــها لا تموت أبدا ، وتستطيع أن تنال السعادة الأبدية اللامتناهية ، ونحـــن نتفـق مـــع " ديكارت " فيما يتعلق بنعيم الآخرة واعتباره أن السعادة الدنيوية ســـعادة ناقصـــة ، لكننا نختلف معه في نظرته إلي السلوك الأخلاقي ، حيث يجعله عقلانيا صرفـــا ، أي أن الحياة الفاضلة هي الحياة وفقا للعقل فحســب .. وكأنـــه بمجـــرد والتأمل يصبح سلوك الإنسان فاضلا ..

غفل ديكارت بذلك عن السلوك العملي واعتمد علي التأمل العقلاني مع أن التأمل العقلاني وحده يمكن أن يصيب الإنسان ويخطئ ، فالعقل الإنساني بطبيعته ناقص، ومن ثم فأن أحكامه ليست صادقة بالضرورة ، أما الذي يحقق للعقل كماله حقا ، إنما في موافقة العقل للشرع ولن يتم ذلك إلا بالاسترسال مع الله ، والعمل علي طاعته والتوكل عليه في كل أمر ، والتمسك بأهداب دينه الحنيف وشريعته الغرا .

أن ارتباط الأخلاق النظرية بالأخلاق العملية ، أو العقل المتأمل مع الشرع ، والعمل علي تطبيق الأحكام الشرعية وهي أحكام الفطر السليمة والعقل الرشيد .. والسبب الذى جعل ديكارت يخرج بأخلاق عقلانية هو تشككه المطلق في كل شيء .. ورغم أنه حاول أن يخرج من تشككه العلمي ببراهين وأدلة منطقية على وجود الله .. إلا أنه استسلم لجنوح العقل فقاده إلي الظن والظن لا يغني عن الحق شيئا ..

آمن ديكارت إذن بالعقل ، ورأى في قمته البصيرة ، ويريد بها ديكارت مالا يتغير من أحكام الحواس والخيال . وقد اتجه ديكارت إلي الأسلوب الرياضي، في وضع فلسفته الجديدة ، حيث أن الرياضيات تهتم بالبسائط فضلا عن أنها تعصم الفكر من الخطأ والضلال . (١)

١ـ انظر د. حسن الشرقاوي : المرجع السابق ص ص ٣٥٧ – ٣٦١ .

جان جاك روسو
Jean Jacque Rousseau
(١٧٧٨ - ١٧١٢)

كاتب فرنسي ولد بجنيف من أسرة فرنسية بروتستانتية المذهب . تربى تربية خاملة ، فكان ضعيف البنية ، وآثر الحياة الهادئة ، ودرس الموسيقى .

نشر روسو في عام ١٧٥٤ م بحثا في عدم المساواة بين البشر تصور فيه إنسانا يعيش كما نفترض حالة الطبيعة . ويختلف روسو عن هوبز في تصوره لهذه الحالة. فحالة الطبيعة -عند روسو- يسودها الخير والسعادة والفضيلة المطبوعة في كل القلوب ، كما يسودها المساواة . وشبه روسو تلك الحالة بالحياة في "جنة عدن" .

والإنسان في حالة الطبيعة هذه سعيد مُعا في لا يعرف الشقاء ، ولا التوتر ، حاجاته قليلة ، يدافع عن مصلحته الشخصية ، ويتعاطف مع الآخرين ، ويتمتع بحس اجتماعي ، وضمير أخلاقي يحمله منذ ولادته

وللإنسان حاسة تمكنه من إدراك الخير والشر ، وذلك هو الضمير الأخلاقي . ثم خرج الإنسان من تلك الحالة الطبيعية بسبب ظروف اضطرته إلى التعاون . وتتمثل هذه الظروف في البرد القارس والقيظ المحرق والجدب . وكان هذا التعاون مؤقتا لتوفير القوت بالصيد برا وبحرا ، والتكاثر لتوفير الغذاء.
كذلك أجبرت الفيضانات والزلازل الناس على الاجتماع بصفة مستمرة ، فاخترعت اللغة ، وتغير السلوك ، وظهر الحسد . ولم تبلغ هذه الحالة مرحلة المدنية بسبب خلوها من القوانين .

أما مرحلة المدنية فقد ظهرت بعد اكتشاف الحديد واستخدامه ، وبز العمل في الزراعة . وتبع ذلك حيازة الأراضي والتهافت على تقسيمها ، وتبع ذلك تقسيم العمل . ومع مرور الزمن ازداد التعاون ، وسن الأغنياء قوانين لحماية ممتلكاتها ، وتوطيد السلام ، فولت الحرية الطبيعية ، وظهر التفاوت الطبقي ، وقامت المشاكل بين الحدود ، وأصبح الإنسان الطيب بالطبع شريراً بالاجتماع .

يقول روسو : كان أول إنسان سور قطعة من الأرض وقال : هذه الأرض أرضي ، ووجد حوله أناساً بلغت سذاجتهم درجة تصد يقه كان هو المؤسس الحقيقي للمجتمع المدني . وبمجرد أن أحس الأغنياء بلذة السيطرة ، لم يتوانوا في احتقار كل من يقع عليه نظرهم ، واستخدموا العبيد في إخضاع غيرهم ، وأقاموا حكومة تتمتع بقوانين تصون الحياة والملكية .

وبين روسو في كتابه " إميل" إن التربية الحالية تستند إلى مبادئ ظالمة ، وأن صحة التربية تقوم تبرك الولد على طبيعته دون أن تعطلها مؤثرات الحضارة الفاسدة ، فالتربية تنبع من داخل النفس ، ولا تأتي من قراءة الكتب .

وتبين من ذلك أن روسو لم يتحرر كليه من الاعتبارات المتعلقة بالمنفعة، فالإنسان الفاضل لن يسلك دائماً بحسب منفعته المادية ، بل إن ما يعمله يكون دائماً في وفاق مع منفعته الأخلاقية ، فالسلوك الخير هو أن يحقق المرء

لنفسه سرورا . وعلى ذلك فالرذيلة هي حساب رديء ، والفضيلة هي حساب طيب .(١)

هيجل

تفترض نظرية العقل الجمعي عند هيجل أن الإنسان لا يولد إلا في "إطار عقلي عام" يستمد منه أنماطه السلوكية والثقافية وأساليبه الفكرية . والإنسان يولد في ثقافة يستوحي منها أفكاره ومنطقه ، فالإنسان لا يخلق لغته، أو يصطنع أخلاقه ، وإنما يكتسبها اكتسابا من خلال ذلك " الإطار العقلي العام " ويستوحيها من نمط الثقافة التي يولد فيها ويعيش .

وعلى ذلك فالجماعة هي التي تعطي للفرد قيمة وأهمية لاعتماده في كل حقوقه وحرياته على الجماعة التي ينتمي إليها وينتسب إلى عضويتها . والدليل على ذلك كما يقول هيجل أن الأفراد في الواقع لا يقيمون وزنا للحرية الفردية حسب مفهومها الشائع ، بل أن ما يريدونه هو الحرية في لمجتمع . هذه الحرية لا يمكن أن تتحقق إلا في الدولة وبواسطتها ، فالدولة عندما تقيد وتمنح فإنها في الحقيقة تزيد من حرية المجتمع ، وبالتالي توسع من حرية الفرد .

ويرى هيجل أن الإنسان ينبغي أن تكون له حقوق مثل الملكية وحق التعاقد .ولكن يشترط أن تكون هذه الحقوق في توافق مع " العقل العام " المجسد في الدولة .

١-انظر أندريه كرسون Andre Cresson الأخلاق في الفلسفة الحديثة – القسم الثاني من المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ص ص ٥٧ – ٥٨ .

وقد ميز هيجل بين " الروح الذاتي"و "الروح الموضوعي" فيمـــا يتعلـــق بالمسألة الأخلاقية ، وذلك بالالتفات إلى التمايز الواقع بين " الأنا " و" المجتمـــع " ، وأشار في ذلك إلى ما يسمى " بالأخلاق الذاتية " و " الأخلاق الموضوعية ".

وتتمثل الأخلاق الذاتية عند هيجل في وعي الإنسان الفرد وتجـــرده مـــن كل العلاقات حتى يواجه نفسه ، ويثب إلى ذاته أو وعيه الأصيـــل المنبثـــق مـــن باطنه ، والكامن في " الذات العميقة " .إذن الذات الأخلاقية تصـــدر عـــن وعـــي الإنسان أو ذاته ، أما الأخلاق الموضوعية ، فهي أخلاق الإنسان الذي ينتمي إلـــى مجتمع ، حين يواجه نفسه بوصفه جوهرا " substance اجتماعياً .

وتتضمن فكرة الأخلاق الذاتية فكرة الإرادة ، وفكرة الحرية . فـــالأخلاق الذاتية تحرص على أن تكون متوافقة مع الإرادة ، ومع ما يجب أن تكون . كذلـــك تتميز الإرادة الأخلاقية بالحرية ، ولذلك تحققت فكرة الحرية في صميم الأخـــلاق الذاتية عند هيجل .

وتستهدف الإرادة الذاتية في أخلاقيات هيجل ، الاتجاه نحو كل مـــا هـــو خير ، وهذا الخير لا يكون إلا في الفكر وبالفكر . أي هـــو واجـــب مجـــرد دون مضمون ، ويخضع هذا الواجب المجرد لمحك اليقين الأخلاقي الذي يمـــيز فـــي وضوح وجلاء ما يكون حقاً ، ويحدد ما يكون واجبـــاً ، فيبعدنـــا هـــذا " اليقيـــن الأخلاقي " عن مصادر الخطأ أو الوقوع في الشرور والآثام .

أما الأخلاق الموضوعية ، فتنبثق عند هيجل من روح الجماعة ، وتنبـــع من ذلك " الروح الموضوعي " الـــذي يتحقـــق فـــي القـــانون ووســـائل الضبـــط

الاجتماعي ، بما تفرضه من جزاءات يعتبرها هيجل " مصادر خارجية للإلزام الخلقي " . ومن ثم تقوم الرابطة بين الأخلاق الموضوعية من جهة ، ومظاهر الحياة الواقعية من جهة أخرى ، الأمر الذي معه ينفصل الإنسان الفرد عن ذاته الأخلاقية ، ويبتعد عن جوانبه الباطنة فيصبح بفضل الوعي الموضوعي ، جوهرا اجتماعيا .

والأخلاق الموضوعية عند هيجل تؤلف مثلثا جدليا أضلاعه الأسرة التي تمثل " الفكرة" في الحقيقة الجدلية ، أما المجتمع فهو الضلع الثاني الذي يمثل " نقيض الفكرة أو نفي الموضوع "، والدولة هي ذلك المركب الكلي الذي يجمع بين النقيضين ، ويؤلف ما بين الأسرة والمجتمع ؛ أو الفكرة ونقيضها .

والأسرة عند هيجل ، هي بمثابة " الروح الاخلاقية الموضوعية " أو المباشرة ، والمجتمع هو مصدر الإلزام والجزاء ، أما الدولة فهي " الحقيقة العينية المشخصة " التي تفرض قيم الأخلاق الموضوعية ، كما تفرض السلطة في المجتمع السياسي .(١)

عما نويل كانط
(١٨٠٤ - ١٧٢٤)

ولد عما نويل كانط بمدينة كونيجبرج عاصمة دقية بروسيا الواقعة على الحدود الشمالية الشرقية لألمانيا . ودرس اللغة اللاتينية وثقافتها ، وخضع للإكراه

١- انظر د. قباري محمد اسماعيل : قضايا علم الاجتماع ـ دراسة نقدية من زاوية علم الاجتماع ص ص ٢٤٧ - ٢٥١ .

الديني الذي فرضه عليه مربوه . فقد كان كل يوم دراسي يبدأ باجتماع مطول للعبادة المشتركة وكل حصة من حصص الدرس والتعليم كانت تستهل بصلاة وتختم بصلاة ، فضلا عن ساعتين للعبادة أسبوعيا ، ودروس الدين .

وفي جامعة كونيجبرج أطلع كانط على كافة فروع المعرفة ، ومنها الفلسفة والرياضيات والعلم الطبيعي .

وأكد كانط في كتابه " نقد العقل النظري الخالص " أن أية ميتافيزيقا لا يمكن أن توضع في وضع علمي قط ، وأن الفلاسفة الذين يدعون بناء تعاليمهم الأخلاقية على الميتافيزيقا إلهية كانت ، أم إلحادية قد حكموا على أنفسهم بالفشل .

ورفض كانط الأخلاق الفلسفية القديمة التي ظهرت في الفلسفة اليونانية . وأرجع ذلك إلى أن الفلاسفة القدماء لم يصوروا في الأخلاق موقف الإنسان العادي ، بل صوروا فقط الإنسان الذي يريد أن يكون حكيما . ومن المعروف أن الإنسانية العادية لا تتطلع إلى هذا المثل الأعلى ، بل هي تسير في الحياة بما لديها من الضمير أو الشعور .

كذلك فإن المثل الأعلى الذي بحث عنه القدماء في الميدان الأخلاقي هو مثل أعلى بالمعنى النظري أو الميتافيزيقي وليس مثلا بالمعنى الواقعي . ولاحظ كانط من مواقف الرواقيين أنهم لم تكن أقوالهم أخلاقية بمعنى الكلمة لأنهم كانوا يبحثون عن عوامل النجاح والسيطرة في الميدان الأخلاقي . فالإنسان الفاضل هو الإنسان الناجح الذي يكاد يشبه الآلهة بما لديه من قوة وسمو وتظهر هنا إرادة القوة لا إرادة الفضيلة .

وهكذا عرفت الفلسفة القديمة الحكمة والقوة والقدوة والإتقان ، ولكنها لم تعرف الطيبة في حين أن الفيلسوف كانط بدأ فلسفته الأخلاقية بهذه العبارة :

" ليس هناك قيمة أكبر من قيمة الرجل الطيب صاحب الإرادة الطيبة "

ورفض كانط أن يؤسس الأخلاق على اعتبارات نفعية.فالنفعية تحرض المرء على أن يمارسها بناء على بواعث تمحق الفضيلة ، فحين يقوم الفرد بفعل أخلاقي ، فإن هذا يعبر عن إرادة خيرة في ذاتها دون النظر إلى غايات نفعية أو ميول أو أهواء .

ويضيف أن الأخلاق ينبغي أن تكون علما، والعلم لا يكون علما إلا بقوانين بينما اللذة والألم تعبر عن الإحساس . والإحساس شعور شخصي ومن ثم ينبغي أن يوضع للأخلاق أساس عقلي ، ومجرد من كل اعتبار نفعي .

وشجبت مثالية كانط رؤيا التجريبيين ، فأكد أن التصورات والمفاهيم الخلقية ومصدرها قائمان بصورة خالصة في العقل ، ولا يمكن استخلاصها من أية مبادئ تجريبية .[1]

كما رفضت نظرية كانط نظرة الواقعيين المحدودة في الأخلاق ، والذين نادوا بجعل الأخلاق علما وضعيا واقعيا ، بمعنى دراسة الأخلاق كما تدرس العلوم الطبيعية والكيميائية ، ليكون موضوعها ما هو قائم بالفعل ،لا ما يجب أن يكون عليه السلوك الأخلاقي .

١-انظر د. محمود سيد أحمد : الإنسان في مذهب هارتمان ص ٣٧٠ .

ورفض كانط كذلك ما ذهب إليه الوضعيون والتجريبيون من محاولة إخضاع الأخلاق إلى التقييم والتخطيط العلمي والموضوعي ، حيث أن ذلك في تصوره إبعاد للأخلاق عن المثالية والمبادئ العليا وجعلها علما تطبيقيا وتجريبيا تتحصل نتائجه عن طريق البراهين والتجارب المعملية .

وبدأ كانط أبحاثه في طبيعة المعرفة ، وفصل بين " التجربة " و "العقل " وبين " المادة " و" الشكل " . واعترف للعقل وَحده بشرعية إضفاء العادات العمومية على معارفنا . وطبق هذا الفصل على مجال الأخلاق ، وخرج بنتيجة مؤداها أن مبادئنا الأخلاقية يجب أن تؤسس لا على التجربة ، ولا على العاطفة، بل على العقل الصرف .

ونظر كانط إلى الأخلاق على أنها تعبير عن المثالية ، إذ لا يمكن أن تكون أخلاقا على الحقيقة إلا إذا كان الفعل الأخلاقي عاما وشاملا ، ولا يتقيد بزمان ولا مكان .

ويقول كانط : إن الضمير الأخلاقي يلاحظ أن القيمة الأخلاقية لتَصَرُّف ما لا تتوقف على نتائجه الخارجية ، بل على الإرادة الداخلية التي أوحت بهذا التصرف ، أو التي انبعث منها هذا التصرف . وعليه فإن السلوك لا يكون أخلاقيا إلا إذا انبعث عن الواجب أو عن الاحترام للقانون الأخلاقي ذاته .[1]

ولكن ما هو الواجب ، وما طبيعته ؟ وما الدافع إليه؟ إن قوانين الواجب عند كانط قوانين آمره مطلقة وصريحة ، وكأنما يشرع لأخلاق الإنسانية جمعاء ،

١- د. السيد محمد بدوي : الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص ص ٩٣ – ٩٦ .

فهو فرض على كل كائن عاقل يوجد في ظروف كالتي توجد فيها . والواجب هو مسلمة أولية من مسلمات العقل العملي غير قابلة للبرهنة .

وقد يكون الأمر شرطيا أو اجتماعيا (غير جازم) . فهو لا يأمرنا بعمل شيء إلا إذا كنا نريد من ورائه غاية ، وذلك كأن نقول : إذا كنت تريد أن تعرف القواعد الرياضية فادرس الجبر . وقد يكون الأمر بدون شروط ، ليدل على أمر مطلق كقولنا: لا تقتل ، لا تسرق ، لا تكذب .وهكذا فخاصية الواجب الإلزام ، إنه طلب ، إنه يجب عليك .

وحيث أن الواجب هو قانون وإلزام ،إذا القيمة هي عامة وعالمية ، لأنها تصدر عن مملكة عامة عالمية أو حصة مشتركة بين سائر البشر هي العقل .

ويقتضي الواجب عند كانط العمل على إماتة الشهوات ، وقهر الحساسية ما استطاع المرء ، وحتى يتسنى ذلك فإن الأمر يقتضي استمرار الشخصية بعد الموت ... حتى تتمكن من التخلص نهائيا من نقائصها؛ ومن ثم يلزم القول بخلود النفس .

ولا يصدر الفعل الأخلاقي ، عند كانط ، إلا عن إرادة خيرة ، والتي هي الوسيلة التنفيذية لأداء الواجب . ومن طبيعة الإرادة الخيرة أنها تنزع دائما نحو الصواب ؛ حيث أن صواب العقل أو خطئه إنما يستند إما إلى إرادة الخير أو إرادة الشر أي طبيعة الفعل الأخلاقي إما تعتمد على الدافع الأخلاقي ، أو النية .
وهناك أفعال إرادية تستند إلى دافع impulse ، وأخرى تستند إلى مبدأ Principle . فإذا ما أحسنت إلى إنسان نظرا لبؤسه أو فظاعة حاله ، فإن هذا

الفعل الإرادي الخلقي ، يستند أصلا إلى دافع الشفقة ، ولكنني إذا أردت العمل طبقا للإرادة الخيرة ، فإنني أقوم بواجب الإحسان لا لشيء إلا أنه الواجب .

ولا يتنكر كانط للحرية الإنسانية ، فهناك حرية لا تتصل بنطاق التجربة، ولا بنطاق العلم الذي يسمو على الحس ، وإنما تتصل بالعقل . وعقد الحرية أساس الأخلاق ، لأنه لا معنى للأخلاق إلا إذا كان الإنسان حرا .

نجد هنا إلزام من ناحية ، وحرية من ناحية أخرى . وهنا يتبادر إلى ذهننا سؤال عن كيفية وجود أخلاق ملزمة مع الحرية ؟

يرد كانط على ذلك بأن الإلزام الأخلاقي ليس حتميا ، أي ليس بالمعنى الموجود به في القوانين الطبيعية ، لأن الإلزام الأخلاقي ينطوي على المسئولية الأخلاقية ، مما يعني أن الأفعال التي تصدر عنا هي أفعال ناتجة عن شعورنا بالواجب ، وهي أعمال متوقفة علينا ، ومن ثم فنحن أحرار إلى حد بعيد .

الحياة الخلقية عند كانط هي إذن حرية خالصة ، فنحن لا نستطيع أن نتكلم عن كرامة الإنسان وكرامة الإنسانية إلا إذا كانت الإنسانية تعني الحرية .
وعلى ذلك فأفعالنا تنبثق عن الواجب والإرادة والحرية .

ويضيف كانط لنفرض أن إنسانا أراد أن يسرق ، إنه إذا ما استسلم لشهوته يكون عمله بعيدا عن المشروعية وعن الأخلاقية . ولنفرض الآن أنه امتنع عن السرقة . أنه ، بذلك ، يكون قد حقق المشروعية ، لأنه سلك مسلكا مطابقا للقانون .لكن هل هو ، لهذا السبب ، يعتبر متصفا بالأخلاقية ؟ علينا هنا

أن نمحص الأسباب التي من أجلها يمكن أن يمتنع إنسان عن السرقة . إنها بالطبع ليست من نوع واحد إنه قد يمتنع عن السرقة خوف سطوة الحرس الأرضي ، أو خوفا من الله الحارس السماوي ؛ أو خشية أن يفقد اعتباره عند أولئك الذين يعيش معهم في بيئة واحدة ؛ أو لأنه استحضر قبل العمل ، في خياله ، ما سيكون من ألم ينزل بضحيته التي يستشعر نحوها شيئا من الرحمة ، أو لأنه يخشى تأنيب الضمير ؛ وأخيرا ، قد يكون المانع أن يقول لنفسه : (إن واجبي هو ألا أسرق ؛ يجب أن أحترم هذا الواجب لأنه هو الواجب ولأن العقل العملي هو الذي أمرني بطاعته) ... هنا يقول (كانت) إن من يمتنع عن السرقة لواحد من الأسباب الخمسة الأولى هو ، في الحقيقة ، داخل القاعدة من حيث أنه مطيع للقانون . ولكن عمله ، مع ذلك ، يبقى عاريا عن صفته الأخلاقية إن لم يكن من دافع ، في سلوكه هذا ، سوى الحساب الشخصي ، ومراعاة المنفعة ، وإرضاء الأنانية . أما الذي يعد مسلكه على سنن الأخلاق فهو الذي امتنع عن السرقة احتراما للواجب أعني خضوعا للعقل . إنه لمقرر أن لا فضيلة بغير مجاهدة النفس ، ومن غير أن (تتغلب الإرادة على الطبيعة) . إنه بهذا الاعتبار يبدو ذا أهلية ، وجديرا بالمدح ، وذا سمو أخلاقي . ومن هنا تأتي هذه العبارة المشهورة :" *إنه لا يكفي أن يعمل المرء واجبه ؛ بل عليه ، أيضا ، أن يعمله بدافع أنه الواجب*" .

وافترض كانط للواجب مصدرا إلهيا . فالدين عنده هو مصدر الأخلاق ، والله سبحانه وتعالى هو المصدر الديني لفكرة الواجب الأخلاقي .

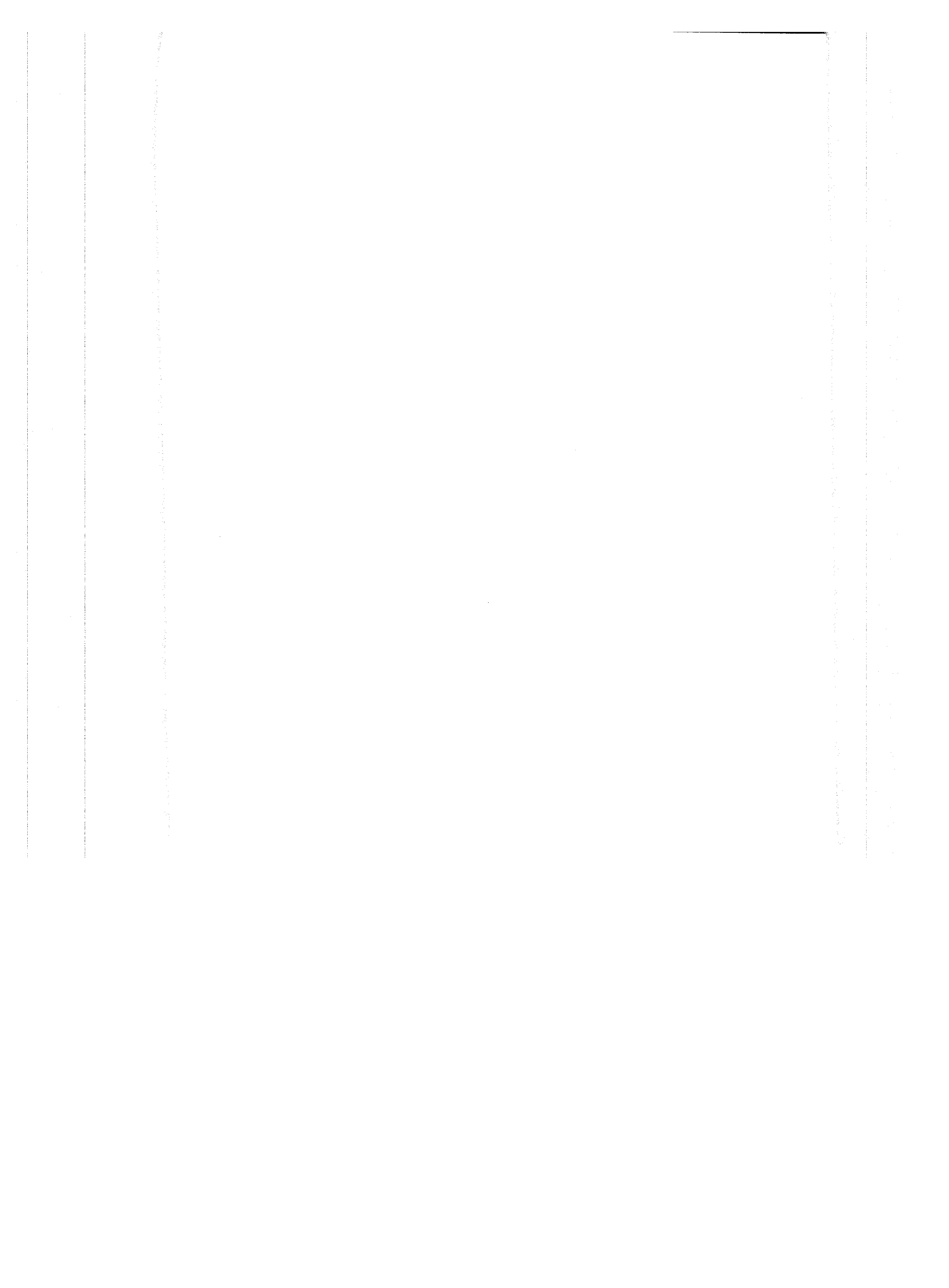
ولقد تعرض مذهب كانط للنقد ، فالنية في ذاتها لا يمكن وصفها بالخيرية أو الشرية ؛ حيث أننا لا نطلق صفة الخير أو الشر على فعل لم يتحقق ، وإنما نطلقها على نتائج تحققت . فالنوايا في ذاتها ليست صالحة أم طالحة ؛ فالقصد

منفصل أصلاً عن العمل أو النتيجة . والإرادة لا يمكن وصفها بالطيبة إذا لم ترتبط بالفعل الإنساني أو السلوك الواقعي ، وبذلك تفتقر الإرادة عند كانط إلى "العمل" ، وتقتصر على النية أو القصد دون أن تتعداها إلى التحقيق العملي .

إن المقاصد أو النوايا ليست أفعالاً ، إنما هي أفعال خاملة ، وكامنة ، وعلة قاصرة ، وهي لم تقع أو تحدث بعد . وسر الخطأ وصف النوايا والمقاصد بصفات أخلاقية ، لأنها إرادات فارغة لم تتحقق في سلوك ، فكيف إذن نصفها بصفة الطيبة . وقد يكون الإنسان طيب النية ، ونجده مع ذلك يأتي أفعالاً مخيبة للآمال .

الفصل التاسع

المذاهب الوضعية والمدارس الممهدة لعلم الاجتماع الأخلاقي



تمهيد :

ظهرت في القرن التاسع عشر محاولات متفرقة لإقامة أخلاق تقوم على أسس علمية ، وتسمى الوضعية ، وتستقل عن نظريات الفلاسفة . ويرى أصحاب هذه المدارس أن الفلاسفة هم الذين يقررون قواعد السلوك ، ويحددون صيغها ، ويضعون لها أسس عقلية . أما هم — أي الوضعيون فيتجهون إلى العلم science ، ويعتبرونه الوسيلة الوحيدة للمعرفة العلمية .

ويقرر الوضعيون أن الظواهر الأخلاقية لا تقوم على الخيال والتأمل ، وإنما يمكن النظر إليها على أنها حقيقة موضوعية ، تستند إلى المشاهدة والوصف الدقيق والمحدد ، باعتبار أنها قائمة بالفعل ؛ فهي تنبذ ما ينبغي أن يكون ، على اعتبار أن ما ينبغي أن يكون لا أساس له من الواقع ، كما أنه من قبيل الوهم الذي ينكره الروح الوضعي .

والأخلاق الوضعية هي أخلاق حقيقية وواقعية لأنها تستند إلى التجربة وهي وضعية بمعنى أنها ليست مطلقة ، ولكنها نسبية ، لأن المطلق بالنسبة للمذهب الوضعي لا وجود له ، إنما يحدد عن طريق القواعد العامة السارية فعلا في مجتمع ما ، والتي يتصرف الأفراد بمقتضاها .

وفي ضوء المذاهب الوضعية تفسر المبادئ الأخلاقية ، والنفور أو حكم الإدانة ، وماشاكلهما في ضوء التجربة أو المنفعة ، أو ترد إلى أسباب مادية أو اقتصادية أو تاريخية تطورية أو بيولوجية أو سيكولوجية أو اجتماعية

التفسير التجريبي والنفعي للأخلاق

نادى فرنسيس بيكون Bacon بوجوب تطبيق المذهب التجريبي علـــى دراسة الأخلاق . وهو المنهج الذي اتبعته المدرســـة الإنجليزيـــة . ويقـــوم هـــذا المذهب على أساس تفسير الشعور الأخلاقي على نحو يماثل الشـــعور الحســـي ، وهذا الأخير هو الذي يؤدي إلى المعرفة . فالخير معناه تجريبياً كل ما يثـير فـــي النفس الشعور بالارتياح . والفعل الخبيث هو كل ما يثير فـــي النفـــس الشـــعور بالقلق.

ونحن إذا وجدنا لذتنا في مؤثر من المؤثرات الخارجية فسرعان ما نرتـب على هذه النتيجة قاعدة تحدد سلوكنا ، ونصوغ هذه القاعدة على النحو الآتي :

" ابحث عن هذا المؤثر لكي تحصل على تلك اللذة "

وعلى ذلك فإن التجربة هي التي تكـــون الضمـــير ، أو هـــي المصـــدر الأساسي لنشأته ، إذ كيف نستطيع بدون التجربة إذا كنا أمام النهر أن نعـــرف إذا كان الماء يحملنا أم لا ؟ يقول هيوم [١] " أن المادة هي المرشد الأساسي في حيـاة الإنسان " .وهكذا يفسر نشأة الضمير الأخلاقي في ضوء المذهب التجريبي .

كذلك أكدت المدرسة التجريبية / النفعية عند " جون لوك " و"دافيد هيـــوم" هذا المعنى ، فمبدأ اللذة والألم هو" مقياس كل قيمة وكل حكـــم قيمـــي. " وبذلـــك أضفى أصحاب هذا المذهب على القواعد الأخلاقية حكما نفعيا .[٢]

---

1 - Hume. David. Essai sur l,entend Humain. Renouvier pillon, 4e Essa.. p. 433
2 - Hume, David, A treatise of Human Nature, Vol. 1. p. 42 .

ويؤخذ على المذهب التجريبي في مجال الأخلاق أنه إذا استخلصنا من هذا المذهب أن العمل الذي يوفر لنا اللذة عمل واجب الأداء ، فمعنى ذلك أننا نفترض قبليا a priori أن اللذة غاية يجب أن نسعى إليها .وهذا الافتراض وحده يجعل المذهب التجريبي خاضعا لمذهب آخر يستمد منه مشروعيته .

كذلك فإن المذهب التجريبي في الأخلاق النفعية لا يتناول إلا الجزئي ، ولا يكشف عن الحالات الكلية ، ولا يفسر تلك العلاقات القائمة بين ظواهر متغيرة ، حيث تفتقر التجربة إلى الكلية والعمومية . وبالتالي فالتجربة قاصرة ولا تتضمن يقينا ، وليست كافية في ذاتها .

علاوة على ذلك ، فإن المذهب التجريبي يستهدف تمييز القيم الحسية وإحلالها في مكان الصدارة ، إلا أن غاية الأخلاق ، على عكس ذلك إنها إعلاء المبادئ الأخلاقية التي تسمو على الحس ــ أي القيم المعنوية أو الروحية . وغالبا ما تتعارض القيم المعنوية مع القيم الحسية ، فتحكم على اللذة أحيانا بأنها لا خلقية

وهكذا نرى أن المذهب التجريبي في مجال الأخلاق يتجاهل العنصر الذاتي الذي يجب أن يضاف إلى معطيات التجربة لتكوين الخصائص الذاتية للضمير الأخلاقي .

النزعة المادية الاقتصادية

تعد المدرسة الماركسية في مقدمة المدارس التي مهدت لظهور علم الاجتماع الأخلاقي . فقد حمل دعاتها على " الأخلاق " الفلسفية التي تجعل من

المبادئ الأخلاقية قيما أزلية مطلقة ، بدلا من أن تدرس " الظاهرة الخلقية " دراسة اجتماعية علمية باعتبارها واقعة تاريخية نسبية . والواقع أن الأخلاق ، في نظر الماركسيين ، مثلها كمثل السياسة والقانون ، إنما تتوقف على الأحوال الاقتصادية والظروف المعيشية لكل مجتمع من المجتمعات . وذلك لأن كل طريقة من طرق الإنتاج ، من حيث إنها تقترن ببعض الظروف المادية والعلاقات الطبقية ، لابد من أن تولد مجموعة من الوقائع الاجتماعية التي تتسبب في ظهور أفكار خاصة وعواطف محددة ترتبط بمسائل السلوك القويم أو العمل الخير. فما هو خير وما هو شر ليسا من خلق عقلية هادئة تصدر أحكامها وفقا لمعايير العدالة الإلهية ، وإنما هي صدى للواقع المادي الذي يجده الإنسان أمامه منذ اللحظة الأولى والذي يحيا في كنفه طوال حياته .ويقرر الماركسيون أيضا أن الأفكار الخلقية الموجودة لدى كل طبقة من طبقات المجتمع لابد من أن تتطور بحسب تطور الوضع الاجتماعي لكل طبقة .

فالأخلاق بالضرورة أخلاق طبقية ، لأن الناس من حيث يشعرون أو لا يشعرون يستمدون أفكارهم الخلقية من تلك العلاقات العملية التي تنبني عليها حالتهم الطبقية أو وضعهم الاجتماعي ، أعني من العلاقات الاقتصادية التي تقوم عليها أساليبهم في الإنتاج والتبادل .فالحالة الاقتصادية العامة هي التي تحدد أفكارنا عن الخير والعدالة .

ويقول إنجلز إن أفكار الخير والشر تختلف من شعب إلى آخر ومن حقبة إلى أخرى ، فليس في دائرة الأخلاق حقائق نهائية ومبادئ مطلقة ، لأنه ليس ثمة قيما ثابتة لا تقبل التغير ، أو معايير أزلية تعلو على الزمان والمكان؛ بل

الأخلاق في صميمها نسبية ، وهي إنما تعكس ما يطرأ على الوقائع المادية من تغيرات أو تطورات .

وعلى ذلك فإن تغير طرق الإنتاج لابد من أن يفضي إلى تغير مماثل في معايير الناس الأخلاقية ، وطرق حكمهم على الأفعال (هل هي خير أو شر ، عدل أو ظلم ... الخ) . هذا إلى أن للطبقات الجديدة بالضرورة مصالح جديدة، وهذه المصالح لابد من أن تستلزم ظهور جزاءات جديدة، وقيام أساليب مغايرة في النظر إلى الخير والشر . وحينما تتمكن طبقة مغلوبة على أمرها من أن تنهض من عثرتها ، وتتغلب على غريمتها . فإن ما كان " خيرا " من قبل سرعان ما يتحول إلى" شر "، وما كان ينظر إليه في الماضي على أنه خطأ لن يلبث أن يكتسب صفة الصواب . ولو نظرنا إلى المجتمع الواحد ، في فترة بعينها من فترات تاريخه ، لوجدنا أن لكل طبقة ، أن لم نقل لكل مهنة ، قانونها الأخلاقي الخاص الذي تحدده ظروفها المادية الخاصة ومصالحها الاقتصادية المعينة . ومعنى هذا أن الظاهرة الخلقية في نظر الماركسية وثيقة الصلة بالظاهرة الاقتصادية ، على نحو ما تتمثل في الحالة الإنتاجية للمجتمع الواحد مع ما يترتب عليها من علاقات اجتماعية [1]

النزعة التاريخية

اعترض أصحاب النزعة التاريخية على فلاسفة الأخلاق وحرصهم على تجريد الإنسان ونزعه من التاريخ ، فالقيم والمبادئ الأخلاقية عند الفيلسوف هي صفات أبدية eternal quality ، أو أوامر سماوية ، أو هي قوى متسامية .

١- انظر د. ذكريا إبراهيم . الأخلاق والمجتمع ص ص ٢١ - ٢٧

بينما قال أصحاب النزعة التاريخيـة أن الظـروف conditions التـي تحيـط بالإنسان هي التي تؤدي إلى ظهور مبدأ أخلاقي ، وتتحكـم فـي إدراك الإنسـان وأفعاله . فظروف الإنسان البيولوجية والجغرافية والطبقة الاجتماعية التي ينتمـي إليها الفرد ، والظروف الاجتماعية المختلفة هي التي تشكل المبادئ الأخلاقية .

ويقول أصحاب النزعة التاريخية أن واضعي فلسفة الأخلاق أنفسهم مـن أمثال " أرسطو " و " كانط " إنماهم بشر يعيشون في تـاريخ ، ويفكـرون داخـل إطار الزمن ، حتى أننا نجد في طيات ما يكتبون كثيرا مـن الأفكـار والجوانـب الواقعية والتاريخية التي صدرت عن واقعهم التاريخي والاجتماعي .

ورغم شـك " ديكارت " في ذاته وفي العالم ، فقـد احتفـظ بصورتـه كإنسان ، وفيلسوف فرنسي يعبر عن فلسفة القرن السابع عشر .

أما علماء الاجتماع فيرون أن القيم والمبادئ الأخلاقية لا تنفصـل عـن العملية الاجتماعية ، ولا معني للحديث عن المبادئ الأخلاقية باعتبارهـا مسـتقلة عن الذات المقيمة ، أو الجماعة التي تكون هذه القيم .

ولهذا فعند دراستنا للمبادئ الأخلاقية إنما تتطلب أن نضع هذه الظـروف في الاعتبار تطبيقا للمبدأ السسيولوجي القائل بأننا : لا نعرف أية فكرة كـاملة إلا بالرجوع إلي تاريخها .

ويعد كارل مانها يم الممثل الحقيقي للنزعة التاريخيـة ، إذ نظـر إلـي الأصول التاريخية والظروف الاجتماعية كمصادر أساسية لنشأة القيم . فالزمـان

التاريخى – عنده – هو الذى يخلق الفكر ، ويفسر المبادىء الأخلاقية ، ويضع الزمان القيم التي تعبر عن روح العصر ؛ ذلك أن كل عصر من عصور التاريخ يتميز بنسق ثابت من القيم والمبادىء الأخلاقية ؛ فاندحار القيم البورجوازية أمام تقدم البروليتاريا يعتبر سمة تاريخية لهذا الزمان .

وعليه فإن المبادىء والقيم لا توجد خارج التاريخ ، وإنما هي وليدة عمليات التاريخ ، والصراعات التاريخية ، والعلميات الثقافية ، والأوضاع الطبقية . وبالتركيز علي ذلك البعد التاريخي نجد أن القيمة الأخلاقية هي نتاج ارتباط الإنسان بالأنا والمجتمع ، وتخضع في نفس الوقت لحركة الزمان التاريخي .

والتقييم Valuation عند مانهايم ليس فعلا من أفعال الفرد ، بل هو من اختصاص الجماعة. ويعكس التقييم وظائف القيم والبناء الاجتماعي والتاريخي .

أما تغير القيم ، فيحدث حين يصبح المجتمع ديناميا ، ويظهر صراع القيم عندما تكون هناك جماعتان أو أكثر مختلفان ، وحدث بينهما التوافق ، أو سيطرت إحداهما علي الأخرى .

وهكذا فإن القيم التي يدرسها أصحاب النزعة التاريخية هي قيم موضوعية تصدر عن المجتمع والتاريخ ، وتختلف عن القيم الذاتية التي حدثنا عنها الفلاسفة .[1]

---

١ - انظر د. قبارى محمد إسماعيل . علم الاجتماع والفلسفة – الجزء الثالث – الأخلاق والدين ص ص ٤٠ – ٤٣ وانظر د . قبارى محمد إسماعيل . قضايا علم الأخلاق – دراسة نقدية من زاوية علم الاجتماع ص ٢٠٨

المذهب التطوري

ذاع المذهب التطوري في القرن التاسع عشر • ويعد هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣م) من أصحاب هذا المذهب • وقد صدرت له عدة دراسات كان أولها " الثبات الاجتماعي " Social Statics " ، ونسق الفلسفة التركيبية ، ومبادئ علم الاجتماع ، ووقائع الأخلاق (١٨٧٩) ، ومبادئ علم الأخلاق (١٨٩٢) • كما صدرت له عدة مقالات تتناول الأخلاق ، والنظرية السياسية ، والتربية ، وتغير طبيعة الأحزاب السياسية ، وأهداف الفن ، وأصل الموسيقي •

تأثر سبنسر بنظرية داروين في النشوء والارتقاء • وتقوم نظريته على أساس قاعدة عامة مؤداها أن التطور هو القانون الأسمى لكل موجود . وهو حقيقة عامة تصدق في مجال علم الطبيعة ، كما تصدق في مجال علم الحياة، ومجال علم النفس ، ومجال علم الاجتماع ، ومجال علم الأخلاق •

ونظر سبنسر إلي التطور الاجتماعي باعتباره استمرار للتطور الذي يسمية "ما فوق العضوي للحيوان "، وهذا بدوره ليس إلا استمرارا لعملية التطور العضوى ، فالمجتمعات تتطور في حركة مستمرة من المجتمعات البسيطة إلي المستويات المختلفة المركبة • وفي المجتمعات البسيطة يعمل الناس نفس الأعمال ، بينما يسود المجتمعات المركبة التخصص ، وتقسيم العمل والتعاون المتبادل •

واخترع سبنسر عبارة " البقاء للأصلح " ، واعتبرها القوة الرئيسية التي تكمن وراء التقدم التطوري ، فالصراع من أجل البقاء داخل المجتمعات أو بينها

في نظره تؤدي إلي خلق حالة من التوازن الاجتماعي ، لأنه التحول البطيء الذي تمر به جماعة من حالة التجانس إلي حالة اللاتجانس .

وربط سبنسر فكرة الضمير الأخلاقي بمبدأ التطور ، وفكرة البقاء للأصلح ؛ ذلك أن التغيرات النافعة ، والوسائل النافعة في السلوك تظل باقية وقائمة ، ويحتفظ بها أفراد الجنس البشرى مادامت هي صالحة وذات فائدة . وعلي ذلك فقد نشأ الضمير الأخلاقي عن التغيرات التي تعتري الجنس بمحض الصدفة ، فظهرت فائدتها وتمسك بها الناس ، وتأصلت فيهم عن طريق الوراثة.

ويضيف سبنسر أن " السلوك الخير إنما هو السلوك الذي يزيد حظه من التطور ، بينما السلوك الشرير إنما هو السلوك الذي يقل حظه نسبيا من التطور . ومعني هذا أن السلوك الأفضل لا يخرج عن كونه ذلك السلوك الذي يجيء متأخرا في مسرى التطور ، والذي يكون بالتالي أكثر تعقدا من كل ما تقدم عليه من سلوك مماثل أو من نفس النوع .

و لا يؤمن سبنسر بإمكان قيام " أخلاق مطلقة "، بل يذهب إلي أن " الأخلاق نسبية " ، ويبدو ذلك في اختلاف الأحكام الخلقية من مجتمع إلي آخر ، ومن حقبة إلي أخرى . كذلك فهو لا يري أن للأخلاق صبغة دينية ، ولكنه يقرر أن القوانين الأخلاقية لا تقل وضوحا عن قوانين الطبيعة نفسها .

ويرد سبنسر علي أصحاب المذهب النفعي فيقول : إذا كان البعض يزعم أن الأخلاق تقوم علي أساس حساب نفعي ، فإنه يرد علي ذلك بأن السعادة لا يمكن أن تحسب بدليل أنها نسبية إلي حد أقصى .

ولا يقيم سبنسر مذهبه في الأخلاق علي أساس العوامل الباطنة أو القوي الداخلية التي يتبناها بعض فلاسفة الأخلاق ، بل يذهب إلي أن الأخلاق موضوعية في أصلها ونشأتها ، ويحددها العلاقة بين الفرد والمجتمع • وعلي ذلك فللأخلاق طابعا اجتماعيا ، وكل ما يمكننا أن نتحدث عنه هو سلوك الإنسان الكامل في المجتمع الكامل •

والحقيقة أنه إذا ما أرجعنا نشأة الضمير الأخلاقي إلي التغيرات التي تعتري الجنس بطريق الصدفة ثم تفرض نفسها عليه ، فإننا تسلب من هذا الضمير أهم خصائصه ، وهي حريته • كذلك فإن قبولنا لهذا التفسير يتضمن القول بأن النتائج التي تترتب علي عملية "الانتقاء الطبيعي" هي بالضرورة خير النتائج • وفي ذلك ما يجعل القيمة المطلقة خاضعة للقيمة البيولوجية •

الاتجاه البيولوجي

وعلي شاكلة المذهب التطوري نزع الاتجاه البيولوجي إلي النظر إلي الذات الإنسانية علي أنها مجرد امتداد للذات العضوية • ويتميز في نظر أصحاب هذا الاتجاه – النشاط العضوي كالهضم عن النشاط الإرادي كالتعاقد والالتزام في أن الأول يخص جزءا من أجزاء الكائن الحي ، أما النشاط الثاني فهو من يخص الكائن الحي بأكمله بما في ذلك المراكز العقلية والعصبية •

وهكذا نستطيع أن ننتقل من مجال البيولوجيا إلي مجال الأخلاق ، وبالتالي نستطيع أن تميز بين الخلقي واللاخلقي ، كما نميز بين حالة الصحة وحالة المرض •

ويتمثل هذا الاتجاه في دراسة لوب Loeb حيث أشار إلي ذلك في كتابه المبدأ الآلي للحياة " La Conception mecanique de la vie فذكر أن الغرائز هي الجذور التي تتفرع عنها الأخلاق . وهذه الغرائز وراثية ، وإذا ما تعطل بعضها كما تتعطل بعض الوظائف الفسيولوجية ، فإن هذا العطل ينتقل إلي سلالتهم .. وإذا كانت هذه السلالة كثيرة فإن ذلك يؤدى مع الوقت إلي أضعاف الحالة الخلقية للجماعة بأسرها.

وربط بعض المهتمين بالطب العلاجي therapeutique بين بعض نواحي الأخلاق (كالشهوات والعواطف) وبين حالات الجسم ، فذكروا أن الشهوات الجامحة ، والميول المنحرفة سببها نقص طبيعي يصاحب ولادة الإنسان، أو خلل يطرأ علي أجهزته .فقد لا تستطيع الإرادة أن تتحكم في عواطفنا الخلقية ويعود هذا إلي حالتنا الجسمية .

ويترتب علي ذلك أن تصبح التربية الأخلاقية عديمة الفائدة ، إذ أنها لا تغير شيئا من طبيعة الإنسان . وكل ما تفعله الوسائل العلاجية النفسية كالإيحاء ، والتحليل النفسي أنها تعطل ظهور الأعراض نوعا ما ، ولكنها لا تقضي علي أسباب المرض . ولما كانت أسباب المرض الخلقي ترجع في معظمها - حسب ادعائهم - إلي خلل جسماني ، فإن العلاج الجسماني قد يعود بنتائج طيبة في محاربة الشهوات الخبيثة وعلي ذلك فإن الشر مثلا ، وهو ينتج عن ازدياد الإفرازات المعدية ، والإفرازات الحمضية يمكن أن يعالج بالوسائل التي تقلل من هذه الإفرازات ، وباتباع النظام الذي يزيد من الإفرازات القلوية . ويمكن القياس علي ذلك بالنسبة للشهوات الأخرى والميول المنحرفة علي شرط أن نصل أولا إلي تحديد أسبابها الجسمانية .

هذا ويلاحظ علي هذه النظريات جموحا وغلوا في تطبيق العلم علي دراسة الأخلاق • ويرجع هذا الجموح إلي رد الفعل الذي ظهر في القرن التاسع عشر ضد الفلسفة وطريقتها في التفكير . كذلك يعود هذا الغلو إلي صدي ما آنسه العلماء من قوة العلم ، فجاءت آراؤهم متوافقة مع نشوة انتصار العلم في جميع الميادين • (١)

الاتجاه السيكولوجي

لجأ بعض علماء النفس وعلماء النفس الاجتماعي إلي تفسير الظواهر الأخلاقية في ضوء النواحي النفسية ، وإمكانية تصور هذه المبادئ باعتبارها عناصر في الشخصية ؛ وذلك بالتركيز علي الذات واتجاهات الفرد وعواطفه ودوره •• ويقف علي قمة هذا الاتجاه عالم النفس الشهير سيجموند فرويد Sigmond Freud

وقد قسم فرويد (١٨٥٦ - ١٩٣٩) الذات Self إلي ثلاثة أجزاء هي : الهو The ide، والأنا ego ، والأنا العليا Super ego ، وألـ ide هي الدوافع الفطرية ، وأساس جلب الملذات للفرد ، ويستخدمها النفسيون في تفسير مظاهر معينة في السلوك كالعدوان •

أما الأنا فيقصد بها الوعي الذاتي ، والذات الشخصية Personal self ، وهي تتمتع بتأثيرات وقوى ذات اتجاهات ثلاث أولها : تتابع الدوافع الناجمة من جسم الفرد وأعضائه أي طاقة الفرد • وثانيها : المنبهات ، وهي الأعضاء

١- أنظر د . السيد محمد بدوى . المدخل إلى علم الاجتماع ص ص ٢٠٠ - ٢٠٣ .

الجسمية والحسية • وثالثها : البيئة الاجتماعية ، وهي التي تتخلـــل الشـــخصية ، وتتمثل في الأنا العليا .[1]

وتنمو الأنا العليا من خلال التنشئة الاجتماعية ، وتكوين العلاقـــات مـــع الآخرين • وتشمل رموز الجماعة التي تخص الخـــير والشـــر • ويتعلـــم الفـــرد ويكتسب هذه الرموز ممن يحيطون به من أقران ، وعلي وجه الخصـــوص مـــن الأبوين •

وفسر فرويد النشاط البشرى علي أساس أن مصدره الغريزة الجنســـية ، وجعل الجنس هو المحرك الوحيد للسلوك الإنساني • وفرض هذا التفسير علي الأخلاق والدين والفن والفكر •

أما جورج ميد George Herbert Mead فقد ولد عام ١٨٦٣ فـــي جنـــوب هادلي في ماسا شوسيت ، وكان أبوه وزيرا للشئون الدينية • وبعد سبع ســـنوات من مولده انتقلت الأسرة إلي أوبرلين Oberlin في أوهيو ، وعين أبـــوه أســـتاذا للوعظ في معهد اللاهوت • ومات أبوه عام ١٨٨١ ، وتولت أمه تربيته ، التي عملت مديرة لمعهد سانت هوليوك Holyoke لمدة عشر ســـنوات • وكـــانت أمـــه تتجنب المناقشات الفلسفية معه، ومع ذلـــك فقـــد أتخـــذ اتجاهـــا عقلانيـــا يتســـم بالحرية .[2]

1- Talcott Parsons . Action Theory and Human Condition . P.416 .

2 - James A. Scheilenberg, Masters of Social Psychology. freud, Mead, lewin and skinner. P.38 .

واهتم جورج ميد بدراسة كيف تصبح الاتجاهات المعيارية Normative attitude الجزء الرئيسي من الشخصية . وفي كتابه العقل والذات والمجتمع Mind, Self and Society (١٩٣٤) درس نشاط أو سلوك الفرد كما يقع في العملية الاجتماعية . ذلك أنه لا يمكن أن نفهم سلوك الفرد إلا من خلال سلوك الكل الجمعي ، ولا توجد الذات منفصلة عن المجتمع . وهي تمر بمرحلتين لاكتمالها . ففي المرحلة الأولي تتكون بواسطة تنظيم " اتجاهات خاصة " للأفراد نحو الذات المكونة ونحو بعضهم البعض في مواقف معينة . وفي المرحلة الثانية تتكون الذات ليس بواسطة هذه الاتجاهات الفردية فقط ، وإنما بواسطة تنظيم الاتجاهات الجمعية للجماعة الاجتماعية ككل والتي ينتمي إليها الشخص . [1]

ويؤخذ علي ميد أنه كان فيلسوفاً أكثر منه عالماً ، فهو لم يستخدم في دراسته الملاحظة ، ولم يقم ظواهر يمكن أن تقاس إمبيريقياً ، وتشكل افتراضات قابلة للاختبار .

أما عالم النفس السويسري جان بياجيه jean Piaget صاحب نظرية "النمو العقلي" ، فالطفل من وجهة نظره يؤثر ويتأثر بالبيئة التي يوجد فيها ، والقواعد الأخلاقية ليست حقيقة موضوعية ، ولكنها تعكس قيم الجماعة ، وهي ليست مطلقة ، ولكنها متفق عليها agreed upon .

النزعة الوجودية

يمثل هذا الاتجاه الفيلسوف الوجودي " سورين كيركجورد " ويرى كيركجورد أن الإلزام الخلقي ليس واجباً مفروضاً من خارج الإنسان ، بل هو

1-See Mead. G.H., Mind,Self and Society,From Standpoind of social Behavioirist,P.163.

إرادة قوية تنبع من ذاته . ولذلك افترضت الأخلاق الوجودية فكرة الحرية ، باعتبارها الشاهد الوحيد على قيمة الإنسان ووجوده .

ومن ثم لا يخضع الإنسان عند " كير كجورد " . في مجاله الأخلاقي إلى " سلطة خارجية " ، وإلا أصبح أداة في يد الآخرين ، أو دمية يحركها المجتمع كما يهوى ، ولذلك فإن الإنسان الأخلاقي الحق ، هو الذي يختار "قيمه" وحريته . وعلى ذلك فإن الذات وليس المجتمع هي المصدر الوحيد لكل سلطة أخلاقية . ولذلك يقول كيركجورد في عبارة مشهورة : " اختر ذاتك قبل أن يختارها لك الآخرون " .

فالإنسان في كيانه حرية ، وهو في ذاته اختيار حر ، ولذلك كانت الحرية هي جوهر الإنسان وغايته ، ولا يختار الإنسان حريته ، وإنما فرضت عليه الحرية ، بمعنى أن الحرية هي أمر حتمي مفروض على الإنسان ، فهو "حر" و"مختار" بالضرورة .

أما إدوارد فون هارتمان (١٨٤٢ -١٩٠٦) فله عدد من الكتب في الأخلاق وفلسفة الدين والمسائل الفلسفية والاجتماعية وتاريخ الميتافيزيقا .. ونشر كتاباً وهو في السابعة والعشرين بعنوان " فلسفة اللاشعور" (١٨٦٩) . وفيه يقول : أن في الكائنات الحية وظائف وغرائز تفترض عقلاً أوسع من عقلنا وأقصى عزماً ، وهو مع ذلك لا شعوري .[١]

١- انظر يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة . ص ٤٠٥ .

والقيم من وجهة نظر هارتمان مطلقة وليست نسبية . وهي ما هيات قبلية مطلقة ذات وجود مثالي تملك استقلالاً ذاتيا . فهي تشكل عالما خاصا بها موجودا بذاته كمملكة أخلاقية مثالية .

وتتركز هذه الموجودات الأخلاقية على أساس بيولوجي ، وترتبط بكائن عضوي ، وكل تطور لها يكون مشروطا بتطور الحياة ، فالقوة الأخلاقية تقوم بقيام الحياة وتتدهور بتدهورها ، وتتطور بتطورها . وعلى ذلك تكون الحيوية والقوة ودرجة الحياة في الإنسان قيمة ملائمة . ويتطلب ذلك المحافظة على الحياة، والتي في مقابلها يقف الموت كرذيلة ، فهو فناء للحياة الروحية والشخصية .

والقيم عند هارتمان نوعان .

أولا : قيم الأفعال : ويتدرج تحتها الفاعلية والقوة والتحمل ، ويصدق كذلك على الحرية والبصيرة والفاعلية الغائية ، كما يندرج تحتها قيمة الخير .

ثانيا : قيم السلوك (الفضائل) :

وتشمل العدالة ، والحكمة ، والشجاعة ، وضبط النفس ، والجد الأخوي، والصدق ، والوثوق ، والثقة ، والتواضع ، وحب البعيد ، والشخصية .[4]

وربط هارتمان بين القيم الأخلاقية والواجب . ولكن الذي لا شك فيه أن كانط قد سبق هارتمان في هذا الخصوص . فكل فعل من الأفعال له قيمة يصدر عند كانط ، عن الواجب . وهذا الواجب يتميز بالكلية والضرورة ، وطاعته ضرورية ، وهذه الطاعة ليست قسرا ولكنها نوع من الاحترام .

٤-انظر د. محمود سيد أحمد : المرجع السابق ص ص ٤٥ – ٦٢ .

أما الواجب الوضعي فهو يختلف عن الواجب المثالي ، وهو يظهر عندما الواجب المثالي نفسه يكون متعارضا مع الواقع ، مما ينجم عنه أن ارتباط القيمة بهذا الواجب مشروط بشرط هو أنها لا تكون واجبه وضعيا إلا عندما لا تكون محققة واقعيا .

والذات – عند هارتمان – ليست شيئا ينبغي أن يكون ، بل هي موجود فعلي يخضع لقوانين الوجود الفعلي ويخضع للوجود والفناء . ولكنها تختلف عن الموجودات الأخرى من حيث العالم الباطني والوعي . وهذه الذات هي وسيط بين المجالين : المثالي والواقعي . وهذا يشير في رأي هارتمان – إلى أنها تكون مرآة الوجود ، إذ ينعكس الوجود في الذات .

وهكذا نجد أن هارتمان قد أعطى للإنسان من حيث هو شخص أهمية كبري في فلسفته الأخلاقية ، فهو كائن حر ، عنده القدرة على التنبؤ والتوقع ، وعلى وضع غايات بفاعلية وإرادة . وهو يستطيع أن يحقق هذه الغايات ، ويستطيع كذلك أن يكون وسيطا بين عالم القيم المثالي والعالم الواقعي .

ويضيف هارتمان أن الإنسان لكي يتمكن من تنفيذ خططه في العالم ، ينبغي عليه أن يدرك هذا العالم ويفهمه .[1]

١- نفس المرجع : ص ص ١٥٣ – ١٥٤ .

الفصل العاشر
الأخلاق من المنظور الاجتماعي



تمهيد :

أخذت الأخلاق منذ القرن الثامن عشر تميل إلى أن ينظر إليها من المنظور الاجتماعي . فقد اعترض علماء الاجتماع على تلك الأخلاق الصورية،وخرجوا على ميتافيزيقا كانط للواجب المطلق . وقرروا أن كل فرد منا يتلقى ضميره الأخلاقي من الوسط الاجتماعي الذي يولد ويعيش فيه ، وذلك بما تشمله من عادات وتقاليد وعقائد وحكم ، وهي ما تعرف بالثقافة والتثقيف المنظم.

ولا شك أن واجباتنا محددة سلفا ، والضغط الاجتماعي يفرضها على كل امرئ منا ، وقد يستطيع الإنسان في بعض الحالات أن يقاوم هذا الضغط وأن يسلك سلوكا مخالفا لما يتطلب منه ، لكنه لا يستطيع تجاهله ، ولا يستطيع بحال أن يتخلص منه . وإذا لم نتحدث عن العقوبات الإيجابية التي توقع في الجرائم والنصوص التي حددها قانون العقوبات ، فإن الضغط الاجتماعي يدل على وجوده ببعض العقوبات الشائعة .

كذلك فإن الحكم على أفعال الإنسان وتصرفاته ، لا تأتي من خلال ضميره فحسب ، بل من خلال ضمير المجتمع ، فالتيارات الخلقية ترجع إلى أصولها الاجتماعية .

وعالم الاجتماع يحاول أن يحرر الأخلاق من كل نزعة ذاتية عاطفية ، ومن ثم فهو لا يدرسها كما يدرسها الفلاسفة ، وإنما يدرس دراسة وضعية أنواع **السلوك التي يسلكها الناس في بيئة معينة وفي عصر معين ، ويتمثل ذلك في القوانين السائدة والعادات المتبعة ، والتقاليد المتوارثة ، والأمثال الشعبية ، والحكم المتواترة ، والأعمال الأدبية .**

أما المنهج الذي يستخدمه عالم الاجتماع في دراسة المبادئ الأخلاقية ، فهو ليس منهجاً استنباطياً ، ولا حدسياً ، أو تأملياً نظرياً ، وإنما هو منهج كمي استقرائي ، يستند إلى الملاحظة والتجربة . ويستهدف عالم الاجتماع بهذه الدراسة، واستخدام هذه المناهج الوصول إلى القوانين التي تحكم هذه الظواهر وتنبؤنا بما سيحدث في المستقبل .

الأخلاق إذن ظاهرة اجتماعية لها أصولها ومصادرها الاجتماعية ، ومن ثم فهي ليست مطلقة ، وإنما تتسم بالوضعية والنسبية ، وتختلف باختلاف الزمان والمكان ، فما هو أخلاقي وفاضل في ثقافة قد لا يعد كذلك في ثقافة أخرى .

واستنادا إلى تلك الأسس الوضعية والنسبية ، صدرت أصول المذهب الاجتماعي في دراسة الأخلاق ، وتحولت الأخلاق من مجال الواجب ، والمطلق إلى مجال الحادث والنسبي ، ومن ميدان ما ينبغي أن يكون إلى دراسة : "ما هو كائن بالفعل " .

وقد أرسى هذا المذهب " أوجست كونت " وأكمل جهوده إميل دور كايم، ثمَ ظهرت كتابات " ليفي بريل " " وألبير بايية " ، حيث انشغل كل منهم بمسألة أو عدد من المسائل الخاصة بالمشكلة الأخلاقية ، واعتمدوا على الملاحظة العلمية ، وطرق البحث العلمي .

الأخلاق في مذهب " أوجست كونت "

قام أوجست كونت (١٧٩٨ – ١٨٥٧) بتأسيس علم الاجتماع حوالي ١٨٣٠ ، وقصد من إنشاء هذا العلم الوصول إلى قواعد خلقية وسياسية ثابتة ،

ونهائية تحقق السعادة الإنسانية . وكان كونت شديد الاقتناع بأن الأخلاق هي علـم وضعي . وتعني الوضعية عنده أنها بعيدة كل البعد عن كل فكرة دينية أو لاهوتيـة خالصة ، وعن كل مصدر ميتافيزيقي .

والوضعية عند كونت – تعني أنها لا تقوم على الخيال ، ولا تصور مـا يكون ، ولا تستند إلى التحليل التجريدي لما يحتويه قلب الإنسـان مـن مشـاعر خاصة ، بل تستند إلى العلم ، وتقوم على الملاحظة والواقع ، وتنظر إلى الإنسـان كما هو كائن بالفعل ، لا كما نتصور أن يكون ، كما تقوم علـى التجـارب التـي أحرزتها الإنسانية ، والدوافع التي دفعتها لأنواع النشاط .

وتعني الوضعية عند كونت أنها تؤمن بالسببية ، وتستهدف دراسـتها الوصول إلى قواعد وقوانين أخلاقية ثابتة ونهائية تحكم الظواهر ، وتحقق المحبـة، والعيش مع الآخرين ، وسعادة الإنسانية .

والأخلاق باعتبارها تأتي ترتيبها بعد علم الاجتماع لأنه أكـثر تعقيـدا ، ومع ذلك فهي لم تدخل في التصنيف الذي وضعه للعلوم الأساسية ، وإن كان قـد أضافها في أواخر حياته إلى قائمة العلوم الستة الأصلية : الرياضـة ، والفلـك ، والفيزياء ، والكيمياء ، والبيولوجيا ، وعلم الاجتماع .

وتبدو وضعية الأخلاق في أن المشكلة الأخلاقية تؤكد علـى أن يعمـل الإنسان ما استطاع لكي تتغلب غرائز المودة بين الناس على دوافع الأثرة ، ولكـي تتغلب النزعة الاجتماعية على الشخصية الفردية .

واعتبر كونت مبدأ " العيش مع الآخرين " Vivre Pour autrui قاعدة عامة للأخلاق الوضعية . والشق الأول في رأيه ــ أساس للشق الثاني . وتعمل هذه القاعدة على تحقيق الانسجام بين جميع الناس عن طريق الإرادة الطيبة المتبادلة بينهم ، ويتأتى ذلك عن طريق تحقيق الانسجام في كل نفس فردية ، وذلك بإخضاع الأنانية للعواطف الغيرية . ولكن هذا الانسجام أبعد من أن يتحقق في بادئ الأمر ، إذ تحتدم الأهواء في كل نفس فردية ، ويندفع الخلاف بين أعضاء الطائفة الواحدة ، وتستعر الحرب بين الطوائف الاجتماعية ، وذلك كله حسب الظروف التي تختلف تفاصيلها اختلافاً كبيراً أو صغيراً .ومن هنا نشأت الحاجة إلى " قيد عام " يضمن نمو الميول الغيرية .

وعلى ذلك تنحصر الوسيلة الأساسية لتحسين الأخلاق في الإقلاع عن التناقض والتردد والتشتت التي تصيب أغراضنا . ويأتي ذلك عن طريق ربط عاداتنا العقلية والخلقية والعملية ببواعث خارجية . وأول هذه البواعث وجود الإنسان في المجتمع ، واتصاله المستمر بأفراد أسرته ؛ مما يتيح له فرصة التدريب على الإيثار وإنكار الذات . ولكي يكتب البقاء لانسجام النفس يجب أن يبدو لها هذا الانسجام كما لو كان قائماً على أساس العقل ، وعلى أساس نظم الكون .

ويضاف إلى ذلك أن المرء يجد أن العواطف الخيرة هي في ذاتها منبع الرضا والغبطة ، وأن هذا الرضا لا ينضب . فالمرء يسأم من العمل ، ويسأم من التفكير ، ولكن لا يسأم من المحبة .

واعتبر كونت نسبية الأخلاق ضرورة نظرية ، وعقليه تقتضيها المعرفة عموماً طبقاً لتعاليم المذهب الوضعي ؛ فالإنسان مما وضع فيه من عقل وقدرة

محدودة لا يستطيع الوصول إلا إلى النتائج النسبية ، والفرد الذي يقع نظرنا عليه يعكس في أفكاره وتصوراته وفي أحكامه تراث أجيال عديدة . وهكذا تختلف الأخلاق حسب البناء الاجتماعي من مجتمع إلى آخر ، كل له أخلاقه الخاصة التي حددتها الظروف المعيشية . وليس في استطاعتنا أن نبث في نفوس شعب مبادئ أخلاقية دون أن يشيع بينهم ضرب من التفكك .

وتتحقق هذه النسبية في المجتمع الواحد خلال الزمان تحت ضغط التغير الاجتماعي . فالتغير في بعض النظم والتساند الوظيفي بين النظم المختلفة يؤدي إلى تغير مماثل في النظام الأخلاقي .

ولذلك رفض كونت المطلقات التي نادى بها عما نويل كانط ، فهي فكرة زائفة لا يقبلها العلم الوضعي الذي يقتصر على النسبية ؛ لأن المطلق **l'absolu** لا وجود له في العالم .

وقد أعطى كونت فكرة "الواجب" أهمية أكبر مما أعطى لفكرة "الحق". فالواجب في نظره هو القاعدة التي يعمل بمقتضاها الفرد وتفرضها العاطفة والعقل معا . وكل فرد عليه واجبات قبل الجميع وإذا خرق الإنسان القاعدة التي تأمره بألا يقتل ، فإنه يتعرض للتأنيب أو العقوبة . وعلى ذلك يمكن أن يطلق اسم "الجزاء" على النتائج التي ترتبط بالفعل الخلقي . ونحن ملزمون بأن لا نقدّم على الأفعال التي تحرمها المبادئ الأخلاقية دون أن يكون هناك من سبب إلا أنها تحرمها . وذلك ما نطلق عليه صفة الإلزام بالنسبة للقاعدة الخلقية .

أما فكرة الحق فيقول كونت أنه يجب أن تختفي في الحالـــة الوضعيـــة ؛ فليس الإنسان "حق" بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . وفكرة الحق فكرة خاطئة بقــدر ما هي منافية للأخلاق ، لأنها تفترض مبدأ الفردية المطلق .

ويؤخذ على فكرة النسبية التي قال بها كونت أن بعض العلماء رأي فيـــها انحدارا نحو نفي الأخلاق برمتها . فالخير إما أن يكون مطلقا حسب ما تتصـــور هذه العقول ، وإما أن ينعدم التمييز بين الخير والشر . وليس هنـــاك حـــد وسـط بينهما . وقد نسى هؤلاء أن عقبات مماثلة قد ســبق أن تعرضـــت لـــها المعرفـــة العلمية ، فكم قيل في العلم : إما أن تكون الحقيقة مطلقة أوّلا يكون هنـــاك حقيقـــة أبدا .

والحق أن وضع المسألة على هذا النحو يعد خاطئا . فقد أثبـــت العقـــل البشري أن بإمكانه أن يُبْقى على حقائق نسبية ، ولابد أن يأتي الوقت الذي يصبـــح فيه مثل هذا الحل مقبولا بالنسبة للأخلاق . وسوف لا يـــترتب علـــى الاعـــتراف بنسبية الأخلاق في الضرر أكثر مما يترتب على الاعتراف بنسبية العلم .

أميل دور كايم
Emile DurKheim
(١٩١٧ – ١٨٥٨)

يرى إميل دور كايم أن هناك أخلاق بين البشر ، طالما هناك تمييز بيـــن "الخير والشر" . وهذا التمييز هو ما نطلق عليه الظاهرة الخلقية التي كرس وقتـــه وجهده في تعريفها ، وملاحظتها ، فـــإذا كنـــا لا نســـتطيع أن نـــدرس الظواهـــر

الاقتصادية أو التشريعية أو الدينية أو اللغوية إلا إذا قمنا بملاحظتها وتحديد خواصها وتحليلها ومقارنتها ، فكذلك الحال بالنسبة للظواهر الأخلاقية .

وقد عرف دور كايم الأخلاق بأنها عبارة عن مجموعة من القواعد العملية الثابتة التي تحدد سلوكنا . والسلوك الخلقي هو السلوك وفقا لمقياس norme أو قاعدة تحدد كيف يجب أن نتصرف في الحالات والمواقف التي تَعرّض لنا دون أن نخالف في ذلك ضميرنا أو العرف السائد في مجتمعنا . كذلك فهي تمنع الفرد من أن يطأ المناطق المحرمة . إنها إذن نظام ضخم من النواهي.

وأعتمد دور كايم في مجال الأخلاق على المعطيات المستمدة من واقع الحياة الاجتماعية ، حيث تظهر القواعد الأخلاقية في مظهرين : مظهر موضوعي ومظهر ذاتي ، فلكل شعب أو ثقافة قواعد أخلاقية تتسم بها الحياة الجمعية وتسود في حقبة معينة من الزمن ، بمعنى أن هناك أخلاقا يشترك فيها الأفراد في مُجتمع معين بالذات .

ومع ذلك هناك عدد من الأخلاق الخاصة لا حصر لها ، فكل فرد وكل ضمير خلقي يعبر عن الأخلاق العامة بطريقته الخاصة ، ولا يوجد ضمير يعكس لنا صورة مطابقة للأخلاق السائدة في زمانه . فكل ضمير فردي ينظر إلى القواعد العامة بطريقته الخاصة .

وإذا كنا نريد دراسة الأخلاق دراسة موضوعية فنحن ندرس المظهر الأول لأنه يعبر عن الحقيقة الخلقية الموضوعية التي تعد المصدر العام الذي

نستطيع عن طريقه أن نحكم على الأفعـــال الفرديـــة . هـــذا واختـــلاف الضمائر الفردية يعوق دراسة الأخلاق دراسة موضوعية .

ولذلك رفض "دور كايم " واجبات وقواعد العقل العملي الخالص ، وقبـــل الواجب الخلقي حين يصدر عن المجتمع ، على اعتبار أن المجتمع هـــو الكـــائن الأخلاقي الأعظم الذي تصدر عنه الحياة الأخلاقية .

ويتضمن السلوك الأخلاقي فكرة الطاعة أو الخضـــوع للنظـــام ، ومـــن يخرج عليها يلقي الجزاء . ويكون الجزاء نتيجة لفعل ما ، ولكنـــه لا ينتـــج عـــن طبيعة الفعل ذاته ، بل عن عدم موافقة الفعل لقاعدة يقررها المجتمع .

والأخلاق خارجة عن الفرد ، وهي تنشأ وتفرض علينا من الخارج فنحـــن نلاحظها كما تمارس من حولنا ، ونستطيع أن نستخرج منها صفات أساسية. تلـــك الصفات التي تبدو لنا ثابتة في جميع الحالات بالرغم مـــن اختـــلاف الواجبـــات الفردية . ومن الواضح أن ما هو أساسي بحق هو الميول التي تجعلنا ننزع إلـــى أن نسلك سلوكاً أخلاقياً ، لا في حالة خاصة فحسب ، بل في علاقاتنـــا الإنســـانية بوجه عام .

إن الأخلاق ليست كما نلاحظها اليوم فحسب ، بل كما يمكن أن نلاحظـــها خـــلال التاريخ كذلك ، تنحصر في مجموعة من القواعد المحدودة التي تتحكم في الســـلوك بطريقة آمرة .[١]

---

١ - نظر إميل دور كايم : التربية الأخلاقية ص ٣٤ .

وانظر د. قباري محمد إسماعيل : قضايا علم الأخلاق – دراسة نقدية من زاوية علم الاجتماع ص ص ١٨٠-١٨٢ .

وانظر د. قباري محمد إسماعيل : علم الاجتماع و الفلسفة – الجزء الثالث الاخلاق والدين ص ص ٥ -٥٥

ويتطلب ذلك منا أن نحدد العناصر الأساسية للحياة الخلقية ونبحث عن الاستعدادات الأساسية التي تقوم عليها الحياة الأخلاقية .

يتلقى المرء المبادئ الخلقية من الأسرة ثم من المدرسة الابتدائية ، ولكن الحدود الضيقة التي تحد أفق الطفل العقلي في هذه السن تحد أيضا أفقه الخلقي . ولكن بعد أن يتخطى مرحلة الطفولة الثانية ويصل إلى السن المدرسية يتحتم علينا أن نلقنه مبادئ الأخلاق .

وهكذا فلسفنا نحن الذين نصنع الأخلاق ، فقواعد الصحة إنما تأتينا من العلم الذي يقررها ، ولو نظرنا إلى قواعد الفن المهني لوجدنا أنها تأتينا من تقاليد النقابة ، أو من الذين يكبروننا سنا ويمثلون المهنة .

كذلك فإنه يجب أن ينظم الإحسان تنظيما اجتماعيا ، إذ لابد أن تتضافر وتنظم الجهود الفردية ، وعندئذ تزداد القيمة الأخلاقية للفعل ، لأنه يتجه إلى أهداف أعم ، وأكثر بعدا عن الفردية . أما إذا عالجنا كل حالة بؤس على حدة دون أن نحاول معالجة الأسباب التي ترجع إليها ، فذلك أشبه بطبيب يعالج الأعراض الخارجية لمرض ما ، دون أن يحاول الوصول إلى مكمن المرض . (١)

كذلك فإن الدور التي يوكل لكل جيل في تطور الأخلاق محدود للغاية . فأخلاق عصرنا قد ثبتت خطوطها الرئيسية منذ ولدنا . إذن التحولات الأخلاقية الكبرى تقتضي زمناً طويلاً . ونحن لا نستطيع أن ننكر أن الأخلاق نتيجة لمجهود جمعي ، ذلك أننا نتلقاها أكثر مما نصنعها ، وسلوكنا مسير أكثر منه سائر بإرادته.

١- إميل دوركايم . التربية الأخلاقية ص ص ٨٢-٨٣ .

وقد يتساءل المرء : أليس من المستطاع أن نجد ذاتنا بذاتنا ، عن طريق ما نبذله من جهد داخلي ، ودون أن يتحكم فينا ضغط خارجي ؟ ونجيب على ذلك بأن المقاومة الداخلية ليست إلا انعكاسا وتعبيرا عن المقاومة الخارجية .

والواقع أننا لو نظرنا إلى الفرد في ذاته ، مقتصرين على قواه الخاصة ، لما وجدنا أن في وسعه تغيير حالة المجتمع فليس في وسعنا أن نقوم بتأثير فعال على المجتمع إلا إذا ربطنا بين قوى الأفراد بحيث نضع قوى جمعية في مقابل قوى جمعية أخرى .

وهكذا فالحقيقة الأخلاقية عند دور كايم هي حقيقة اجتماعية . والمثل الأخلاقي الأعلى يصدر عن المجتمع ، وله وظيفة في المجتمع . ولا يمكن أن يقوم للمجتمع قائمة دون خلق القيم والمثل العليا ، فالمثال الروماني أو الأثيني مرتبط بلا شك بمظاهر التنظيمات الاجتماعية القائمة في تلك المدينتين .

وهنا يعرض دور كايم على فكرة الواجب الكانطية ، ويتفق مع كانط على فكرة الإلزام . إلا أن الإلزام الخلقي يصدر عند كانط عن العقل ، بينما يصدر عند دور كايم عن المجتمع ، والحقيقة الخلقية لا تنشأ إلا من الواقع الجمعي .

إذن مجال الأخلاق هو مجال الواجب . والواجب هو الذي يفرض علينا، فسلوكنا يخضع للسلطة . وأداء المرء لواجبه احترام منه للواجب ، وإطاعة

للأوامر لمجرد كونها قاعدة . وفي باطن هذه القاعدة تكمن فكرة الإلـــزام والقـــهر الخلقي .

وتتضمن فكرة الإلزام والقهر الأخلاقي الطاعة . ولكن كيف نوفق بيـــن الإلزام والإرادة . يجيب دور كايم بأن هناك نوعين من الطاعـــة ،طاعـــة سـلبية عمياء ، وهي أن ننقاد في جهل ودون علم سابق ، وطاعة إيجابية وهي أن ننقـــاد في حرية وفي علم تام بسببها . وهنا تكون إرادتنا حرة ، وتصبح مصدراً وحيـــداً لأفعالنا الخلقية . وهكذا حل دور كايم مسألة التعارض القائم بين الإلـــزام والإرادة، وقدم حلاً اجتماعياً لفكرة استقلال الإرادة في الأخلاق .

والواجب عند دور كايم – نسبي ، فـــهو يختلـــف بـــاختلاف الشـــعوب والحضارات ، حيث أن الحقيقة في الشمال ، قد تكون بـــاطلاً ، وضـــلالاً لـــدى شعوب الجنوب .[١]

والواجب عند " دور كايم " منتظم ، فهو يتكرر دائماً كما هـــو وبـــاطراد وتجانس تام . والواجبات لا تؤدي بأسلوب المباغتة ، وإنمـــا يكررهـــا المجـــرى الطبيعي للحياة في فترات دورية منتظمة . إذن فتنظيم السلوك وبث روح النظـــام وظيفة أساسية من وظائف الأخلاق .
والواقع أن الحياة الاجتماعية ليست إلا شكلاً من أشكال الحياة المنظمة . وحاسة الانتظام ، وكذلك حاسة الخضوع للسلطة يتجلى عنهما حالة ذهنية واحدة

١هـ - انظر د. باري محمد إسماعيل . قضايا علم الاجتماع : دراسة نقدية من زاوية علم الاجتماع ص ١٤٦

see Durkhein, Emile, scialogy and plilosephy, p. 35 .

هي ما نسميها بروح النظام . وفي روح النظام هذه نرى الركن الأساســـي الأول لكل حياة أخلاقية . وإذا خرج الفرد عن روح النظام أدى ذلك إلـــى اضطرابـات مرضية .

والواجب أو فكرة الإلزام تتألف مـــن عنصريـــن : عنصـــر الإلـــزام ، وعنصر اجتذاب الرغبة . وهذه الأخيرة تجذب المرء إلى الفعل الخلقـــي ، وهـــي تصور المثل الأعلى الذي يتوق إلى تحقيقه . فنحن نؤدي واجبنا لا لشيء إلا أنـــه الواجب . ويبدو هنا انتقاد دور كايم للمذهب النفعي .(١)

ويرى دور كايم أن فكرة الله لم تصدر عن الإنسان الفرد ، وإنمـــا هـــي فكرة اجتماعية تمخضت عن مشاعر الجماعة وعقلها . فالحقيقة الدينية هي حقيقـــة اجتماعية ؛ إذ أن الديني لا يصدر إلا عن الجمعي ، ولا يتحقق إلا في المجتمـــع ؛ فالمجتمع هو قوة خلقية ، وقوة روحية مثالية . كذلك تتعدى الفرد ماديا وفيزيقيـــا وخلقيا ، لأنه مصدر القيم ، ومهبط القواعد الخلقية . وعلـــى ذلـــك فكـــل النظـــم الاجتماعية ذات أصل ديني .

وأكد أميل دور كايم على أن أهم ما تتصف به أخلاق الشعوب البدائيـــة ، هي أنها دينية خالصة ، إذ أن أكثر الواجبات البدائية ، إنما لا تتعلق بصلة الفـــرد البدائي بالأخر ، ولكنها جميعا تفسر علاقة البدائي وواجباته نحو الآلهة .

ولقد كانت الأخلاق والفلسفة والفن والقانون ممتزجة جميعا بالدين ، حيـث اختلطت الأخلاق البدائية بالدين ، كما صدر العلم والفلسفة في أحضان الدين.

١- انظر د. قباري محمد إسماعيل : الاجتماع والفلسفة . الجزء الثالث . الأخلاق والدين ص ١٧٧ .

ومازال الدين حتى اليوم يضمن للأخلاق احتراما ، ويحيطها بهالة من القداسة ، فيقوم برد من تحدثه نفسه في الخروج عليها . بمعنى أن قواعد الدين إنما تفرض نفسها على مظاهر السلوك الخلقي ، كما أن وظيفة الدين لا تقتصر الآن فقط على حماية الأخلاق ، فهو لا يؤسس الأخلاق بقدر ما هو رباط ضمان وأساس حماية . وإذا كانت الأخلاق تفترض " إرادة " و "سلوكا" و"عملا" فإن الدين في ذاته هو "اعتقاد" و"إيمان" و"عمل" فلا يمكن للمسألة الأخلاقية إلا أن تثير المسألة الدينية . (١)

ويؤخذ على مذهب دور كايم أنه لم يستطع أن يفصل فصلا تاما بين وجهة النظر العلمية ووجهة النظر الذاتية . فحين فصل بين الظواهر الخلقية السليمة والظواهر الخلقية المعتلة ، عبر عن ذلك من وجهة نظر ذاتية محاولا تبرير بعض الظواهر أو القواعد الأحكام . ففي كتابه عن " الانتحار " كتب يقول: "يجب أن نقرر هذا المبدأ وهو أنه قتل الإنسان لنفسه يجب أن يكون موضع الاستهجان والنفور" .هذه العبارة لم يصل إليها دور كايم عن طريق الاستقراء العلمي ، وهي تتنافى مع أصول البحث والمنهج الذي ينبغي أن يسود البحث العلمي ، فاليابانيون مثلا يستحسنون الانتحار للتكفير عن خطأ جسيم هو المعروف باسم Hara Kiri . (٢)

هذا وإذا ما اتبعنا هذا المذهب تصبح المثالية الأخلاقية هي أن يجرد الفرد نفسه من كل نزعاته الداخلية ، ومن كل ميل ، أو رغبة في التمرد على المجتمع ونظمه . وإذا كان الفرد يعكس ضمير المجتمع ـــ كما يقول "دور كايم "

---

(١) Durkheim, Emile., L ' Education Morale, Paris. 1925. Pp. 6-8.

٢ - د. السيد محمد بدوي : الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع ص ص ١٥٢ - ١٥٣ .

فكيف نفسر ظهور المصلحين والزعماء الدينين والأنبياء والقديسين الذين يدفعون بمجتمعاتهم نحو الأمام ، ويحرصون على النظم والأوضاع السائدة في المجتمع .

ولقد تصور دوركايم ضمير جمعي لكائن غيبي هو الكائن الاجتماعي ، وأضفى عليه طابعا إلهيا مقدسا . وهو في ذلك لم يخرج عن نطاق الفيلسوف .

أما صفة الإلزام والقهر التي تتميز بها الظاهرة الأخلاقية ، فإنها تفقد الإنسان حريته وكرامته ، فالإنسان ليس مجرد أداة يحركها الكل الجمعي ، وإنما هو كائن مثقف بتراث ثقافي ، ويحمل في طياته كل خصائص الجماعة وثقافتها .

كذلك فإن صفة الإلزام والقهر التي تتمتع بها الظاهرة الأخلاقية ليست قاصرة على الظواهر الأخلاقية ؛ فالأوامر والنواهي ذات الطابع الطوطمي أو الديني هي أيضا ملزمة ، بل وقد تكون أكثر إلزاما في نظر الإنسان البدائي ، بل إن من الفلاسفة من أسس مذهبا أخلاقيا بدون إلزام ولا جزاء .

أما النظرة النسبية التي قال بها دوركايم ، فهي تحمل في طياتها عوامل هدمها ؛ حيث يتعذر أن نقنن القواعد الأخلاقية لعالم متغير لا ثبات فيه ، وهي شبيهة بقاض يمكن أن تستأنف أحكامه وأن تنقض . وفي المجتمع هناك عادات تفنى وتزول ، وعادات تتولد وتنتعش . ومن شأن هذا التكثر في الحال الاجتماعي المتغير أن يضع الصعوبات أمام قيام " علم العادات الخلقية " . وبالتالي يصبح من الصعوبة أن يشرع لقانون أخلاقي ثابت . وقولنا بنسبية الأخلاق إنما يعني

أننا ننكر وجودها ، فإما يكون الأمر الذي يمليه الواجب مطلقا ، وإمـــا لا وجــود لأمر أخلاقي .[1]

وتعثر دوركايم في تفسيره لفكرة الألوهية ، فالدين ليس ظاهرة اجتماعيـــة نستخلصها من دراسة الطقوس والشعائر الدينية ، وإنما يتصل الدين بمتابعة فـــي القلب والضمير ، وهو موقف صوفي خالص بين يدي الله . أما الشـــعور الدينـــي فهو شعور ذاتي خالص يتصل بالإنسان الفرد ، وبعيدا عن المجتمع .

لوسيان ليفي بريل

تحرر ليفي بريل من وجهة النظر الذاتية واعترض على المبدأ الفلســـفي الذي يجعل من الإنسان على العموم L, homme en General موضوعا لــــلأخلا حيث المبدأ للتفكير الأخلاقي برمته ؛ ذلك أن فكرة الإنسان المطلق أو العام هـــي فكرة مجردة وليست علمية ، وعلم الاجتماع يأخذ بالإنسان الواقعي التـــاريخي أو الإنسان في ضوء الوجود الاجتماعي .

لقد تناسى الفلاسفة أن الإنسانية ليست واحدة ، وإنما تتخذ فـــي حياتـــها أشكالا متعددة تختلف باختلاف البناءات الثقافيـــة والاجتماعيـــة ، فـــإن حضـــارة اليونان القديمة تختلف عن الحضارات البدائية . والإنسان – عند ليفي بريل ، هـــو إنسان من جنس خاص ، ومن عصر معين ، حيث تشهد التجربـــة الخلقيـــة بـــأن الإنسان ليس واحدا مطلقا ، وإنما يختلف باختلاف الحضارة والتاريخ .

١- د. قباري محمد إسماعيل : علم الاجتماع والفلسفة . الجزء الثالث . الأخلاق والدين ص ١٤١ .

وأكدت كذلك الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية نسبية القواعد الخلقية والمعايير العقلية في شتى المجتمعات والأزمنة . وتلك حقيقة علمية يتجاهلها الفلاسفة ، وتؤكدها نتائج " علم الأنثروبولوجيا " .(١)

ورفض ليفي بريل كذلك الأخلاق المعيارية ، كما ورد في كتابه " الأخلاق وعلم الظواهر الخلقية " . فالفلاسفة يفكرون في المثل العليا التي تحمل معاني الخير والشر ، والعدل والظلم ، والنافع والضار . ولذلك جاءت الأخلاق المعيارية عقيمة مجدبة ، وهي تزعم لنفسها أنها نظرية ومعيارية في آن واحد . وهي بذلك تنحرف عن دراسة الحقيقة الأخلاقية دراسة موضوعية تستند إلى ما هو قائم بالفعل .

والمشكلات الأخلاقية عند " ليفي بريل " هي معطيات Donnes يمكن دراستها من الخارج دراسة موضوعية . وهكذا ميز ليفي بريل بين القواعد التي تنظم السلوك وبين البحث عن القوانين التي تفسر هذا السلوك ، وأعلن حذف الأخلاق المعيارية ، وإحلال العلم الوضعي ، والموقف النسبي لدراسة الظواهر الأخلاقية .

ويؤلف علم الاجتماع الأخلاقي عند " ليفي بريل " نوعا من الفيزيقا الأخلاقية Physical Morale ، فهو يبحث في الظواهر الخلقية وقوانين تطورها في مختلف العصور ، وفي سائر المجتمعات والثقافات . (١)

---

١ - انظر د. قباري محمد إسماعيل : علم الاجتماع والفلسفة . الجزء الثالث : الأخلاق والدين ص ص ٧٢ - ٧٨ .

٢ -انظر د. أحمد عبد الحليم عطية . المرجع السابق . ص ص ٥٦ - ٦٣ .

وفي ضوء هذا فإن الظواهر الأخلاقية تخضع لقوانين ثابتة كما هو الحال في علوم الطبيعة . وإذا كانت علوم الطبيعة تستند إلي الرياضيات ، فإن علم العادات الخلقية يستند إلي الثقافة والتاريخ ، ويستمد أصوله من مصادر ثقافية وأصول اجتماعية تختلف باختلاف الزمان والمكان . وعليه ذهب ليفي بريل إلي إمكان ، قيام العلم الوضعي والنسبي للأخلاق الذي يسعى للوصول إلي القواعد والقوانين الأخلاقية التي تحكم الظاهرات الخلقية .

وأوضح ليفي بريل أن الأخلاق وهي مجموعة من القواعد والأوامر والنواهي والواجبات لها وجود خارجي كما هو حال اللغات والأديان والقوانين ، فهي مسلمات يمكن دراستها من الخارج ، وذلك بالالتفات إلي ما هو قائم بالفعل في سائر الثقافات والمجتمعات .

وينحصر البحث العلمي في دراسة تلك المعطيات كما تظهر لنا في المجتمعات الإنسانية المختلفة – أي في دراستها بنفس الروح التي يدرس بها عالم الطبيعة موضوعات بحثه . وارتكانا إلي ذلك الفهم يمكن قيام العلم الوضعي والنسبي للأخلاق .

وبذلك الموقف أحل ليفي بريل علم العادات الخلقيـــة بـــدلا مـــن فلســـفة الأخلاق ، حيث أن أخلاق الفلسفة تستند إلي وجهه النظر المعيارية ، في حيـــن أن أخلاق علم الاجتماع تتقيد بوجهة النظر النسبية •

البيربايية A. Bayet

الأخلاق عند البيربايية لا تنحل إلي فلسفات • فقد أكمـــل بايـيـــة الاتجـــاه الوضعي في علم الاجتماع الأخلاقي ، وحاول أن يحقق " الموضوعية التامة " فـــي دراسة الظواهر الأخلاقية ، ويقنن لها قوانينها العامة ، وذلك كما تفعـــل العلـــوم الطبيعية في معالجتها سائر الظاهرات الفلكية والفيزيقية والبيولوجية •

نقد بايـيه فلسفات الأخلاق " في كتابه " علـــم الظواهـــر الخلقيـــة La Science de faits Moraux ، فتارة تبحث هذه الفلسفات عن المبدأ الأخلاقـــي في ذات الله ، والإرادة الإلهية Volonte` divine ، وتارة أخرى تضعـــها فـــي الضمير La conscience ، أو في العقل La Raison ، وطـــورا يكـــون الشعور Le Sentiment الإنساني مصدرا للأخلاق ، وطورا تكون اللـذة ، أو المنفعة الخاصة أو الجمعية •

وانتقد بايية الفكرة التي كانت سائدة عند الفلاسفة ، والتـــي تذهـــب إلـــي القول بالتمييز بين الخير والشر ، ومادام الخير يفرض ، والشر يحرم ، فإننا نبقـــى أمام أفعال ملزمة إما بالإيجاب ، وإما السلب •

ولكن الحقيقة أن الحياة الخلقية لا تقتصر علي التمييز بين هذين القطبيـــن المتباعدين ، فبجانب الأفعال الملزمة هناك أخلاق بدون جزاء ولا إلزام ، وهنـــاك

أفعال مستحسنه ، وهناك أفعال تتصح بها الأخلاق • وهناك أشكال تتفاوت بين المثالية التي لا تتحقق إلا في الحكماء والأنبياء ، وبين الأفعال العادية التي يؤديها سائر الناس • وتحمل اللغة نفس التدرج ، فهناك " القديس " Saint " والحكيم Sage، والأمين Honnête ، والنبيل ، والشهم •

وفي كتابه بعنوان " الدراسة العلمية للظواهر الأخلاقية " عكف باييه علي استخلاص الحقائق الخلقية من الظواهر الاجتماعية التي تختلط بها . فالظاهرة الخلقية لا توجد في أعيننا في حالتها الصرفة ، بل يجب استخلاصها من عدد من الظواهر الاجتماعية •

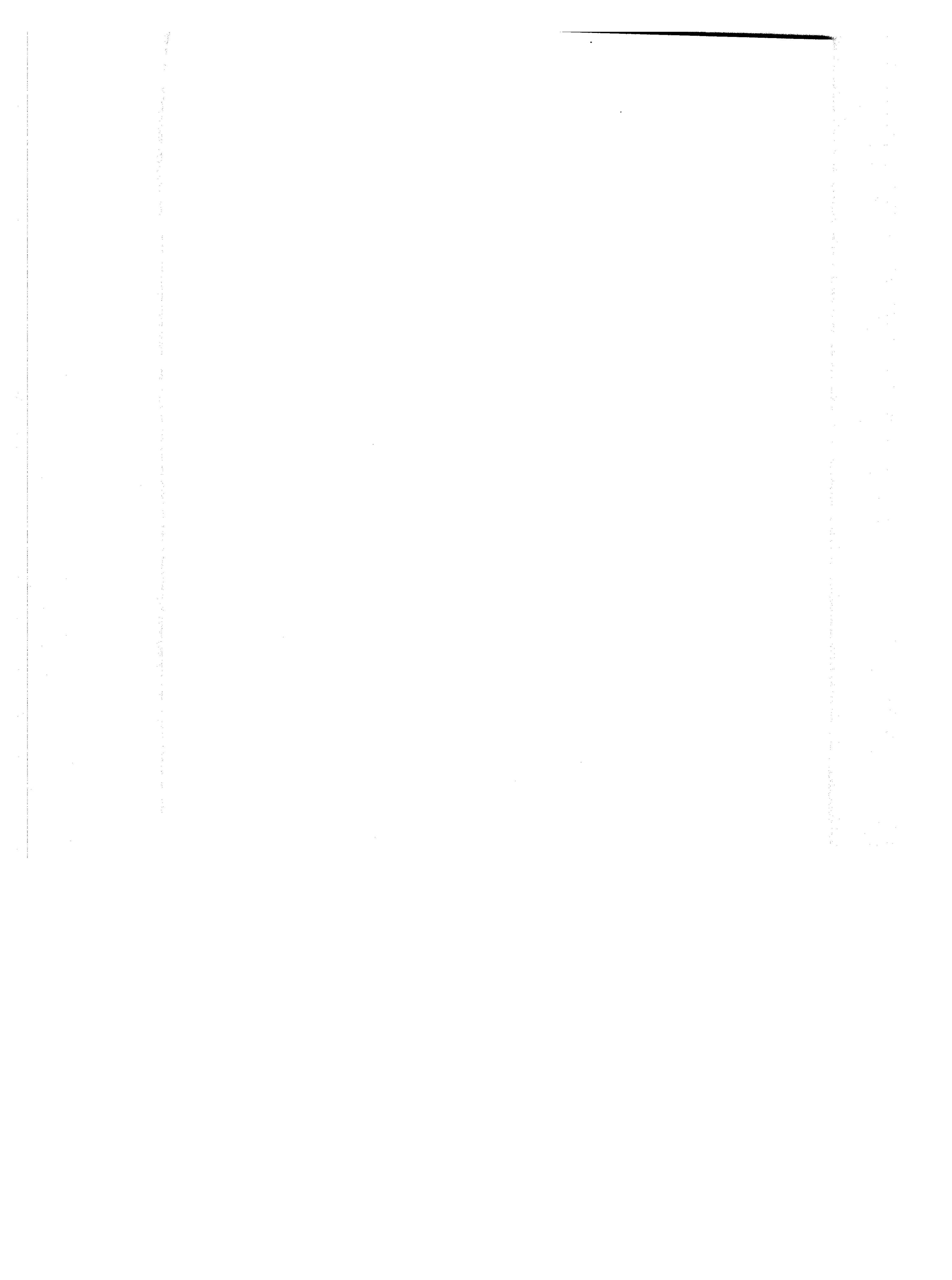
إننا إذا أردنا أن تبحث ظاهرة السرقة فإننا نستطيع أن ندرسها بالبحث عن الصيغ التي يحكم بها الرأي العام علي السارق ، والرجوع إلي نصوص القانون الجنائي الخاص بجريمة السرقة ، والحكم والأمثال ، وأقوال الفلاسفة ، والقانون والعادات ، وما يحتويه الإنتاج الأدبي عن السرقة ؛ مما يصل بنا في النهاية إلي تحديد عام للظاهرة الخلقية •

وقد بدأ باييه أبحاثه بقوله : إن هناك ظاهرة أخلاقية متي كان هناك تمييز في أي شكل من الأشكال بين الخير والشر • والأخلاق -عنده - هي مجموعة القواعد والأوامر لها وجودها الخاص كوجود الأديان واللغات والقواعد. فهي إذن " معطيات التجربة " التي يمكن دراستها من الخارج • وعلي ذلك فقد حاول باييه أن يحقق الموضوعية التامة في دراسة الظواهر الأخلاقية ، مما يستلزم منهجا علميا لدراسة هذه الظواهر ، ويتحقق ذلك في " علم الظواهر الأخلاقية " •

ويحقق هذا العلم تتبع أصول وتطور الظاهرة الأخلاقية باستخدام المنـــهج العلمي ، وذلك عن طريق دراسة المفردات ، ومـــن خـــلال الآداب ، والحكـــم ، والأمثال ، ومظاهر الفن والقوانين والتشريعات ، مما يمكن مـــن تقنيـــن القواعـــد العامة ، تماما كما تعالج العلوم الطبيعية سائر الظواهر الفلكية والفيزيقية .



المراجع



أولا : المراجع العربية

١-أحمد أمين • كتاب الأخلاق • القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٢٩ •

٢-د• أحمد عبد الحليم عطية • الأخلاق في الفكر العربي المعاصر – دراسة تحليلية للاتجاهات الأخلاقية الحالية في الوطن العربي • القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٩٠ •

٣-د• أحمد عبد الحميد غراب • الشخصية الإنسانية في ضوء القرآن الكريم • الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ •

٤-د• أحمد محمود صبحي • الفلسفة الأخلاقية في الفكر الإسلامي ، العقليون والذوقيون أو النظر والعمل • دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨٣

٥- السيد سابق • فقه السنه – الجزء الثالث • الفتح العربي للأعلام ، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م •

٦-د• السيد عبد الحليم الزيات • في السياسة ونظم الحكم • د • ن ١٩٩١ •

٧-د• السيد محمد بدوي • دراسات في علم الاجتماع المعاصر • دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨ •

٨-________ • الأخلاق بين الفلسفة وعلم الاجتماع • الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٥ •

٩- ________ • المدخل إلي علم الاجتماع • الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩٦ •

١٠- السيد محمد عاشور • مركز المرأة في الشريعة اليهودية • د • ن • ، ١٩٧٤ •

١١- أنور الجندي • المخططات التلمودية واليهودية الصهيونية • دار الاعتصام ، ١٩٧٧ •

١٢- أنيس منصور ، شباب – شباب القاهرة ، دار الشروق ، الطبعة الثانية ، ١٩٩٠ .

١٣- د. حسن الشرقاوى . الأخلاق الإسلامية . الإسكندرية ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٥ .

١٤- د. حسن شحاته سعفان . تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية . القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية . الطبعة الثانية ، ١٩٥٦ .

١٥- د. حسين عبد الحميد أحمد رشوان . الفلسفة الاجتماعية والاتجاهات النظرية في علم الاجتماع . الإسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٨٥

١٦- ———— . تطور النظم الاجتماعية وأثرها في الفرد والمجتمع . الإسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، الطبعة الثالثة ، ١٩٩٣

١٧- ———— . علم اجتماع المرأة – الإسكندرية ، المكتب الجامعي الحديث ، ١٩٩٨ .

١٨- د. ذكريا إبراهيم . الأخلاق والمجتمع . القاهرة . الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .

١٩- د. سامية مصطفي الخشاب . علم الاجتماع الإسلامي . القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٧ .

٢٠- د. عبد الكريم اليافي . في علم السكان . مطبعة جامعة دمشق ، ١٣٧٨ هـ – ١٩٥٩ م .

٢١- د. عبد الوهاب جعفر . مذكرة في فلسفة الأخلاق . د . ن . ، ١٩٩٠.

٢٢- عصام الحرستاني ومحمد الحسناوى . عالم المرأة وهموم المرأة المعاصرة . القاهرة ، دار الإسراء ، د. ت .

٢٣- د. علي عبد المعطي محمد . المدخل إلي الفلسفة . الإسكندرية ، دار المعرفة .الجامعية ، ١٩٩١ .

٢٤- د . علي عبد المعطي محمد ومحمد علي محمد . السياسة بين النظرية والتطبيق . دار الجامعات المصرية ، ١٩٧٤ .

٢٥- د. علي عبد الواحد وافي . حقوق الإنسان في الإسلام . القاهرة ، مطبعة النهضة ، ١٩٥٠ .

٢٦- الغزالي / محمد أبو حامد . أحياء علوم الدين . الجزء السابع . الطبعة الثانية ١٩٨٧ .

٢٧- ـــــــــــ.ـــــــــــ. وبهامشه تخريج الإمام الحافظ العراقي ويتبعه كتاب إملاءً في إشكالات الأحياء للإمام الغزالي ، وكتاب تعريف الأحياء بفضائل الإحياء للشيخ العيد روس . المجلد الثالث ، بيروت ، دار الجيل .

٢٨- د. فؤاد حسنين علي . إسرائيل عبر التاريخ في البدء . دار النهضة ، د.ت .

٢٩- د. قبارى محمد إسماعيل . علم الاجتماع والفلسفة . الجزء الثالث . الأخلاق والدين . بيروت ، دار الطلبة العرب ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٨ .

٣٠- ـــــــــــ. قضايا علم الأخلاق - دراسة نقدية من زاوية علم الاجتماع . دار المطبوعات الجديدة للطباعة ، ١٩٧٨ .

٣١- د. محمد أحمد بيومي . علم اجتماع القيم . الإسكندرية . دار المعرفة الجامعية ، ١٩٩١ .

٣٢- محمد الغزالي . خلق المسلم . القاهرة . دار الريان للتراث ، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

٣٣- د. محمد حسين هيكل . حياة محمد . دار المعارف ، الطبعة التاسعة عشرة ، ١٩٩٣ م.

٣٤- محمد متولي الشعراوي . المرأة في القرآن الكريم . أخبار اليوم ، ١٩٩٠ م.

٣٥- محمد يوسف موسى . فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية – مع مقالة في الأخلاق في الجاهلية والإسلام قبل عصر الفلسفة . القاهرة مطبعة الرسالة ، ١٣٦٤ هـ – ١٩٤٥ م.

٣٦- د. محمود سيد أحمد . الإنسان في أخلاق نيقولاى هارتمان . القاهرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٩١ م.

٣٧- د. مصطفي الخشاب . علم الاجتماع ومدارسه – تاريخ الفكر الاجتماعي ومدارسه . القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ، ١٩٥٨ .

٣٨- مصطفي السباعي . أخلاقنا الاجتماعية . مكتبة الشباب المسلم ، ١٩٧٥ م.

٣٩- د. يعقوب المليجي . أخلاق المنافقين . الإسكندرية ، مطبعة بدوي وشركاه ، الطبعة الأولي ، ١٩٩٠ م.

٤٠- يوسف كرم . تاريخ الفلسفة الحديثة . دار المعارف بمصر ، الطبعة الخامسة ، ١٩٦٩ .

ثانيا : المجلات

٤١- مجلة الدعوة . العدد ٢٠٣ ، يوليو ١٩٩٧ .

٤٢- مجلة الوعي الإسلامي . العدد ٨٠ ، ١٩٧١ .

ثالثا : المراجع الأجنبية (مترجمة)

٤٣- إرمان / أد ولف . ديانة مصر القديمة - نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنه . ترجمة د. عبد المنعم أبو بكر ود . محمد أنور شكري القاهرة ، مكتبة مد بولي ، د.ن .

٤٤- دوركايم / إميل . التربية الأخلاقية . ترجمة د. السيد محمد بدوي القاهرة ، مكتبة مصر ، د.ت .

٤٥- ديورانت / ول . قصة الحضارة - الجزء الثالث من المجلد الثالث - قيصر والمسيح أو الحضارة الرومانية . ترجمة محمد بدران القاهرة ، الإدارة الثقافية ، في جامعة الدول العربية ، ١٩٥٧ م.

٤٦- سميلز / صموئيل . الأخلاق . نقله إلي العربية محمد الصادق حسين لجنة التأليف والنشر والترجمة ، ١٩٢٤ م.

٤٧- كرسون / اندريه . الأخلاق في الفلسفة الحديثة "القسم الثاني من "المشكلة الأخلاقية والفلاسفة" ترجمة د. عبد الحليم محمود و أ. أبو بكر ذكرى . القاهرة . مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ، ١٣٦٨ هـ ١٩٤٨ م.

٤٨- هارفليد / ج . أ . علم النفس الأخلاق . ترجمة . د. محمد عبد الحميد أبو العزم . ود. عبد العزيز القوصي . القاهرة ، مطبعة مصر . ١٩٥٣ م.

رابعا المراجع الأجنبية

49 – Abelson, Raziel & Friquegnon , Marie-Louise, Erthics for Modern life , New York , St . Martin's Press, 1975 .

50-Barness, Harry Elmer, Introduction to the History of Sociology , Chicago, the university of Chicago press, Fourth Empression ,1954 .

51– Durkheim, Emile, L' Education Morale, Paris, 1925 .

52 - _____________, sociologie et Philosophie, Paris, p. u . f., 1951 .

53 - _____________, sociology and Philisophy, Trans by D.f. Pocock, London, 1953 .

54 - Gurvitch, George, Morale Theorique et science des Moeurs, Press Univer, Paris, 1948 .

55 - Hobbes, T., Leviathan, oxford, 1909 .

56 - Horwitz, Robert, (Ed.) The Moral foundation of the American Republic, The university Press of Virginia, Charlottes ville, 1977 .

57 - Hume, David, H Treatize of Human Mature, Vol., 1, Everyman Library, 1939 .

58 - Kant, Immanuel, Fondements, de la Methaphysique des Moeurs, Paris, 1967 .

59 - Maxey, political Philosophy, The Mc-Millan co., U.S.A., 1948 .

60 - Mead, G.H., Mind, self and society From standpoint of social Behaviorist, chicago, The university Press , 1969 .

61 - Nino, Carlos Santiage, The Ethics of Human Rights, Clarendon Press, oxford, 1991 .

62 - Parsons, Talcott, action Theory and Human action, New york, The free Press, A Division of Mac Millan Publishing Co., Inc., 1978 .

63 - Schelenberg, james A., Masters of social Psychology, freud, Mead, lewin and skinner, New york, oxford university Press, 1978 .

للمؤلف

١ – الاستعمار فى القرن العشرين. الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية ١٩٧٥.

٢ – الادعاءات الصهيونية والرد عليها. الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية الطبعة الثانية، ١٩٧٥.

٣ – الفلسفة الإجتماعية والاتجاهات النظرية فى علم الإجتماع. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية الطبعة الثالثة ٢٠٠١.

٤ – تطور النظم الإجتماعية وأثرها فى الفرد والمجتمع. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، الاسكندرية ١٩٩٣.

٥ – المجتمع والتصنيع - دراسة فى علم الإجتماع الصناعى. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية ١٩٥٥.

٦ – المدينة - دراسة فى علم الإجتماعى الحضرى. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية الطبعة الخامسة، ١٩٨٩.

٧ – دور المتغيرات الإجتماعية فى التنمية الحضرية - دراسة فى علم الإجتماع الحضرى، المكتب الجامعى الحديث ١٩٨٨.

٨ – بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور / عبد الهادى الجوهرى للعام ١٩٩٣/ ١٩٩٤، وما بعد ١٩٩٤ بدون اتفاق. علم الإجتماع الحضرى - مفاهيم وقضايا. دار الشروق، جامعة القاهرة، ١٩٩٧.

١٠ – مشكلات المدينة - دراسة فى علم الإجتماع الحضرى. المكتب العربى الحديث، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢.

١١ – الاشتراك مع الأستاذ الدكتور / عبد الهادى الجوهرى. دراسات فى علم الإجتماع الحضرى - مشكلات المدينة. المكتب الجامعية الحديث، ٢٠٠١.

١٢ – المجتمع - دراسة فى علم الإجتماع - المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٩٣.

١٣ – علم الإجتماع وميادينه. المكتب الجامعى الحديث. الطبعة الرابعة، ٢٠٠١.

١٤ – ميادين علم الإجتماع ومناهج البحث العلمى. المكتب الجامعى الحديث. الإسكندرية، الطبعة الثانية، ٢٠٠١.

١٥ – العلم والبحث العلمى - دراسة فى مناهج العلوم. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية الطبعة السادسة، ١٩٩٦.

١٦ – التطرف والارهاب من منظور علم الإجتماع. دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥ .

١٧ – الجريمة ـ دراسة فى علم الإجتماع الجنائى. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ١٩٥٥ .

١٨ – التغير الإجتماعى والتنمية السياسية فى المجتمعات النامية ـ دراسة فى علم الإجتماع السياسى. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٢ .

١٩ – العلاقات الإجتماعية فى القوات المسلحة ـ دراسة فى علم الإجتماع العسكرى. المكتب العربى الحديث، الاسكندرية ١٩٩٩ .

٢٠ – العلاقات العامة والإعلام من منظور علم الاجتماع. المكتب الجامعى الحديث، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧ .

٢١ – العلاقات الإنسانية فى مجالات : علم النفس، علم الإجتماع، علم الإدارة، المكتب الجامعى الحديث، ١٩٩٧ .

٢٢ – دور المتغيرات الإجتماعية فى الطب والأمراض ـ دراسة فى علم الإجتماع الطبى. المكتب الجامعى الحديث، الطبعة الثانية، ١٩٩٩ .

٢٣ – علم الإجتماع الطبى لشعب التمريض بالمعاهد الصحية، وزارة الصحة بالاشتراك مع منظمة الصحة العالمية، القاهرة، ١٩٩٧ .

٢٤ – علم الإجتماع المرأة ـ المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٨ .

٢٥ – الطفل ـ دراسة فى علم الإجتماع النفسى، الإسكندرية، المكتب الجامعى الحديث، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٠ .

٢٦ – الأسس النفسية والإجتماعية للابتكار. المكتب الجامعى الحديث، الاسكندرية ٢٠٠٠ .

٢٧ – الفولكلور والفنون الشعبية من منظور علم الإجتماع. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٣ .

٢٨ – مشاكل وقضايا معاصرة. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٧ .

٢٩ – أضواء على الحياة الإجتماعية. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩ .

٣٠ – سلوكيات. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ٢٠٠١ .

٣١ – الانثروبولوجيا فى المجال النظرى. المكتب الجامعى الحديث. الطبعة الثانية، ١٩٩٧ .

٣٢ – **الانثروبولوچيا فى المجال التطبيقى. المكتب الجامعى الحديث. الإسكندرية، ١٩٨٩.**

٣٣ – بالاشتراك مع الأستاذ الدكتور / عبد الهادى الجوهرى (بدون اتفاق) دراسات فى الأنثروبولوچيا . المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية ٢٠٠١ .

٣٤ – السكان من منظور علم الإجتماع، الإسكندرية، المكتبة الجامعية، ٢٠٠١ .

٣٥ – الاقتصاد والمجتمع ـ دراسة فى علم الإجتماع الاقتصادى. المكتبة الجامعية، ٢٠٠٢.

٣٦ – التربية والمجتمع ـ دراسة فى علم إجتماع التربية ـ جارى تأليفه .

رقم الإيداع	٢٠٠١/١٠٦٥٩
الترقيم الدولى I. S. B. N.	
977 - 5125 - 22 - 7	